إسرائيل كما عرفتها

طبيب مصرى شاهد على إعدام الأسرى
وقتل الأطباء والجرحى فى المستشفيات
فى حرب ٥٦ مؤيدة بالصور والمستندات

دكتور
أحمد شوقى الفنجرى

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة وموثقة

إسرائيل
كما عرفتها

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

صدق الله العظيم

دار الأمين للنشر والتوزيع

DAR AL AMEEN

طبع ● نشر ● توزيع

القاهرة : ١٠ شارع بستان الدكة
من شارع الألفى
(مطابع سجل العرب)
ت : ٩٣٢٧٠٦٠٠
ص.ب : ١٣١٥ العتبة
١١٢٥١١.

الجيزة : ١ شارع سوهاج
من شارع الزقازيق -
خلف قاعة سيد
درويش بالهرم -
ص.ب : ١٧٠٢ العتبة
١٠٢٥١١٠

الطبعة الثانية

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

رقم الإيداع ٩٤٩٦/ ١٩٩٥

I.S.B.N.

977-279-027-0

إهداء

إلى اخوانى الشهداء فى كل أرض عربية ...

فى معركة سنة ١٩٤٨ ثم سنة ٥٦ سنة ٦٧ .سنة ٧٣

والى كل زميل لى من زملائى فى العمل ...

الذين نالوا شرف الاستشهاد قبلى من أجل الوطن ...

إلى أخى الشهيد الدكتور عبد المنعم حافظ ...

والى أخى الشهيد الدكتور سامى عبد المجيد ...

والى أخى الشهيد الدكتور محمد سعيد السيد ...

الذين قتلهم جند إسرائيل داخل المستشفى وأثناء تأديتهم لعملهم الإنسانى ...

والى كل رفيق فى الكفاح ...

إلى كل من حمل القلم أو الفأس أو المشرط أو السلاح ...

من أجل قضية الكيان العربى ...

إليهم جميعاً أقدم هذا الكتاب ...

ليفضح بربرية إسرائيل التى تدعى المسالمة والمدنية والإنسانية ...

الدكتور أحمد شوقى الفنجرى

القاهرة – ت : ٣٥١١٧٥٦

المعادى – أبراج عثمان – برج ١٤

مقدمة الطبعة الأولى

١٠ مارس سنة ١٩٦٠

شاءت الأيام أن أعرف إسرائيل وشعب إسرائيل . . عرفتهم فى الحياة السلمية وفى جو المعركة . . وعرفتهم فى الهزيمة وفى النصر . . وعرفتهم قبل أن تصبح لهم دولة وبعد أن أصبحت لهم دولة .

ودرست كل معركة دارت بيننا وبينهم منذ سنة ١٩٤٨ حتى اليوم . كذلك فقد حضرت بعض تلك المعارك وكنت شريكاً فيها لا بالمدافع فليس كل محارب هو من حمل السلاح فقط . . ولكن بجهدى وعلمى ودمى .

الباب الأول من هذا الكتاب يقص عليك « كيف عرفت إسرائيل » وتجربتى معها وخصوصاً فى أيام العدوان الثلاثى على غزة سنة ١٩٥٦ .

لقد كنت أسجل هذه الأحداث يوماً بيوم أثناء وجودى كأسير حرب فى معتقل الأسرى فى عتليت شمالى عكا سنة ٥٦ . ثم استأنفت الكتابة عندما عدت من المعتقل إلى غزة هى ماتزال تحت الحكم الإسرائيلى وأثناء عملى فى المستشفى التابع للأمم المتحدة .

وكنت فى تلك الفترة كلها أحرص كل الحرص على الاحتفاظ بكل مستند يقع تحت يدى أو صورة استطيع التقاطها أو حتى شراء ها لتدين الحكم الإسرائيلى .

أما الباب الثانى بعنوان « إسرائيل كما يجب أن تعرفها » فهو دراسة قمت بها بعد الحرب عن إسرائيل وشعبها . وهى تختلف عن أى دراسة نظرية مما ينشر فى كتب الدراسات الاستراتيجية بأنها مبنية أساساً على مشاهداتى ومناقشاتى الطويلة مع ضباط إسرائيل ومفكريها الذين كانوا يزورروننى أثناء عملى فى المستشفى ، فما أن يعلموا أننى طبيب مصرى . حتى يجلسون معى بالساعات الطوال يحاوروننى عن مستقبل إسرائيل . وفرص الحياة والتعايش مع العرب .

وليس الهدف من هذا الكتاب هو مجرد سرد أحداث التاريخ ، فلست من أهل القصص ولا رواة التاريخ . . بل إنى لا أحب أبداً أن أنظر إلى الوراء . . إلا إذا كانت النظرة إلى الخلف لدراسة تنفع فى المستقبل .

لذلك فإن هدفى الأول : هو أن تعرف من خلال التجربة والواقع من هو عدوك ومن هو أنت . وما هى نقاط القوة والضعف فيه وفيك . وماذا يمكن أن يضمره لك فى المستقبل بناء على تجاربك معه فى الماضى .

والهدف الثانى : هو أن نستفيد من هذه الدراسة والخبرة لمعرفة أخطائنا التى أدت إلى هزائمنا المتوالية وأن نعمل على إصلاحها . ولاشك أن أبشع هذه الأخطاء هو غياب الديموقراطية عن عالمنا العربى .

والهدف الثالث : هو أن أفضح إسرائيل وأساليبها . . وأفضح بربريتها وتوحشها وسفكها للدماء . . ولأول مرة فى التاريخ تكون هذه الفضيحة مؤيدة بالصور والمستندات وبكلام إنسان طبيب شاهد تلك الأحداث بعينه . . فليس فى هذه الأحداث شىء أنقله أو أرويه عن أحد . . ولكنى أذكر منها ما رأيته بعينى فحسب .

فهذا الشعب الذكى الماكر قد قامت دعايته التى كسب منها تأييد العالم على أنه شعب صغير ضعيف مظلوم . . يريد الحياة فى سلام وأن جيرانه العرب وحوش تريد أن تنقض عليه . . وتقذف به فى البحر . . فى حين أن هذا الشعب المظلوم المسالم قد شرد حتى اليوم أكثر من عشرة ملايين عربى من أراضيهم . . وسفك دماء أكثر من خمسين ألفاً من المدنيين والجنود الأسرى . ثم مازال بعد ذلك وأيديه تقطر دماً ينادى بالسلام . . ويدعى المسالمة .

لكم بودى أن يترجم هذا الكتاب مع كل ما فيه من صور ومستندات إلى جميع اللغات الحية . . لكى ندحض به دعاية إسرائيل . .

والسلام . . .

مقدمة الطبعة الثانية

سبتمبر سنة ١٩٩٥

صدرت الطبعة الأولى من كتاب « إسرائيل كما عرفتها » بعد العدوان الثلاثى بمدة قصيرة وكنت قد غادرت قطاع غزة واستقلت من هيئة الأمم المتحدة بسبب المضايقات الكثيرة والتحقيقات المستمرة معى من قبل المسئولين الدوليين ، وكانوا قد ساءهم إصرارى على نشر كل مشاهداتى وكل ما معى من صور ووثائق ومستندات عن جرائم الجيش الإسرائيلى فى سنة ٥٦ - ٥٧ إلى جانب اتهامى لبعض المسئولين الدوليين بالهيئة بالتواطؤ مع إسرائيل وبالتخلى عن مهمتهم الإنسانية وعن خدمة اللاجئين الفلسطينيين فى وقت المحنة والشدة .

وبعد مغادرتى غزة هاجرت إلى كندا . . ثم جاءنى عقد فى الكويت فسعدت به لأنها بلد ديموقراطى حر . . وفى الكويت أصدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب . . وقد حاولت تصديره إلى مصر فمنعته الرقابة المصرية فلم ير النور فى مصر إلا فى العهد الحاضر وحكم الرئيس حسنى مبارك .

لقد نفذت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى الكويت فى شهور معدودة . ولما أردت أن أعيد طبعه فى مصر . بعد ذلك لاقيت الكثير من الصعوبات والعقبات سواء من الناشرين أو الجهات الرسمية . . أما الناشرون فكانت حجتهم أن موضوع مذابح الأسرى سنة ١٩٥٦ قد انتهى ومات ولم يعد يهم القراء . أما الجهات الرسمية فكانت حجتها أن نشر هذه المعلومات يثير المواجع والمرارة وروح اليأس بين المواطنين . . ويفضح تقصير النظام الحاكم فى مصر فى ذلك الوقت وفساده وادعاءه أن ما حدث فى حرب سنة ١٩٥٦ كان نصراً مبيناً لمصر والعرب . .

هذا فى حين أن كُتاب اليهود مازالوا يكتبون عن كل حروبهم مع العرب حتى يومنا هذا حتى يعرف شعبهم ماضيه ويبنى مستقبله على النور والمعرفة . بل إنهم فى كتاباتهم كانو يتعمدون نشر أخطائهم وأخطاء قادتهم الذين جلبوا لهم النصر الرخيص . . وذلك بقصد أن لا تتكرر هذه الأخطاء فى المسقبل .

ويعز عليّ أن أقول إن هذه الطبعة الجديدة من الكتاب ما كانت لترى النور مرة أخرى فى سنة ١٩٩٥ ، أى بعد ثلاثين عاماً من الطبعة الأولى ، إلا بفضل إثنين من الصحفيين الإسرائيليين الأشراف الذين حضرا حرب سنة ٥٦ وحرب ٦٧ كمجندين وهما الصحفى الشجاع (جابرييل براون) والكاتب (ايريه إسحاقى) وقد تحرك ضميرهما بعد هذه السنوات الطويلة وأخذا ينشران عن قصص طوابير الإعدام للأسرى المصريين والفلسطينيين . كما شاهدوها بأنفسهم . وعن حوادث الإغتصاب والتطهير العرقى ، وذكرا أسماء الضباط الذين قاموا بهذه الجرائم ، ومنهم وزراء حاليون وسابقون ومنهم من ترقوا إلى رتبة أعلا بسبب هذه المذابح . . وفى مقدمة هؤلاء السفاحين الضابط (أرييه بيرو) والضابط (مردخاى براون) الذين اعترفوا متباهين أنهما قاما بمذابح جماعية ضد المصريين والفلسطينيين لو قيست بما فعله النازى فى اليهود فى الحرب العالمية . لقلنا إن النازى لم يفعلوا شيئاً بل كانوا رحماء .

وقد أثارت هذه الحقائق البشعة ضمير العالم وصحافة أوروبا وأمريكا وغضبت حكومة إسرائيل والكنيست لا لحدوثها ، فقد كانوا يعلمونها ، ولكنهم غضبوا لإذاعتها . وقد كتبت لأول مرة فى جريدة الأهرام عدة مقالات فى شهر سبتمبر سنة ٩٥ عما شاهدته من جرائم الحرب . وبعدها اتصل بى العديد من وكالات الأنباء والتليفزيون والإذاعة والصحافة فى أوروبا وأمريكا . وحضروا إلى منزلى ليسجلوا أقوالى ويشاهدوا الصور والمستندات التى ظهرت فى الكتاب وأذاعوها على العالم . كما اهتمت الصحافة العربية فى دول الخليج ولبنان ومصر ونشرت عدة أحاديث وصور .

ورغم الإرهاق الذى عانيته من كثرة هذه اللقاءات المستمرة . . فقد كنت أشعر بمنتهى السعادة ورضى النفس أننى استطعت أخيراً قبل أن أموت ويدفن السر معى أن أبلغ الرسالة إلى كل مواطن فى مصر وكل مسئول وقد بلغت الآن سن السبعين .

إن الدولة التى تتنكر لشهدائها . . وتتجاهل مصيرهم وبطولاتهم . . ولا تجاهد من أجل حقهم فى التعويض . . تكون مقصرة فى حق مستقبلها . . وتجعل أى مواطن يبخل ببذل دمه فى سبيلها .

ولاشك أن سكوتنا عن أخطاء حرب سنة ٥٦ هو الذى أوقعنا فى النكسة الكبرى سنة ٦٧ . . وإن التعتيم على مذابح الأسرى فى حرب سنة ٥٦ وعدم إثارتها فى الإعلام الدولى ، أو حتى الإعلام الداخلى . . هذا هو الذى جعل سفاحى إسرائيل يستهترون بنا . . فأعدموا فى حرب ٦٧ أضعاف أضعاف من أعدموهم فى الحروب السابقة .

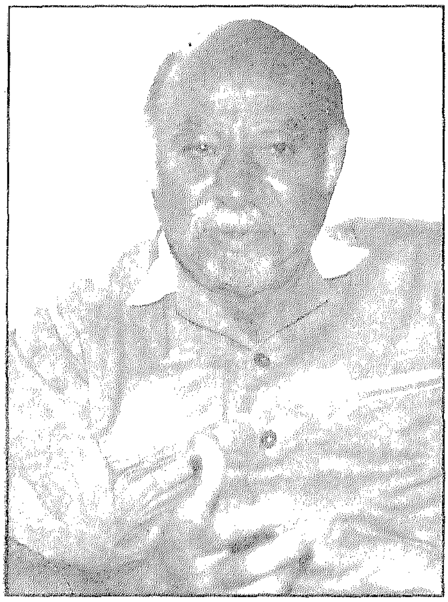
واليوم ونحن فى مرحلة السلام مع إسرائيل . وبعد معاهدات كامب ديفيد مع مصر ومعاهدة طابا مع الفلسطينيين ، وفى الطريق بإذن الله معاهدة الجولان مع سوريا . . أقول أننى مع السلام بكل عقلى وجوارحى . . ولكن هـذا لا يعنى أبداً مسـح حقائق التاريخ أو تجاهلها . . لأن ما حدث فى الماضى من مذابح . . هو حق لأسر الضحايا والشهداء . . وهو تاريخنا فى التضحيات والدماء على مسيرة السلام . ومن الغباء وقصر النظر أن يتصور أحد أن الحديث عن شهدائنا فى الماضى يتعارض مع مسيرة السلام . . بل هو ورقة رابحة فى أيدينا حين نتفاوض على السلام . . فلا تضيعوها .

دكتور

أحمد شوقى الفنجرى



المؤلف أثناء حرب ١٩٥٦
وكان عمره ٣٠ عاماً



وفى سنة ١٩٩٥ وقد بلغ ٧٠ عاماً
وهو يتحدث إلى مراسلي محطات التليفزيون
العالمية عن ذكريات ٤٠ سنة مضت



فى المستشفى



فى غرفة العمليات

« محرم على اليهودى أن ينجى أحداً من غير اليهود من الهلاك أو يخرجه من حفرة يقع فيها .. بل إذا رأى أحدهم يقع فى حفرة لزمه أن يسدها بحجر » .

التلمود .. شريعة إسرائيل
ترجمة ظفر الإسلام خان

الباب الأول

كيف عرفت إسرائيل

سنوات الدراسة

دخلت كلية الطب عام ١٩٤٥ ومنذ ذلك الحين قضيت فترة من أكثر مراحل حياتى قلقاً وأشدها عنفاً . . فابتداء من السنة الأولى توثقت عرى الصداقة بينى وبين زملائى الطلبة الفلسطينيين . . فى نفس الوقت الذى كان لى فيه صداقات مع الطلبة اليهود . وبذلك تفتح ذهنى على الثورة الفلسطينية وعلى خطورة إسرائيل واليهود على الأمة العربية . . وزرت فلسطين لأول مرة فى تلك السنة . . وعدت من هناك لأعمل بحماس مع أصدقائى وزملائى الفلسطينيين على جمع السلاح من الجيش البريطانى بشتى الطرق من منطقة القناة . . ثم إرساله إلى أهاليهم ليدافعوا به عن بيوتهم ومراعيهم ضد عدوان اليهود . ثم قامت بعد ذلك حرب فلسطين ١٩٤٨ فتطوعت للعمل فيها بأن كونت فريقاً للإسعاف الأولى عمله إنقاذ الفدائيين الجرحى فى خط النار فى غزة . وتعطلت بذلك عن دراستى سنة كاملة . . وفى الوقت نفسه فقد شهد جيلنا فى تلك الفترة حوادث عنف لم يشهدها جيل من قبله . . منها حادث مقتل سليم زكى فى كلية الطب وحادث حريق القاهرة وأخيراً انتهت تلك الفترة بثورة يوليه ١٩٥٢ وكنت إذ ذاك قد تخرجت وأمضيت فترة التدريب كطبيب امتياز فى القاهرة . . ثم رأيت نفسى أتجه بعواطفى إلى فلسطين مرة أخرى فقدمت طلباً للعمل فى هيئة إغاثة اللاجئين . . فى مدينة غزة .

غزة قبل العدوان الثلاثى

وصلت إلى غزة فى أوائل عام ١٩٥٣ ولم يمض على وصولى يوم واحد حتى استدعيت لإسعاف المصابين الذين جرحوا فى هجوم ليلى شنه اليهود على معسكر البريج للاجئين وقد ذهب ضحية هذا الهجوم ثلاثة أطفال وامرأة وكان عدد الجرحى سبعة . . ولم يكتف اليهود بما فعلوه فى مخيمات اللاجئين بل هاجموا أيضاً مستوصف المعسكر فأصابوا حكيمة الولادة بشظية قنبلة كما أصيب بعض النساء الحوامل وهن فى حالة ضع داخل عنبر الولادة وقتلت إحداهن . . وهكذا شاء حظ هؤلاء الأطفال المولودين الجدد أن يفتحوا أعينهم ويستقبلوا الحياة لأول مرة على عدوان جديد من جند إسرائيل البواسل .

وأخذت أستفسر من الجرحى عن أسباب هذا العدوان . . فعلمت أن اليهود كانوا يحاولون الانتقام من شاب بدوى اسمه « جابر النباهين » . . وجابر هذا راعى غنم فلسطينى انتزع اليهود أرضه وسرقوا أغنامه وطردوه خارج الحدود حيث أصبح يعيش فى خيمة ممزقة تحت رحمة وصدقات هيئة الأمم المتحدة ووكالة غوث اللاجئين . . وكان جابر كلما مد بصره عبر الأسلاك الشائكة يرى بعينه أرضه و بيته وأغنامه ويرى اليهود يستمتعون بأملاكه وخيراتها ، فى حين يقف هو فى طابور طويل ليتحصل من الهيئة على حفنة من الدقيق والسكر والبقول الجافة . . ولم تحتمل نفسه الرضا بهذا الظلم والهوان فأخذ يخترق الحدود ليلاً ليصل إلى أرضه فيحصد القمح ويجمع الثمار ويحمل بعض أغنامه ليعود بها إلى قبيلته وأولاده ليطعمهم . . وغضبت إسرائيل وجيش الدفاع الإسرائيلى من جابر فصمموا على قتله . . ونصبوا له الكمائن فى الطريق وزرعوا له الألغام فى كل مكان حتى فى عناقيد العنب . ولكن هذا البدوى الذى لم يتلق ثقافة عسكرية كان بذكائه المفرط يتلافى كمائنهم وألغامهم . . وكان ينقل الألغام من أماكنها ثم يضعها فى طريقهم وهم يطاردونه فتنفجر فيهم . . بل لقد بلغ به التحدى والسخرية منهم أن كان يحمل بعض الألغام معه إلى غزة ويقوم بفكها ثم يصنع من غطائها منافض للسجائر أو هدايا للزينة فى البيوت ، ولازلت أحتفظ ببعض هذه الهدايا كتذكار منه بعد أن تعرفت عليه . . وهكذا فشلت جميع محاولات إسرائيل للإيقاع بجابر داخل الأراضى المحتلة فصمموا على قتله فى خيمته داخل المعسكر . . ولكنهم لم يجدوا فى الخيمة إلا زوجته وأطفاله فقتلوهم جميعاً . . وكان هذا الحادث الإجرامى نقطة تحول فى حياة جابر النباهين . فقد صمم على الثأر وتوسيع أعماله . وابتدأ بتكوين أول خلية من الفدائيين فى قطاع غزة . . و أخذوا يهاجمون المعسكرات اليهودية ويزرعون الألغام وينصبون الكمائن حتى جن جنون إسرائيل وأصبح سكان المستعمرات الجنوبية لا ينامون الليل . . وذات يوم أوقع اليهود بجابر فى معركة غير متكافئة بسياراتهم المدرعة ولم ينسحب زملاؤه من المنطقة حتى حملوا جثته إلى غزة . . فيومئذ رأيت أعظم جنازة عملت لشهيد . . فقد ودعته غزة على وقع طلقات البنادق وزغاريد البدو نساءً ورجالاً . . حتى أمه كانت هى الأخرى تزغرد لأن ولدها مات ميتة الرجال والأبطال . . والشهداء ،

وهكذا مرت بى الأيام فى غزة وكل يوم يشهد جديداً من الغدر الصهيونى . ففى أحد الأيام قبض أهل غزة على اثنين من اليهود تسللا إلى المدينة حاملين معهم زجاجات لتلويث المياه بالكوليرا ، ثم حاولوا إرسال جماعة أخرى لنسف آبار المياه ليقتلوا أهالى غزة



مستوطن يهودى وقد جاء بمدفعه الرشاش ليطرد هذا المواطن العربى المسالم من أرضه وبيته
ليستولى عليهم بقوة السلاح

عطشاً . . وتفتقت مخيلتهم مرة عن حيلة دنيئة . . فقد هاجموا خفيراً ليلياً يحرس بيارة (مزرعة) وقتلوه ثم فتحوا بطنه ووضعوا فيها ألغاماً حتى إذا لمس المسعفون جثته انفجرت فيهم وأودت بحياتهم . وفى عام ١٩٥٥ مرت إحدى سيارات الإسعاف فى طريقها من رفح إلى خان يونس وكان اليهود قد نصبوا لها كميناً فأوقفوها وأمروا ركابها بالنزول . . وبينهم الطبيب ومعه جندى مجروح . . ثم أطلقوا رصاصهم على الطبيب والسائق والجريح وقتلوهم . . وبعد بضعة أيام من هذا الحادث الوحشى قام الجيش الإسرائيلى الباسل باقتحام خان يونس فنسف منزل الحاكم ومركز البوليس وأكملوا عملهم هذا بنسف مستشفى المدينة وكان حديث البناء ، وهكذا استمرت اعتداءاتهم دون رادع بقصد التحرش بمصر حتى لا تتفرغ للبناء والإصلاح الداخلى . وأخيراً اضطرت إدارة الحاكم العام إلى طلب قوات من الحرس الوطنى المسلح لحراسة الحدود وحماية المواطنين العزل فى معسكرات اللاجئين .

ارحم يا مصرى

واليهودى بطبيعته جبان . . وهذا أمر لا أشك فيه بعد طول خبرتى بهم . . ولم يتغير اقتناعى بذلك حتى بعد الانتصارات التى أحرزوها علينا فى حرب سنة ١٩٦٧ ، ولكن اليهودى أشبه بالمصارع النذل الذى لا يتمسك بالشهامة والمثل العليا . . فهو إذا تمكن من خصمه بالغش والخديعة ضربه بقسوة محاولاً قتله والإجهاز عليه . . أما إذا تمكن خصمه منه فإن معنوياته تنهار بسرعة ويصبح ذليلاً يطلب الرحمة والشفقة . . وقد مرت حوادث عدة أثبتت هذه الحقيقة فى سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٥ وسنة ١٩٥٦ . . وكان أهمها ما حدث مع الضابط المصرى طلعت . لم يكن هناك ما يلفت النظر فى ضابط الحرس الوطنى طلعت الذى جاء إلى قطاع غزة كقائد لإحدى وحدات الحرس الوطنى . . فلم يكن طلعت يكترث بأناقته كغيره من الضباط الشبان . . وكان لا يحب التظاهر بالجدية والعسكرية الزائفة . . بل كان يكثر الابتسام والضحك والتعارف بالناس . . ولكنى لاحظت عليه أمرين عندما كنا نجلس معاً لتناول طعام الغداء فى النادى المصرى بغزة . . الأول حرصه على المواعيد بدقة . . وربما كان ذلك راجعاً إلى أنه من الضباط القلائل الذين يواظبون على الصلاة فى حينها . . والأمر الثانى هو ثقته فى نفسه . . وقد بدا لى ذلك من تواضعه الشديد ورفعه الكلفة والمظاهر بينه وبين جنوده . . وكان يعاملهم بود زائد واحترام . . بل كان إذا نزل بالاجازة بمصر يزور أهاليهم ويوصل إليهم الرسائل والهدايا . . ومع الأيام ابتدأ

نجـم طلعت يظهر ومواهبه العسكرية تبرز فى مواجهة الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة ، وكان سر نجاحه أنه يعرف بكل محاولة إسرائيلية للتسلل قبل موعدها ثم ينصب لهم كميناً فيوقع بهم ويسبب لهم خسائر عديدة . . وكان طلعت يعتمد فى ذلك على النظرية الخالدة « الجيش والشعب معاً فى الجبهة » . فقد قام بتدريب الأهالى على حمل السلاح وعلى رصد تحركات العدو . . وكان يغير مواقع قواته القليلة باستمرار معتمداً على سرعة الحركة والتنقل التى يدرب عليها جنوده . . فقـد كان يعـلم تماماً أن اليهـود يدرسون خططهم بدقة . . ويحفظون مواقع قوات الحرس ونقاط مراقبتهم ليحتفظوا لأنفسهم بزمام المبادرة . والمفاجأة هى العنصر الحاسم فى كسب المعارك . . ولما يئس اليهود من الإيقاع بطلعت فى ميدان القتال صمموا كعادتهم ، على اغتياله وهو نائم فى مركز قيادته . . وتسللت قوة كبيرة إلى هذا الكوخ االصغير فحاصروه وضربوه بالقنابل فى غل وحقد مرير ثم أشعلوا فيه النيران حتى أصبح أنقاضاً مبعثرة وعاثوا فساداً فى المنطقة يقتلون أى إنسان يلقونه فى طريقهم ثم عادوا وكأنهم فى نزهة حربية نحو الحدود يتغنون ويمرحون . وهنا أترك رواية ما حدث لأحد جنود طلعت كما رواها بنفسه عندما أحضروه إلىّ لمعالجته من جرح أصابه أثناء المعركة .

« كان اليهود عائدين على مهل وهم يتغنون وينشدون أناشيد النصر . . وما أن وصلوا قرب خط الهدنة واطمأنوا إلى سلامة عودتهم حتى فوجئوا بنيران كثيفة تنطلق من كمين لا يبعد سوى أمتار قليلة عنهم . . وأذهلتهم المفاجأة لأن هذا الموضع لا وجود له فى خريطتهم . . وانحازوا متفرقين إلى الجانب الآخر ليتخذوا مراكز دفاعية لهم ، وفى هذا الجانب كانت تتمركز قواتنا الرئيسية التى يقودها طلعت بنفسه فانهالت عليهم بستار من النيران وقذفتهم بالقنابل اليدوية . . فأخذوا يتساقطون وهم يصرخون ويستغيثون :

« إرحم يا مصرى . . كفاية يا مصرى » .

ولم يسلم من تلك القوة سوى بضعة أفراد أخذوا يسحبون قتلاهم وهم يهرولون خوفاً وإعياء » . . وهكذا أثبت طلعت الطيب المتدين أنه يستطيع أن يكون أكثر مكراً من اليهود . فمنذ أن أحس بأن اليهود يريدون قتله وهو لا ينام فى مكانه . . بل يسهر مع جنوده متربصاً بهم طوال الليل حتى أوقعهم فى كمينه . وقد رقى طلعت بعد هذا العمل العبقرى وسلم أكثر المواقع أهمية وتحصيناً فى غزة وهو « تلة المنظار » . . وفى هذا الموقع الجديد ظهرت مقدرته العسكرية وإيمانه وصموده وخصوصاً أثناء العدوان الثلاثى كما سيأتى ذكره بعد .

أما إسرائيل فقد صممت على الانتقام . . بأى طريقة مهما كانت خسيسية . . فعندما لم تستطع مواجهة القوة العسكرية بمثلها فى الميدان ، لجأت إلى الانتقام من المدنيين الآمنين فى مدنهم وقراهم .

ضرب غزة بمدافع المورتر

٢٥ فبراير سنة ١٩٥٥

كان ذلك فى يوم جميل من أيام الشتاء . . وقد انتشرت أشعة الشمس فوق بيوت غزة وفى أزقتها وحواريها الضيقة . . وخرج الأطفال الإبرياء يلهون ويلعبون فى الطريق وهم يتغنون بأنشودة عذبة تقول :

يا عمى إمتى نعود ونطرد اليهود
ونزرع بيارتنا ونحرس الحدود
القدس بتنادينا والكرمة والزيتونة
ومقبرة أبونا وأرواح الجدود

وبينما هؤلاء الأطفال فى لهوهم البرىء ، إذ دوى انفجار مزق إحداهن تمزيقاً . . وبترت إحدى الشظايا قدم طفلة أخرى . وأصابت شظية أمعاء ثالثة . . وكان بينهم طفلة جميلة أعرفها اسمها (مها) . . فقد كنت أعالج هذه الطفلة من مرض شلل الأطفال . فإذا بها تصاب فى هذا الحادث بارتجاج ونزيف فى المخ . . وتجمع أهالى الأطفال وعدد كبير من المارة حول مكان الحادث للمساعدة والإسعاف وقد ساورهم الظن أن أحد الأطفال قد عثر على قنبلة أو لغم قديم فعبث بها فانفجرت فيهم . . ولكن لم تمض بضع دقائق على الانفجار الأول حتى سقطت قذيفة ثانية وسط هذا الجمع الحاشد فى نفس المكان الأول فسقط عشرون شخصاً بين قتيل وجريح . . وبينهم والد الطفلة مها وأمها . . هنا أدرك سكان غزة أن أسرائيل قد نصبت المدافع على الحدود وأخذت تقذفهم بقنابلها انتقاماً للهزيمة التى لحقت بجنودها . . وكانت خطة إسرائيل هى إطلاق القذيفة على موضع ثم الانتظار بضع دقائق حتى يتجمع المسعفون حول الجرحى فتنطلق القذيفة الثانية عليهم وفى نفس الموضع الأول لكى تقتل أكبر عدد ممكن من المدنيين . . وخرجت من بيتى على أصوات الانفجارات ، وجعلت أجرى نحو المستشفى للمساعدة والإسعاف . . وكان



اللواء الدكتور محمود أمين المصرى
رئيس الأطباء العرب فى قطاع غزة
عام ١٩٥٦

صراخ النساء والأطفال الهائمين فى الشوارع يملأ أذنى ويكاد يعلو على طلقات المدافع . . وبينما أنا فى طريقى إلى المستشفى إذ سقطت قذيفة على بيت قريب فخرج النسوة والأطفال يصرخون فما أن رأونى حتى أخذوا ينادوننى بأن أسعف جرحاهم . . ودخلت البيت فوجدت القذيفة قد أحدثت حفرة فى ساحته الداخلية وحطمت الشبابيك والأبواب ورأيت قبل أن أقوم بالإسعاف أن أنقل المصابين خارج المنزل قبل أن يلقى اليهود علينا قذيفة ثانية . . ووجدت بين المصابين شاباً قد كسرت ساقه فأخذت أبحث عن جبيرة خشبية لإسعافه . . ودخلت البيت من جديد على عجل لأبحث بين الأنقاض والأخشاب . . وفجأة دوى انفجار شديد ألقى بى على الأرض وسط الأنقاض . . وحمدت الله أننى سلمت فخرجت من البيت جرياً قبل أن يتداعى فوقى . . وهنا فوجئت بمنظر مروع وخرجت من حلقى صرخة مكتومة . . فقد اكتشفت أن القنبلة الثانية قد سقطت فى الشارع فوق المصابين والمسعفين فقتلت الشاب الجريح وأسرته . . وهنا اعترانى شعور باليأس وكادت الصدمة تفقدنى صوابى لولا أن حضر فى هذه اللحظة زميلى وصديقى الدكتور الياس اصلانيدس وهو رجل يونانى الأصل مصري الجنسية . . وكان هو الآخر فى طريقه إلى المستشفى عندما رآنى غارقاً فى الصراخ والدماء والجثث والأشلاء . . وأخذ هذا الزميل الطيب القلب يعمل بهمة ونشاط رغم بدانته الزائدة . . فكان يمزق ملابسه قطعة وراء قطعةليربط الجرح ويوقف النزيف حتى أصبح شبه عارى فى الشارع . ونقلنا المصابين معاً إلى بيت قريب ثم انصرفنا مسرعين إلى المستشفى متطوعين للعمل بدل التوجه إلى عيادات الهيئة أو العيادات الخاصة ، وكان رئيس الأطباء فى غزة رجل حازم نشيط اسمه اللواء الدكتور محمود أمين المصرى . . وتصرف الدكتور محمود بسرعة فائقة أنقذت الموقف . . فقد قسم الأطباء إلى ثلاث فرق : الفرقة الأولى تقوم بالإسعافات الأولية فى الشوارع وتنقل الذين أصيبوا إصابات بالغة إلى المستشفى . . وكان على رأس هذا الفريق ا الدكتور الياس اصلانيدس . . والفرقة الثانية لاستقبال المصابين فى المستشفى وإجراء العمليات الصغيرة أو التمهيدية وإعداد الحالات التى تتطلب عمليات كبيرة حسب الأولوية وكنت على رأس

هذا الفريق . . والفريق الثالث كان عمله فى غرفة العمليات . . وخلال دقائق معدودة كان الدكتور محمود قد فتح مخازن المستشفيات كلها وأخرج جميع الآلات وأنشأ غرفة جراحة إضافية وحجرة إسعاف جديدة ثم وضع جدولاً بأسماء الأطباء بحيث يعمل كل فريق نوبة واحدة من ست ساعات ثم يرتاح ساعة لكى يبدأ النوبة التالية بعدها مباشرة . وقد يبدو هذا العمل الذى قام به الدكتور محمود أمين فى دقائق من الأمور السهلة ، ولكن يكفى أن يعلم المواطن العربى أن الروتين فى بلادنا فى الظروف العادية يجعل مثل هـذا العمل لا يتم فى أقل من سنة كاملة ويحتاج إلى أكثر من مائة توقيع ، ومع ذلك عندما أعيدت الآلات بعد المحنة لم تفقد منها قطعة واحدة .

ومهما حاولت أن أنقل إلى القارىء صورة الأهوال والمآسى التى رأيتها فى ذلك اليوم ، فلن استطيع هذا ولو فى كتاب مستقل ، فقد امتدت فى أروقة المستشفى وممراتها جثث الرجال والنساء والأطفال بين قتيل ينتظر الدفن ومحتضر لا رجاء فيه وجريح ينتظر الإسعاف أو إجراء عملية جراحية لإنقاذه . وكانت أنات الجرحى ونداءاتهم تختلط فى أذنى بأصداء القنابل وضرب المدفعية من كل من الجانبين . . وفى كل مكان حولى لا أسمع إلا هذا النداء « خلصنى من عذابى يا حكيم » .

واحترت فى أول الأمر من أين أبدأ وبمن أبدأ . . فقررت أن أضع العواطف جانباً أو أُحكّم العقل وحده . . فكل جريح اصابته خطيرة إلى حد اليأس من حياته كنا نؤخره عن غيره الذى كان هناك أمل فى نجاته . . وأعطيت الأولوية فى العلاج للشبان ثم الأطفال ثم الشيوخ العواجيز . . كنت فى تلك اللحظة أقرب إلى قصة قبطان مركب أعطبت وأصبح عليه أن يخفف من حمولته حتى لا يغرق الجميع ، فبدأ بإلقاء العواجيز فى البحر . . ثم تلاهم بالأطفال وبقى لديه الشباب . . ولما سئل فى ذلك « قال إننى أبقيت على النافعين الذين يوصلون المركب بسلام » .

وقد يبدو اتخاذ هذا القرار سهلاً . . ولكن ما أقساه وأصعبه فى التنفيذ . . فبينما كنت أسير بين الجرحى والأموات ، إذ مد أحد الجرى يديه وأمسك بملابسى وأخذ يصيح : « خلصنى من عذابى يا حكيم » . ونظرت إليه فإذا هو نفس الممرض الذى يشتغل على سيارة الإسعاف وقد جرح أثناء تأديته لواجبه . . وأخذت أفحص هذا الزميل وأنا أحدث نفسى أنه كان من الممكن أن أصبح فى محله . . فوجدت أن شظية كبيرة قد مزقت كبده وأمعاءه وأنه لم يعد له أمل فى الحياة . . فطيبت خاطره وتركته إلى غيره من غير الميئوس

منهم . . ولم تكن الصعوبة وحدها أمامى فى التمييز بين الجرحى وبعضهم ، بل كانت هناك صعوبة ومسئولية أكبر فى التمييز بين الأموات وبين الأحياء الذين فى حالة إغماء . فقد كانت الضجة والصراخ والانفجارات حولى أعلى صوتاً فى أذنىّ من دقات قلوب الناس . كنت إذا تأكدت من وفاة أحدهم أعلق بطاقة فى رقبة الجثة حتى لا يخطىء عمال المشرحة فيدفنون واحداً من الأحياء وتلك كارثة غير مستبعدة فى هذا الظرف الخطير .

مرت النوبة الأولى فإذ بجميع الفرق تواصل العمل إلى النوبة الثانية دون الراحة التى كانت مقررة فى الجدول . وانقضت هكذا اثنتا عشرة ساعة من العمل المتواصل حتى أصابنا جميعاً الإرهاق والإعياء . . وسلمت مكانى إلى زملائى الذين ارتاحوا واتجهت إلى استراحة الأطباء للطعام والنوم قليلاً . ولكن يبدو أن عنف الصدمة قد أصابنى بانقباض فى المعدة فلم استطع أن آكل شيئاً . . ورقدت على الفراش وإذا بحوادث اليوم كلها تجرى كفيلم سينمائى أمام مخيلتى . . كان هذا هو أطول يوم فى حياتى وأقسى ما مرّ بى من العمر . . حقيقة أن الحرب فيها قسوة ودمار . . ولكنى لم أكن أتصور أن تكون الحرب نوعاً من الخسة والنذالة والاستهتار بالمدنيين الآمنين إلى هذا الحد . وتذكرت الطفلة مها التى كنت أعزها وأعطف عليها لما وهبها الله من ذكاء وجمال إلى جانب مأساة شلل الأطفال . وأزعجنى حظها التعس الذى أدى إلى أن تفقد أباها وأمها فى نفس اليوم وأن تصاب هى بارتجاج فى المخ . . وتذكرت أن لها خالة تعمل فى المستشفى هى الحكيمة سعاد . . فقمت من مكانى فزعاً وأخذت أبحث عن سعاد فى المستشفى لكى أواسيها فى مصابها ، وأخيراً وجدتها تعمل فى صمت فى حجرة العمليات لمساعدة أحد زملائى فى الجراحة . . وملت على زميلى أهمس فى أذنه طالباً منه أن يقدر ظروف هذه الحكيمة التعيسة التى فقدت أختها وزوج أختها فى يوم واحد وأن يعفيها من العمل . . ففاجأنى بقوله :

– هل تتصور يا دكتور أحمد أن الست سعاد قد اشتغلت مع أطباء النوبة الأولى والثانية وهى مصرة الآن على مواصلة العمل معنا فى النوبة الثالثة . . هل من المعقول أن تظل واقفة تعمل ثمانية عشرة ساعة متواصلة دون طعام ؟

وحاولت إقناع السستر سعاد بالمحايلة واللطف أول الأمر ، فلما فشلنا لجأنا إلى تهديدها بكتابة تقرير سىء فى حقها وشكواها . . إذ لم يكن دافعنا الوحيد هو الشفقة عليها ، ولكنا كنا نخشى أن يؤدى بها الإرهاق فى العمل إلى الارتباك . والأخطاء فى مهنة

الطب فى حجرة العمليات بالذات أخطر من أى خطأ آخر . . ولكنى فوجئت بسعاد تنفجر باكية وتقول بلهجتها الفلسطينية :

« من شان الله اتركونى اشتغل يا حكيم . . لأن العمل هو وحده الذى يمنعنى من الانهيار بسبب مصائبى . . فعندما كنت طفلة صغيرة فى عمر (مها) قتل اليهود أمى وطردونا من بيتنا فى فلسطين . وأصبحنا بعدها مشردين مطاردين من أرض إلى أرض وها هم اليوم قد قتلوا أختى وزوجها وأصابوا ابنتهم الوحيدة . . فهل تعتقد إننى أستطيع النوم أو الراحة اليوم . . لو كنت رجلاً لحملت سلاحى على كتفى وذهبت أنتقم مع الفدائيين . . ولكنى امرأة كل ما أستطيعه لكى يرتاح ضميرى وينزاح بعض الهم عن قلبى هو أن أساهم فى إنقاذ الجرحى ، فبينهم أهلى وأقاربى . . ولو لاحظتم علىّ ضعفاً أو ارتباكاً أو انهياراً فلتطردونى من حجرة العمليات فى الحال .

واعترانا فى تلك اللحظة صمت رهيب قطعه زميلى الجراح الذى تعمل معه قائلاً : (الحقيقة انك خير من اشتغل معى هذا اليوم وأشهد الله أن أعصابك أقوى أعصاب عرفتها فاستمرى فى العمل) .

فابتسمت سعاد والدمع مازال فى عينيها وأقبلت على العمل فى صمت من جديد . وعاد إليها الابتسام وهدوء الأعصاب فأشاعت فينا جميعاً الحماس وقمت أنا بدورى للعمل دون راحة فى النوبة الثالثة . . وهكذا انقضى أطول يوم من العمر . . وقد بلغ عدد القتلى ثلاثة وستين قتيلاً ، وعدد الجرحى أكثر من مائتين . . وقد يتساءل الإنسان عن السبب فى هذه الإصابات الكثيرة والخسائر فى الأرواح التى قد تبلغ أكثر مما أحدثته ألف طائرة أغارت على لندن دفعة واحدة فى الحرب العالمية الثانية . . والسبب الحقيقى فى هذا هو ازدحام غزة بسكانها اللاجئين إليها . . ففى بعض الأحيان تجد البيت الواحد تسكنه أربع أو خمس عائلات ، وفى بيوت اللاجئين تسكن كل عائلة فى حجرة احدة ، كما أن المدينة لم تكن فيها خنادق أو استعداد لمثل تلك الغارات .

ماذا حدث فى المستشفيات الأخرى ؟

كانت هذه هى قصة مستشفى تل الزهور التى اشتغلت فيها فى ذلك اليوم . . وقد سقطت إحدى القذائف على مستشفى العيون فهدمت جزءاً منها . . وسقطت قذيفة على المستشفى التبشيرى الأمريكى فهدمت منزل الطبيب الجراح . . وسقطت بعض القذائف

على المساجد والكنائس فلم تسلم المستشفيات ولا أماكن العبادة من الضرب إلى جانب بيوت المدنيين . . وكما أظهرت هذه الحادثة نذالة اليهود وانعدام إحساسهم وإنسانيتهم ، فقد أظهرت تلك المحنة بطولات لا يسعنى إلا أن أذكرها فى هذا الكتاب ، لا تشجيعاً لأصحابها ، ولا تسجيلاً للحقائق ، ولكن لأثبت للعالم أن بلادنا العربية مازال فيها الخير والخيّرون . وأنها لم تعدم الأبطال المضحين فى وقت المحنة .

ومن أوائل هذه القصص قصة الدكتور **منير فانوس** ، وهو رجل من أقباط الصعيد الأبطال ، ويعمل طبيباً فى الجيش المصرى . . وكان الدكتور منير يقضى أول يوم من أجازته السنوية فى بلده بالصعيد ، عندما سمع من الإذاعة بحادث ضرب غزة . فما كان منه إلا أن قطع أجازته فور وصوله ودون أن يستريح ساعة واحدة من إرهاق السفر الطويل . . وركب القطار مباشرة من بلده إلى القاهرة ، ومن القاهرة إلى غزة فى رحلة استغرقت أربع عشرة ساعة متواصلة . . وما أن وصل إلى غزة حتى توجه إلى المستشفى مباشرة وفوجئنا به يعمل بيننا فى صمت وهو ما يزال بغبار السفر . . ولو ظل فى بلده فى الصعيد لما استدعاه أحد وما لامه إنسان ، ولكنها مسألة الضمير اليقظ الحي والرجولة التى تدفع صاحبها إلى التمسك بالمثل العليا .

قصة الدكتور مصطفى ناجى

وصل الدكتور مصطفى ناجى طبيب العيون إلى غزة قبل حادث ضربها بالمورتر بعام واحد ، وفى خلال هذه المدة القصيرة استطاع هذا الإنسان أن يقوم بأعمال فى طب العيون قد يحتاج غيره إلى سنوات لتحقيق بعضها . . فأمراض العيون منتشرة بكثرة بين اللاجئين بسبب الرمال والذباب إلى جانب الفقر والأحزان . . وكانت قائمة الإنتظار تطول بالمريض بضعة أشهر لإجراء عملية ، فما أن وصل مصطفى حتى تبدل الحال وأصبحت مستشفى العيون بفضله شعلة نشاط وقبلة للمرضى من جميع أنحاء القطاع ، بل كان يأتيه المرضى من العريش والقنطرة . . وكان لا يتقيد بوقت ولايحفل بمواعيد الدوام ، بل يظل واقفاً على قدميه فى حجرة العمليات يشتغل من الصباح حتى آخر الليل والأطباء والمساعدون والحكيمات يتناوبون فى مساعدته وهو وحده الذى لا يكل ولا يتعب ، وكثيراً ما كنت أدخل عليه فى غرفة العمليات فأجده وحده يجرى عملية . . فكنت ألبس ملابس العمليات وأتعقم وأقف معه الساعات الطوال كمساعد له حتى يحضر فريق النوبة التالية .



الدكتور مصطفى ناجى

طبيب العيون ، الذى حاكمته إسرائيل بتهمة اقتلاع عين أحد جنودها القتلى

ومرت الأيام وكان يوم ضرب غزة بمدافع المورتر يوم عطلة . . ومع ذلك فقد كان الدكتور مصطفى فى حجرة العمليات يعمل عملية مستعجلة تسمى « الماء الأزرق » لإحدى النساء المسنات ، وإلى جواره حكيمة اسمها إلهام تساعده . وفجأة سقطت القذيفة الأولى على المستشفى مباشرة فاخترقت حجرة العمليات فقتلت المرأة العجوز وهى راقدة على سرير العمليات . وأصابت شظية صدر الحكيمة إلهام واخترقت الرئة وسَلِم الطبيب . . وانطلقت القذيفة الثانية على المستشفى فَهدمت جناحاً كاملاً وقتلت اثنين من مرضى العيون وجرحت الباقين . . وانطلق المرضى فى ذعر وأعينهم مربوطة يتحسسون طريق النجاة وهم لا يرونه . . وقامت السستر إلهام برغم الشظية التى فى صدرها هى والطبيب مصطفى ناجى وأخذوا يحملون المصابين ويساعدون المرضى للخروج من المستشفى ويخلون العنابر ، فقد كان الجميع يدهس بعضهم بعضاً من الذعر ويصطدمون ببعض . ولم يكد الطبيب والحكيمة ينتهوا من إخلاء العنابر من المرضى ، حتى سقطت إلهام على الأرض مغمى عليها من شدة النزيف من جرحها ، فحملها الطبيب وأخذ يسعفها . بذلك كانت إلهام بطلة هذا اليوم ، وقد حضرت بعثة من إذاعة صوت العرب ونقلت لها حديثاً بعد شهر من هذا الحادث وهى على فراش المرض ، وسألها المذيع ماذا تفعلين بعد الذى أصابك لو أحضروا لك يهودياً جريحاً فى هذا المستشفى ؟ فقالت دون تردد : سأساعده وأنقذه ولو احتاج إلى نقل دم سأعطيه من دمى . ولو كان فى بلادنا العربية تقدير للأحياء وللأبطال لاستحقت إلهام وسام شرف وتقدير ، ولكن بلادى (حماها الله) لا تقدر البطل إلا إذا مات وتعطى أوسمة البطولة للذى يتكلم ولو لم يعمل ولا تعطيها للذى يعمل ولا يتكلم .

أعود إلى قصة الدكتور مصطفى ناجى ، فبعد أن هدَّم اليهود مستشفاه ، انتقل إلى مستشفى الجراحة وأخذ يعمل دون أن يتأثر نشاطه بما حدث . . وكان اليهود قد بدأوا يرسلون ببعض جواسيسهم لمعرفة آثار الضرب فى معنويات أهل غزة ، وربما أيضاً لزيادة القتل والتخريب . . واكتشف جماعة من الفدائيين بعض هؤلاء المتسللين وتبادلوا معهم

على الحدود اطلاق النار فقتلوا يهودياً وأصيب أحد الفدائيين بشظية فى عينه اخترقت القرنية . . ونقل الفدائى الجريح مع جثة اليهودى القتيل فى نفس سيارة الإسعاف . وأخذ مصطفى ناجى يفحص الفدائى فوجد أنه لابد من إجراء عملية ترقيع للقرنية بأخذ نسيج قرنية من عين سليمة وإلا فقد الفدائى الجريح بصره . . ولم تكن هناك جثة حديثة الوفاة غير هذا الجاسوس اليهودى فوافق مصطفى ناجى زملاءه على أن يقتلعوا له العين من الجثة لنقل القرنية منها إلى الفدائى . . ولو كان لأمر بالعكس ، وكان القتيل هو العربى والجريح هو اليهودى لما تردد مصطفى فى إنقاذه . . وتمت العملية الصعبة بنجاح باهر ونجا الفدائى من عمى مؤكد . . وبعد يومين حضر مراقبو الهدنة لاستلام جثة اليهودى لتسليمها إلى إسرائيل . وهناك مثل عربى يقول : « الغجرية ست الحارة » . أى أن السفيه البذيء الذى يعلو صوته دائماً بالحق وبالباطل هو الذى يسود الموقف دائماً . فما أن وصلت جثة اليهودى ووجد اليهود أن العين قد أخذت منها حتى أقاموا الدنيا وأقعدوها مدعين أن الدكتور مصطفى ناجى قد خلع عين اليهودى وهو حي لكى يعذبه ، نشر اليهود هذه الإشاعة الكاذبة فى أنحاء العالم كله وفى أوروبا وأميركا وحضر مصورو التليفزيون والسينما يلتقطون الصور لجثة القتيل . . وجاء الطبيب الشرعى اليهودى الذى تسلم جثة القتيل فكتب تقريره بأن الوفاة حدثت من رصاصة أصابت القلب مباشرة وأن العين قد أخذت من الجثة بعد الوفاة وليست قبلها . ولكن شياطين إسرائيل وملوك الدعاية فيها أخفوا هذا التقرير عن العالم ونقلوا الطبيب الشرعى وحرموا عليه مخاطبة الصحف حتى لا تفشل حملتهم لاستدرار عطف العالم . . ومرت الأيام ثم الشهور وحدث العدوان الثلاثى على غزة ودخلت أول فرقة من جنود الاحتلال الإسرائيلى إلى المدينة ، وكنت فى ذلك اليوم واقفاً فى ساحة مستشفى الزهور عندما نزل ضابط يهودى من سيارته الجيب وسألنى بالإنجليزية : أين الدكتور مصطفى ناجى ، إن لدينا أمراً باعتقاله ! . فقلت له : إنه غير موجود هنا وأظن أنه فى أجازته فى مصر . ولم يقتنع الضابط ، بل أزاحنى من الطريق ودخل المستشفى يفتش فيه وأثناء خروجه سألته :

– أيمكننى أن أعرف لماذا تريدون الدكتور ناجى بالذات . . هل هناك خدمة إنسانية يستطيع أى طبيب أن يقدمها إليكم بدلاً منه ؟

فقال : خدمة إنسانية ! هل تعرفون أنتم العرب ما هى الإنسانية ؟ إننا نريد مصطفى ناجى لكى نخلع عينه ثم نقتله كما فعل فى أحد اليهود من قبل !!

ولم يمهلنى لكى أرد عليه ولكنه ركب سيارته وانطلق .

وخرجت من المستشفى من بابه الخلفى وأخذت أجرى فى شارع غزة برغم منع التجول حتى وصلت إلى منزل صديقى مصطفى ناجى وأخبرته بالأمر وطلبت منه الاختباء معى فى بيتى . . إلى أن تهدأ الأحوال ، ولكنه رفض وعرضت عليه أن أرسل إليه فدائياً ليأخذه من يده ويرسله إلى بورسعيد فرفض .

وقال : وإلى متى سأظل مختبئاً ؟ ثم أن اختبائى أو هربى سوف يقوى الإشاعة ويزيد الشكوك . . وعليّ أن أواجه مصيرى وأن أظهر لهم كذبهم فلا تخف عليّ فأنت تعرف إننى عنيد جداً ولا أيأس أبداً . . وتأكد أننى سأتعبهم أكثر مما يتعبوننى . واعتقل اليهود مصطفى ناجى . . وهللت صحافتهم لهذا الاعتقال ، وأخذت صحافتهم وصحافة العالم تتحدث عن « الطبيب القاتل » وعن أنه سيحاكم ويعدم . . وعندما أخذنى اليهود إلى معتقل عتليت لم يسمحوا لى برؤية مصطفى ناجى ، فقد كان فى سجن منفرد باعتباره مجرم خطير . . وكان كل يهودى يمر علينا نحن الأطباء المعتقلين يعايرنا بما فعله مصطفى بأسير يهودى . . وفجأة ودون أية مقدمات أنبأنا اليهود أن مصطفى ناجى قد أفرج عنه وسلم إلى أهله فى مصر قبل أى أسير آخر .

وقد علمت أن مصطفى قد طلب مقابلة الطبيب الشرعى اليهودى الذى تسلم جثة اليهودى القتيل وأخذ يحدثه ويثير ضميره وأمانة المهنةأن يقول الحقيقة . . فتيقظت مشاعر الرجل وذهب إلى نقابته وقابل المسئولين وهدد بفضحهم فى العالم ونشر التقرير الطبى عن الجثة إذا لم يفرجوا عن الطبيب العربى . . فأفرجوا عنه فى سكوت .

قصة الدكتور يونج الجراح والمبشر الأمريكى

لا يمكن أن تكتمل الصورة عن حادثة ضرب غزة دون ذكر ما حدث فى المستشفى الأميركى وقصة الدكتور « يانج » الجراح الشاب بالذات . . فقد حضر هذا الطبيب من أمريكا كمبشر وطبيب . وهكذا ضرب المثل الأعلى لرجل العلم إذا كان متديناً ورجل الدين إذا كان عالماً . . وفى يوم ضرب غزة بالمورتر كان الدكتور يونج واقفاً هو الآخر فى غرفة العمليات لإسعاف أحد المصابين . . وغرفة العمليات فى المستشفى الأمريكى فيه نافذة كبيرة يستطيع الجراح منها أن يرى بيته فى داخل المستشفى ويرى زوجته وأولاده . . وبينما الطبيب يعمل إذ سقطت قذيفة ضخمة على بيته ورأي البيت بعينه يتساقط . . ولم يتحرك الطبيب من مكانه لينظر ما حدث لزوجته وأولاده ... ولم يترك المصاب الذى

يجرى له العملية الإسعافية ، بل ظل يعمل فى صمت دون أن يظهر عليه التأثر . وعندما انتهى من العملية سأل زملاءه الأطباء عما حدث . . فطمأنوه إلى أن زوجته وأولاده قد نجوا فى البيت ولم يصبهم شر . . فركع وأقام صلاة شكر لله وهو فى ملابس العمليات . وجاء العدوان الثلاثى فظهرت أخلاق هذا الرجل ومثله العليا . فعندما ابتدأت الحرب وفى اليوم الثالث بالتحديد ، حضرت إلى شواطىء غزة بوارج حربية إنجليزية وفرنسية . وقد أحْصيت أمام غزة بالذات ١٦ سفينة حربية ومثلها أمام شاطىء خان يونس ، وأطلقت هذه البوارج عدة قذائف على شاطىء غزة كإنذار إلى حاكم غزة لتسليمها إلى اليهود وإلا دمرت المدينة من البحر . ولما وافق الحاكم على التسليم طلبوا منه إجلاء الأجانب والدوليين بالذات حتى لا يصابوا بأذى أثناء اقتحام القوات الإسرائيلية للمدينة . وحضرت سفينة تحمل العلم الأمريكى وعلم الأمم المتحدة ، وتجمع جميع أطباء وحكيمات وموظفى هيئة الأمم الأجانب مهرولين إلى المراكب التى نقلتهم إلى السفينة . . كانوا أقرب إلى الجرذان التى تعيش على خيرات المركب و تسرق منها الطعام ، فإذا أصيب المركب بكارثة فإنهم أول من يهجرها ويهرب منها . . طبيب واحد من الأطباء الأجانب هو الذى رفض أن يتخلى عن مرضاه وجرحاه ورفض أن يهرب من عمله الإنسانى ومسئولياته ، ذلك هو الدكتور « يانج » ، وحاول الدكتور أن يرسل زوجته وأولاده ولكنهم بدورهم رفضوا التخلى عنه وظلوا إلى جانبه ، وبذلك كانت العائلة الوحيدة غير العربية التى بقيت فى غزة . وقد قدرت مصر لهذا الطبيب شهامته وأخلاقه . . فعندما زار الرئيس جمال عبد الناصر غزة بعد العدوان زاره فى مستشفاه وسلم عليه وهنأه على سلامته .

صحافتنا النشيطة

انقضى يوم الضرب واليوم التالى دون أن يحضر إلى غزة صحفى عربى واحد أو مصور ليلتقط بعض الصور لتلك المأساة الدامية . وكنت أرى دائماً أن إسرائيل تحاربنا بسلاحين : الدعاية والقنبلة ، وأنها تجرحنا بدعايتها أكثر مما تجرحنا بقنابلها . أما نحن فإن وسائل إعلامنا فى نوم عميق لا تفيق منه . وكل ما فعلته الصحافة العربية فى استغلال هذا الحادث ، هو نشر أخباره عن طريق مراسليها فى قطاع غزة . والعالم الأجنبى والغربى بالذات لا يصدق الأخبار ، ولكنه يصدق الصور والسينما والتليفزيون لأنها لا تكذب ولا تبالغ . ولقد قامت دعاية إسرائيل على أنها دولة صغيرة محبة للسلام وشعب مضطهد محاصر بين أعداء يقطرون شراً وأحقاداً . ويريدون ذبحهم وإلقائهم فى البحر . ولو عرف

العالم مدى إجرام هذا الشعب الذى يدّعى السلام ، ومدى تعطشه لسفك الدماء بأى طريقة ، ولو كانت ضرب المدنيين الآمنين بالمدافع ، لخسروا عطف الإنسانية عليهم . وفى مساء اليوم التالى حضر رجل إلى غزة وزار جميع البيوت والمستشفيات التى ضُربت وأخذ عدة صور لها . وكنت أقوم بعملية نقل دم لأحد المصابين عندما دخل عليّ .

وأخذ يسألنى عن تفاصيل حوادث الأمس . وسألته عن عمله فأخبرنى أنه من أهل غزة ويعمل مراسلاً صحفياً لصحيفة الجمهورية المصرية فرحبت به وقدمت له كل المساعدة . ومرت الأيام وأنا أتابع الصحف كل يوم لعلى أجد شيئاً عن تلك الصور التى التقطها الرجل وعن التحقيق الصحفى الذى أجراه فى جميع مستشفيات غزة دن جدوى . وذات يوم بينما كنت أسير فى شارع عمر المختار ، وهو الشارع الرئيسى فى غزة ، إذ رأيته جالساً على المقهى يدخن الأرجيلة (الشيشة) ويشرب الشاى . وسألته ماذا فعلت بالصور التى أخذتها عن ضرب غزة بالمورتر . لقد طالعت جميع الصحف العربية فلم أجد فيها تحقيقك الصحفى الذى وعدت بنشره . ألا تعلم أن هذه كانت فرصة ذهبية فى أيدينا لفضح إسرائيل ومزاعمها فى السلام ؟

فقال الرجل : معك حق يا حكيم . ولكنى قد عملت ما عليّ وأرسلت الصور فلم ينشروها ، وإذا كانت الصحافة العربية بمثل هذا الكسل فما ذنبى وما باليد حيلة . وربما كانت حجتهم هى عدم إزعاج الرأى العام العربى وإثارته .

قلت : إن حجة عدم إزعاج الرأى العام العربى هى التى تضيع علينا كل الفرص لمحاربة إسرائيل . وبذلك نصبح كالنعامة تدفن رأسها فى الرمال لكى تهرب من الخطر . . أما رأيت الدعاية المهولة التى قامت بها إسرائيل ضد العرب عندما هاجم الفدائيون المدنيين ؟ لقد أصبح العالم الخارجى ولا حديث له اليوم إلا عن وحشية الفدائيين وعن قتلهم الأطفال والنساء كما تدعى إسرائيل ، ونسى العالم الخارجى أن الجزاء من جنس العمل ، وأن الذى بدأ بقتل النساء والأطفال هم اليهود بضربهم المدنيين فى غزة ، فانظر مدى تقصيرنا فى دعايتنا مما يضيع علينا حقوقنا .

فقال لى : معك كل الحق يا حكيم .

ويهمنى الآن أن أكمل قصة هذا المراسل الصحفى حتى نهايتها . فقد مرت الأيام بعد هذه الحادثة ، وكنت أراه بين الحين والحين جالساً على المقهى فى شارع عمر المختار يدخن الشيشة . . وحدث العدوان الثلاثى وأخذنى اليهود أسيراً فى معتقل عتليت ، كما سيأتى

ذكره بعد . وذات يوم أخبرنا اليهود أنهم سيعرضونا على ضابط مخابرات إسرائيلى لكي يتعرف علينا ، فإذا كنا مدنيين وليس فينا فدائى ، فسوف يطلقون سراحنا ونعود إلى غزة ، ودخلنا الحجرة واحداً واحداً ، وفجأة وجدت نفسى أمام ذلك الصحفى المزعوم ، فإذا هو ضابط فى مخابرات إسرائيل . . وصدرت من فمى شهقة المفاجأة والذعر لم أستطع كتمانها . بعد أن اتضح لى أنه كان يعيش فى غزة هذه المدة دون أن يحس به أحد يتجسس على أهاليها ويرصد تحركات شبابها وهو جالس على المقهى ، بل من المؤكد أنهم قد أرسلوه بعد ضرب غزة بالمورتر لكى يعطيهم تقريراً عن مدى ما أحدثته مدفعيتهم من أضرار ، فقدم إليهم تقريره مزوداً بالصور والمستندات . وفطن الرجل فوراً إلى أننى قد عرفته ، فابتسم ابتسامة صفراء وحيانى ولكنى نظرت إليه باحتقار زائد لم أستطع إخفاءه . وهكذا تكشفت لى مدى يقظة العدو ونشاط وسائل إعلامه ومخابراته بالمقارنة إلى وسائلنا التى تغط فى النوم العميق .

انتقـــام الفدائيين

تقول الحكمة التى تناقلتها الأجيال عن الديانة اليهودية : « العين بالعين والسن بالسن والبادىء أظلم » . ولقد فتحت إسرائيل الباب لضرب المدنيين ، عندما ألقت على سكان غزة قذائف المورتر ، وبذلك لم يعد هناك مجال للقول فى أن الضربة الرادعة يجب أن توجه إلى المدنيين أيضاً ، وكما عبرت قنابل المورتر الحدود وسقطت دون تمييز على الأهداف المدنية ، فكذلك عبر الفدائيون الحدود وانقضوا على طرق المواصلات وسيارات النقل ومدارس الطلبة إلى جانب الثكنات العسكرية ، وقد استطاع بعضهم الوصول إلى تل أبيب ونسف برج الإذاعة فتعطلت عن الإرسال يوماً . واستطاع واحد منهم يجيد العبرية أن يلبس ملابس بوليس حربى إسرائيلى وأوقف سيارة أتوبيس بحجة التفتيش عن الفدائيين . وأخذ أوراق تحقيق الشخصية من الركاب جميعهم ثم انقض عليهم زملاؤه بالمدافع الرشاشة فقتلوهم . وهكذا نشر الفدائيون الذعر والخراب فى داخل إسرائيل ، حتى أذاعت محطة لندن أن عدد الضحايا من هجمات الفدائيين قد بلغ مائتين . وقدرت مصادر أخرى أن العدد أكبر بكثير . وهكذا ارتاح قلب غزة ونامت مطمئنة وقد ثأرت لشهدائها الأبرار . . ولكن إسرائيل لم تنم . . فالحقد والشر لا ينام . وظلت تبيت لعدوان جديد . فلم تمض بضعة أشهر على هذا الحادث حتى جاءتها الفرصة عندما عرضت عليها بريطانيا وفرنسا الاشتراك معهم فى عملية غزو السويس فقاموا بالعدوان الثلاثى .

العدوان الثلاثي على غزة

يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦

أعلنت إسرائيل عن هجومها يوم الاثنين ودارت معارك نخل والكونتلة طوال يوم الاثنين والثلاثاء . ولما فشلت إسرائيل في إحراز أي نصر أو تقدم صدر في مساء الثلاثاء ٣٠ أكتوبر الإنذار البريطاني الفرنسي المشهور . . وعند ذلك أعلن الرئيس جمال عبد الناصر عن انسحاب الجيش المصري من سيناء في يوم الأربعاء ٣١ أكتوبر . . وأصبحنا نحن في قطاع غزة معزولين عن مصر . . ولم يكن هناك دفاع عن القطاع غير قوات من الحرس الوطني بأسلحتها الخفيفة بالإضافة إلى قوة من الجيش الفلسطيني تدافع عن خان يونس . . وابتدأ الحصار يضيق على القطاع من كل صوب . فالبحرية الإنجليزية والفرنسية المشتركة قد وضعت أسطولاً كاملاً من البوارج الحربية أمام الساحل ، واليهود يحتلون العريش في الجنوب وجيشهم واقف على خط الهدنة في الشرق . وابتدأت البحرية إطلاق أول قذيفة على الشاطىء كإنذار للتسليم . ثم أطلقت القذيفة الثانية بين بيوت اللاجئين في معسكر الشاطىء ، حيث تسكن بل تتكدس كل أسرة في حجرة واحدة فقتلت عدداً كبيراً منهم ، وأخذت المدينة المحاصرة بعد ذلك ترتج تحت وقع الإنفجارات من كل جانب . فقد حضرت ثلاث طائرات صغيرة لتضرب المواقع العسكرية من الجو . ومدفعية الحدود تتراشق من الأرض . وفي داخل المدينة كان الحرس الوطني ينسف أسلحته ومخازن ذخيرته حتى لا يسلمها لليهود . وهكذا ابتدأت مفاوضات التسليم مع الحاكم العام .

وهنا يجب أن أتوقف قليلاً . . وأن أتكلم بصراحة لعلنا نخرج بموعظة ودروس مما حدث . . لقد كنا نحن المدنيين شباباً ورجالاً ، بل وفتيات ، في حيرة قاتلة وعذاب مرير ، ماذا نفعل كي ندافع عن أنفسنا وعن مدينتنا ، وزوجاتنا وألادنا . . إن المدني العربي في جميع البلاد العربية محروم من التدريب العسكري ، بل محرم عليه لمس السلاح وإلا تعرض للعقوبة ، وربما الإعدام . . فإذا انسحب الجيش النظامي وحوصرت أي مدينة عربية فويل للمدنيين من مهانة الاستسلام ومن ويلات الاحتلال ، ويا فرحة العدو بتلك المدن العربية التي تقدم إليه لقمة سائغة دون تعب ولا خسائر . . لقد كان في غزة مخازن للذخيرة والسلاح تكفي للمقاومة عدة أشهر . وفي اللحظة الأخيرة وفي يوم ٣ نوفمبر بالذات ، فتح بعض الضباط مخازن الذخيرة على مسئوليتهم وسلموا السلاح إلى المدنيين ، وأخذوا يكونون منهم ما يسمى بقوات المقاومة الشعبية . وكان الضباط

والفدائيون يمرون على كل مدنى فى بيته ويقولون له : « هاك مدفع رشاش وهذه بعض القنابل لكى تدافع من بيت إلى بيت ، ومن حجرة إلى حجرة ولنجعل من غزة ستالينجراد ثانية » . وكان ذلك نوعاً من الارتجال المضحك ، لأن معظم هؤلاء المدنيين لم ير السلاح فى حياته ، ولم يدرب عليه فى وقت من الأوقات . بل إن بعض المدنيين كان يخاف من لمس القنابل حتى لا تنفجر فيه فدفن أكثرهم السلاح فى الرمال أو ألقوه فى الخرابات . ومر عليّ بعض أصدقائى الفدائيون وحاولوا تسليمى مدفعاً رشاشاً ومقطفاً مليئاً بالقنابل اليدوية لأدافع عن بيتى فاعتذرت بأن عملى كطبيب داخل مستشفى وقت المحنة أهم وأفيد من جلوسى فى بيتى للدفاع عنه .

وأقول عن ثقة ويقين بل عن خبرة وتجربة : لو تكوّن فى غزة جيش شعبى أو مقامة شعبية من أهاليها للدفاع عنها ونظمت ودربت تلك القوات قبل العدوان ولو بشهر واحد . . أؤكد أن إسرائيل لو دخلت غزة لكلفها ذلك من الخسائر فوق طاقتها ولغيرت مقاومة غزة وحدها مجرى الحرب كلها . . وربما لعدلت إسرائيل نهائياً عن دخولها ، لأن هناك رأى عسكرى معروف يقول : « إذا كان الهدف أو الموقع لا يستحق ما يكلفه احتلاله من خسائر وتضحيات فمن الحكمة والخير تركه إلى غيره » . وهكذا سلمت غزة يوم الجمعة ٢ نوفمبر ١٩٥٦ دون مقاومة تذكر وسلمت رفح أيضاً وبقيت خان يونس وحدها تقاوم العدوان ، فلماذا خان يونس بالذات ، وكيف قاومت ؟

خان يونس وبطلها العجرودى

علمنا نحن المدنيين بأن حاكم غزة قرر تسليم المدينة إلى اليهود فى صباح اليوم التالى . وأذاعت إذاعة إسرائيل أن مدن القطاع قد قررت التسليم ماعدا خان يونس التى رفض قائد قواتها التسليم . . وأذاعت تسجيلاً كاملاً لحديث دار بين الحاكم العام وبين قائد القوات الإسرائيلية يرجوه فيها أن يأمر اللواء العجرودى بالتوقف عن القتال والتسليم حقناً للدماء والخسائر بين الطرفين ، فقال له الحاكم :

- إننى لا سلطة لى على العجرودى . . فأنا حاكم إدارى وهو ضابط عسكرى . . وكان لا يقبل تلقى الأوامر منى فى وقت السلم ، فكيف يتلقاها فى وقت الحرب ؟

ورفعت تلك الأخبار من روحنا المعنوية كثيراً ، ومر بعض الفدائيين ببيتى فى المساء وأخبرونى أنهم ذاهبون إلى خان يونس مشياً على الأقدام للانضمام إلى قوات العجرودى

والقتال معهم فاعتذرت لهم بأن مهمتى ليست القتال بالسلاح . وبعد خروجهم جاء سائق سيارة الإسعاف وهو من سكان خان يونس فأخبرنى بأنه سيتجه بسيارة الصليب الأحمر إلى هناك ليساعد فى إسعاف الجرحى وليطمئن على أهله . وبدون تردد أو تفكير قررت أن أذهب معه رغم علمى بما فى ذلك من مجازفة قد تكون قاتلة . لقد كان شعورى أن الموت فى بيتى لا يختلف عن الموت هناك مع فارق واحد أن الإنسان يفضل إذا لم يكن من الموت بد أن يموت وهو يعمل شيئاً مفيداً يلقى به الله . هذا إلى جانب أننى هناك أستطيع أن أكون أكثر نفعاً كطبيب . . أما فى غزة فإن جميع مستشفياتها قد خلت من المرضى وهربوا منها لعلمهم من الحوادث السابقة أن اليهود لا يحترمون المستشفيات ، بل إنها دائماً أول أهدافهم . . وخرجنا فى الطريق إلى خان يونس . . ففوجئت بأن هذا الطريق المهجور عادة فى ساعات الليل قد امتلأ بالشباب والرجال متجهين إلى خان يونس لكى ينضموا إلى المقاومة الشعبية هناك . . واكتشفت الطائرات الإسرائيلية هذه الجموع فى الطريق ، فأخذت تهاجمهم بمدافعها الرشاشة فكانوا يختبؤون تحت الأشجار أو فى عشش البدو إلى أن وصلنا إلى خان يونس قبل نور الفجر ، فاتجهت مباشرة إلى المستشفى العسكرى للعمل مع زملائى الأطباء .

وظروف خان يونس بالذات هى التى ساعدتها على هذا الصمود إلى النهاية . . وأول هذه الظروف وأهمها أن أبناءها من قوة الدفاع الفلسطينية هم الذين كانوا يدافعون عنها إلى جانب قوة الدفاع المصرية ، وإحساس الإنسان بأنه يدافع عن بيته وعرضه وأولاده يعطيه قوة واستماتة فى الدفاع . وثانيها : هو شخصية قائدهم اللواء العجرودى ، ذلك الجندى الذى أثبتت الحوادث صلابته ورجولته ، كما أثبتت وقت السلم تواضعه وبساطته . فقد كان العجرودى يبيت مع جنوده فى ثكناتهم يتناول طعامه بينهم ويقضى وقته كله فى تدريبهم وحل مشاكلهم ، والتعرف عليهم واحداً احداً ، ولذلك فعندما قامت الحرب اجتمع حوله الجنود فقال لهم : « أنتم تعلمون أن خان يونس محاصرة الآن من كل جانب ، وتعرفون أكثر أن اليهود لا يحترمون عهداً ولا سلاماً . . فإذا سلمنا فنحن ميتون لا محالة ميتة النعاج . وإذا قاومنا فسوف نموت ولكن ميتة الشهداء . وقد طلب إلىّ التسليم فرفضت عن نفسى ، ومن أراد منكم الصمود معى فليبق ، وإلا فليرحل من الآن » . وهكذا تكاثر الجند حوله . وتكاثرت قوته بوصول الإمدادات والمتطوعين من غزة ورفح . وصمد العجرودى ، فكان يبيد صفوف العدو المتقدمة نحوه صفاً وراء صف . وقضى على معظم اللواء الدرزى الذى غررت به إسرائيل ليقاتل مع جنودها

إخوانه العرب ، فكانت تضعهم فى كل موقع فيه قتال عنيف وتسحب جنودها اليهود بعيداً عن الموت ، واستنفذ العجرودى ذخيرته ، وأفواج العدوتتقدم نحوه لا تنتهى ، فأخذ يقذفهم بالقنابل اليدوية حتى أمسكوه باليد ، وأخذ اللواء العجرودى أسيراً ولكنه حتى وهو أسير ظل رافع الرأس عزيز النفس ، فقد رفض الجلوس على الأرض كأى جندى عادى وأصر على أن يظل واقفاً ، فأحضروا له مقعداً ، كما رفض أن يكلمه أى شخص برتبة أقل منه ، فأحضروا له ضابطاً برتبته لسؤاله ، وقد كانت شهامة العجرودى ورجولته موضع إعجاب أهل غزة جميعهم برغم أن صموده هذا قد كلف خان يونس الكثير من أرواح أبنائها . . فقد دخل اليهود بغلّهم وأحقادهم وأخذوا يقتلون كل إنسان حي فى طريقهم انتقاماً لخسائرهم ، ولكن شعبنا العربى يحب البطولة والصمود ويقدرهما مهما كلفه ذلك من تضحيات ، فعندما انزاح العدوان عن القطاع وعادت الإدارة المصرية ، كان العجرودى قد رقى إلى رتبة فريق ، ثم عين حاكماً إدارياً لغزة تقديراً لبطولته وصموده . وعندما وصل إلى القطاع خرج جميع الناس أطفالاً ونساء ورجالاً يستقبلونه استقبال الأبطال الفاتحين ، وكانوا يزغردون ويهتفون ودمعة الفرح تترقرق فى أعينهم ، وهذا جزاء البطولة والصمود .

انتقام إسرائيل من خان يونس

هدأ دوي المدافع وتوقف إطلاق الرصاص فى خان يونس بعد أسر اللواء العجردى وساد صمت رهيب . ثم ابتدأت دبابات الجيش الإسرائيلى وسيارات نقل الجنود تتدفق على الشوارع . وكان الجنود خليطاً من اليهود القرائين الذين يطلقون لحاهم مع الجماعات المتبقية من اللواء الدرزى الذى أُبيد . . وأخذ اليهود يقتحمون البيوت ويخرجون الشباب والرجال بين سن الخامسة عشرة والخمسين ؛ وكانوا يأمرون كل فوج بحفر حفرة فى الساحة الكبيرة . فما أن ينتهى منها حتى يطلقون عليهم النار دفعة واحدة ، ثم يحضرون فوجاً جديداً ويأمروهم بدفن زملائهم ثم حفر حفرة جديدة لأنفسهم ، وتكرر منظر طوابير الإعدام هذه فى تلك الساحة على مرأى من الزوجات والأمهات والأطفال . و كان بينهم طفل أو غلام فى الرابعة عشرة من عمره أخذوا والده أمامه وجعلوا يضربونه أمامه ضرباً قاسياً بكعوب البنادق ثم ساقوه إلى ساحة الإعدام ، وحمل الغلام سلة مليئة بالقنابل اليدوية وتسلل إلى سطح دار تطل على ذلك الميدان ، وانتظر حتى تجمع عدد من الجنود اليهود فى مكان واحد ، ثم ألقى قنابله فقتل أكثرهم . وظل فى مكمنه يطلق عليهم قنابله

وهم يطلقون عليه مدافعهم الرشاشة إلى أن نفذت ذخيرته . وهنا تسلل بعضهم من خلفه فأمسكوا به ، وفى غل وحقد قذفوا به من سطح العمارة فسقط على الأرض وهو يصيح : « الله أكبر . . الله أكبر . . النصر للعرب » .

مذبحة مستشفى خان يونس

عندما وصلت إلى المستشفى فوجئت بجثث الجرحى من ضحايا المعركة الشرسة تملؤ كل مكان . وقد علا أنينهم وصراخهم . وكان أكثرهم من الجنود المصريين والكتيبة الفلسطينية . وكان المستشفى أقرب إلى ميدان المعركة . وقد رقد الجرحى على الأسرة والأرض وتحت الأسرة أيضاً . . وكانت زجاجات البلازما وزجاجات نقل الدم معلقة على الحوائط أو فوق أعمدة الأسرة وأربطة الشاش والقطن تحيط بنا من كل جانب . واتجهت مباشرة إلى غرفة العمليات فوجدت أصدقائى الأطباء والممرضات لا يكادون يلتفتون إلىّ أو يحسون بوجودى من كثرة العمل والإرهاق رغم ما كان بيننا من صداقة حميمة . . وبدأت العمل فوراً دون أن نتبادل الكلام أو التحية . . ولم ننم جميعاً فى تلك الليلة . . ولم نتناول طعاماً . وعند الفجر كنت واقفاً بجوار سرير أحد الضباط المصريين الجرحى وكان مغمى عليه من شدة النزيف . وقد أجريت له عميلة نقل دم بعد أن أوقفت النزيف . وكانت الآهات والصراخ من حولى تملؤ الآذان فى ذلك العنبر الكبير الذى يضم عشرات الأسرة . . وعلى بعض الأسرة أكثر من جريح .

وفجأة دوت طلقات المدافع الرشاشة بغزارة رهيبة داخل العنبر . وظهر الجنود الإسرائيليون الذين أخذوا يطلقون مدافعهم فى كل اتجاه . وابتدأت الأسرة والجثث والدواء تطير فى الهواء حتى سقف العنبر . وأصاب الرصاص السرير الذى أمامى وجسم الضابط الجريح الذى تطاير إلى أشلاء وسقط فوقى هو والسرير وفقدت الوعى لمدة لا أعرفها . وعندما أفقت كنت غارقاً فى بركة كبيرة من الدماء وفوقى جثة الضابط وفوقها مرتبة السرير . وهذا هو ما أنقذنى من الموت . . واعتقدت أول الأمر أننى ميت . . ولكنى عدت إلى كامل وعيى وتفكيرى . واعتقدت أننى قد أكون جريحاً بسبب هذه الدماء . فأخذت أحرك أعضائى بحذر شديد ولكنى لم أشعر بأى ألم . . لقد كانت هذه الدماء من قِرب نقل الدم . وخشيت إذا تحركت من مكانى أن يقتلونى فأخذت أنظر حولى دون أن أتحرك . . وأرهف أذنى لأسمع . ولكن المكان كان خالياً من أى صوت أو حركة .

وأخذت أزحف فى بطء شديد بين الجثث ، وقد تأكد لى أن الجنود قد غادروا المستشفى واتجهت إلى غرفة العمليات فى حذر شديد . . وهناك أصبت بصدمة عنيفة ، فقد تحولت الغرفة التى كانت تضج بالحياة إلى مقبرة جماعية .

فقد قتلوا جميع الأطباء والممرضات والجرحى على النقالات . وهكذا لم يتركوا إنساناً حياً فى المستشفى حتى قطط المستشفى كانت هى الأخرى مقتولة . . وقد استشهد فى هذه المذبحة البشعة ثلاثة من زملائى وأعز أصدقائى الأطباء هم الشهداء الدكتور عبد المنعم حافظ ، والدكتور سامى عبد المجيد ، والدكتور محمد سعيد السيد .

وقد علمت فيما بعد أن هذه الفرقة من جيش إسرائيل بعد خروجهم من المستشفى أخذوا يطلقون النار على كل إنسان فى طريقهم فى مدينة خان يونس حتى بلغ عدد من قتلوهم فى شارع واحد ٤٠٠ قتيل من المدنيين العزل الآمنين . وذلك حسب ما أعلنه الأستاذ فريح أبو مدين وزير العدل فى الحكومة الفلسطينية هذه الأيام .

ولا أنسى ما حييت الألم النفسى الذى كابدته فى أحد الأيام بعد انسحاب اليهود من غزة وانتهاء العدوان الثلاثى . فقد حضرت أسر هؤلاء الأطباء الثلاثة . . منهم الزوجات والأخوات والأمهات . . وطلبن منى أن أدلهن على مكان جثثهم لكى يحملنها معهن لدفنها فى وطنهم العزيز مصر . . واعتذرت فى ألم شديد عن استحالة الاستدلال عليهم . فقد كان قد مضى أكثر من ستة أشهر على هذه المجزرة . وكانت الجثث قد نقلت من المستشفى والمعالم كلها قد ضاعت . فقد كان اليهود فى منتهى الحرص على إزالة معالم جرائمهم . . وحتى لو وجدنا جثة أحدهم بين هذه الجثث فى أى مكان . . فما كان يمكن التعرف على صاحبها ، لأن المدافع الرشاشة كانت قد مزقتهم أشلاء وقطع متناثرة . ولم يعد لى بقاء فى المستشفى بعد تلك الأهوال التى رأيتها فيها . . و بعد أن أصبحت مقبرة ضخمة ، وإذا بى أخرج أجرى فى الطريق وقد اعترانى الذهول أو نوع من فقدان الوعى . . كنت أريد أن أصرخ فى الطريق حتى أتأكد من أننى حي ، أو أننى مازلت أحتفظ بقواى العقلية ، ولكن الصراخ لم يخرج من حنجرتى ، والظاهر أننى لم أكن فعلاً فى كامل وعيى ، فقد مرت بى دورية إسرائيلية وأخذوا يصيحون بى لكى أتوقف ويطلقون علىّ النار وأنا أتابع الجرى دون أن أعبأ بهم ، فنزل الجند وقبضوا علىّ وأخذونى معهم فى سيارة چيب إلى ساحة الإعدام . وهناك وقفت فى الطابور أنتظر دورى ، وبينما أنا كذلك



صاغ طبيب عبد المنعم حافظ
استشهد فى خان يونس ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٦

أنظر إلى طابور الإعدام بدون أى مبالاة ، إذ حضرت سيارة الإسعاف التابعة لهيئة الإغاثة الدولية ونزلت منهاسيدة كبيرة السن اسمها مسز « براجر » وكانت تشغل منصب رئيسة الهيئة التمريضية للوكالة الدولية ، واتجهت السيدة نحو الضابط اليهودى الذى كان يشرف على طوابير الإعدام ، وأخذت تصيح فى وجهه : « انت مجرم حرب ولابد من محاكمتك وسوف أبلغ كل ما جرى إلى المستر هامرشولد شخصياً ، وسترى » .

ثم أخرجت مسز « براجر » بعض الأراق دفعت بها إلى الضابطالذى أصيب بصدمة وذهول . ومرت فترة قصيرة وهو فى وجوم . ثم صاح فجأة فينا : « ليذهب كل منكم إلى بيته حالاً ، سيعدم كل شخص نجده خارج منزله » . وهكذا أنقذت هذه السيدة أرواح العشرات من شباب خان يونس . ولم يكن لى بيت فى خان يونس أذهب إليه ، فصديقى العزيز عبد المنعم حافظ قد استشهد ولن أجرؤ على المبيت فى بيته وهو جثة هامدة فى حجرة العمليات . وخفت أن ألجأ إلى أحد أصدقائى الأطباء الفلسطينيين من أبناء خان يونس حتى لا أتسبب له فى الحرج الذى قد يصل إلى حد الإعدام بتهمة إيواء مصرى . وأخيراً ذهبت إلى عيادة الهيئة ونمت هناك . وانقضى علىّ يومان مختبئاً فى العيادة لا أخرج منها ودون طعام إلا فتات من الخبز ، ثم أعلن اليهود التصريح بالتجول ساعتين فقط . فركبت سيارة الإسعاف وعدت إلى بيتى فى غزة ، وارتميت على فراشى كأنى جثة هامدة ، واستغرقت فى نوم عميق برغم الجوع والعطش .

طلعت .. مرة أخرى

حقاً إن البطولة تفرض نفسها فى كل ظرف وفى كل محنة فتعلو على صوت الأحداث . . فتحول المحنة إلى فرج ، والهزيمة إلى نصر ، وهكذا كان طلعت . لقد تحدثنا فى الباب السابق عن طلعت وبطولته التى جعلت القيادة العامة تسلمه أهم موقع فى غزة وهو موقع « تلة المنظار » . وهى ربوة عالية تشرف على غزة من ناحية وعلى إسرائيل من الناحية الأخرى . وقيل إن اسمها (المنظار) (بالظاء) لأن الواقف فيها يستطيع أن ينظر إلى كل ما حوله من غزة وفلسطين . وقيل إن فيها مقام لشيخ صالح طار إلى هذه القمة وسمى (من طار) واختصرت إلى (المنطار) بحرف الطاء . وعندما سلّمت غزة جاء إلى طلعت أمر من الحاكم العام بالتسليم حقناً للدماء فرفض ، وقال كلمته المشهورة : « والله لن أُسلم طالما فى يدى سلاح وفى المخازن ذخيرة » .

فاستعاد لنا بتلك الكلمات القليلة ذكريات أجدادنا العرب الأبطال الذين كانوا يقولون :

« فلن أصالحهم مادمت ذا فـــرس   واشتد قبضاً على الأسياف إبهامى »

وأخذ طلعت يقذف جيش إسرائيل ناراً حامية من مواقعه ، وتسلل اليهود من خلف التبة ناحية غزة ، فإذا بطلعت أكثر منهم يقظة وانطلقت مدفعيته تحصدهم . ولجأ اليهود إلى الطيران ، فحضرت فوق التبة ثلاث طائرات صغيرة أخذت تقصفه بقنابلها ، ولكنه كان قد تحصن وأنشأ المخابىء فى التبة فلم تؤثر فيه القنابل . وتربص طلعت بالطائرات فأصاب واحدة إصابة مباشرة فانفجرت فى الجو أمام سكان غزة جميعاً ، وهاجمته الطائرة الثانية فأصابها فى جناحها وسقطت فى البحر وعمود الدخان يتبعها ، وبرغم حظر التجول وخطورة الموقف ، فقد خرج أهل غزة إلى سطوح بيوتهم يهتفون لطلعت فى حماس ويصفقون ، وابتدأ الشباب وكل فدائى معه سلاح يخرج سلاحه من مخبئه ويتسلل فى صمت لكى ينضم إلى قوات طلعت ، وبوصول هذه النجدات إلى طلعت واصل صموده ثلاثة أيام متوالية بعد أن سلّمت غزة لليهود . وكانت قوات إسرائيل تحاصره فى قلعته هذه من جميع الجهات . وحاولوا الوصول إليه ، ولكنه كان دائماً يردهم مدحورين فى معارك بالقنابل اليدوية أو بالسلاح الأبيض . وفى مساء اليوم الرابع اقتحم طلعت مع قواته ثغرة فى الحصار المضروب حوله : فقد اخترق الجيش المحاصر من ناحية إسرائيل إلى أن وصل الأردن . وعندما دخل اليهود إلى مواقعه لم يجدوا فيها إلا قوة انتحارية صغيرة هى التى غطت انسحابه مع جنوده .

وما أن وصل طلعت إلى الأردن مع جنوده ومع الفدائيين من أبناء غزة ، حتى نقلتهم الطائرات إلى القاهرة ، ومن هناك أذاعوا بأصواتهم من « صوت العرب » حديثاً جعل كل إنسان فى غزة يبكى فرحاً على سلامة وصولهم . ترى أين طلعت الآن وما هو دور هذا البطل فى حوادث سنة ٦٧ . تُرى هل أُحيل إلى عمل إدارى . . أم أصبح مديراً لإحدى مؤسسات تربية الدواجن أو اللحوم التى يمتلكها القطاع العام ؟

منع التجول

ما أن انتهت أحداث خان يونس وما تبع استسلامها من مذابح للمدنيين الأبرياء ، حتى بدأت إسرائيل تتفرغ لغزة . فقد خرجت سيارات بها ميكروفونات ضخمة تعلن على الأهالى منع التجول وكل من يُرى خارج بيته يعدم فى الحال . . قد استمر هذا المنع ثلاثة أيام بلياليها رأت غزة فيها الأهوال .

فقد انطلق جنود إسرائيل يعيثون فساداً فى كل بيت وكل أسرة . وكنت وحيداً فى البيت لأن زوجتى قد نزلت إلى القاهرة لولادة ابنى الأول . . وقد أخذت أفكر فيما أفعله إذا اقتحموا علىّ البيت أ وحاولوا السرقة . . ويبدو أن الإنسان إذا كان مرتبكاً وفى حالة فزع ، فإن تفكيره وتقديره للأمور يختل . . فقد جمعت كل مصاغ زوجتى وكل ما خف حمله وغلا ثمنه ، وفتحت جهاز التسجيل ووضعت هذه الأشياء كلها فيه من الداخل . . ثم خبأت الجهاز نفسه فى مكان آمن وخفى . وكانت أجهزة التسجيل فى ذلك العصر (سنة ٥٦) ضخمة ومصنوعة من الخشب ، فهى أشبه (بالسحارة) . وفى الساعة الثانية ليلاً دق جرس الباب ، وما أن فتحته حتى اقتحمه ثلاثة جنود من اليهود القرائين أصحاب اللحى الكبيرة والطواقى الصغيرة . . ودفعونى بعنف بكعوب البنادق ، ووقف أحدهم مصوباً مدفعه إلى صدرى ، بينما دخل الآخران إلى البيت لتفتيشه . . وأخذ أحدهم يسألنى بالإنجليزية : هل أنت هنا وحدك ؟ قلت : نعم لأن زوجتى قد نزلت مصر للولادة . . فقال لى باستعجاب شديد : أنتم عائلة واحدة من شخصين وتسكنون فى هذا البيت الكبير وحدكما ؟ فلما رآنى لم أفهم سؤاله . . قال زميله : نحن فى إسرائيل نسكن كل عائلة فى حجرة واحدة وهذا البيت فيه ثلاث حجرات . . وقال الأول سنأخذك الآن إلى السجن وسوف نحضر ثلاث عائلات يهودية لتسكن مكانك . . وبينما هما يتحدثان معى ، إذ حضر زميلهم الثالث وهو يحمل المسجل . . فقد كان هذا أول ما اكتشفه . . رغم أنى أخفيته جيداً حتى خلت أن الشيطان لن يعثر عليه . . وأخذ الثلاثة يتحدثون معاً بالعبرية عن اقتسام الغنيمة . . فقد كان هذا المسجل بمثابة غنيمة كبيرة . . ولو علموا أن بداخله ذهب ومصاغ لكانت الغنيمة أكبر .

ووقفت أمامهم فى حسرة المغلوب على أمره ولم أتكلم . . وبعد تداول وتشاور بينهم ، قال لى أحدهم : إن جيش إسرائيل سوف يصادر هذا الجهاز . . وإذا حضرت إلى مكتب الحاكم العام فى الصباح فسوف نعطيك إيصالاً به إلى حين انتهاء الحرب . .

وحقيقة إن فقدان الجهاز والذهب كان يمثل خسارة موجعة بالنسبة لى . إذ كنت فى مقتبل العمر ولا أمتلك شيئاً ذا قيمة إلا هذا الصندوق الخشبى . . و لكن بعد ذلك تبينت أنه كان سبب نجاتى من موت محقق .

فعندما أشرقت شمس اليوم التالى من أيام منع التجول . . أخذ كل جار يتعرف على أحوال جاره وما حدث له بالليل . . فعلمت أن الجنود كانوا يقتحمون البيوت . . يسرقون

وينهبون . . وإذا أعجبتهم سيدة أو فتاة يغتصبونها أمام أهلها . . وإذا اعترضوا يطلقون عليهم النار . وهكذا أطلقت إسرائيل العنان لجنودها ثلاثة أيام متوالية يعيثون فى المدينة الجريحة فساداً وعدواناً وقتلاً . . ورغم هذه المحنة العنيفة التى عاشها أهالى غزة . . فقد ظهرت بينهم روح من التعاون والتعاطف لم أشهد مثلها فى حياتى . . وكانوا يعرفون إننى وحيد فى البيت وليس لدى أى مخزون من الطعام ، إذ كنت أتناول جميع وجبات الطعام فى النادى المصرى فى غياب زوجتى . . فما أن تبتعد الدوريات ويخلو الطريق من الجنود ، حتى يأتى أحد الجيران رجلاً أو امرأة أو طفلاً وهم يتسللون فى الحديقة ويختبئون خلف الأشجار لكى يقدموا لى طعاماً أعدته الأسرة . . وكنت أعتذر أول الأمر لأننى أعلم أنهم أيضاً ليس لديهم مخزون كافى لثلاثة أيام . . ولكنهم أفهمونى أنهم قد اتفقوا جميعاً . . أن كل من لديه فائض فى أحد مواد التموين يقدمه إلى الآخرين ، وأنهم يستطيعون الصمود بفضل هذا النظام أسبوعاً كاملاً .

وبعد مرور الأيام الثلاثة مرت السيارات مرة أخرى فى اليوم الرابع وأعلنت فتح باب التجول لمدة ساعتين فقط . وأمروا بفتح المحلات التجارية وأى تاجر يمتنع عن فتح دكانه يتعرض للموت .

وكنت أظن أن الأهالى سوف ينهالون على المتاجر والمخابز لتخزين الطعام . . ولكنى فوجئت بأن فى كل أسرة قتيل أو جريح . . وأنهم خرجوا ليدفنوا قتلاهم أو يسعفوا جرحاهم الذين ظلوا ينزفون وبدون إسعاف ثلاثة أيام متوالية . وقد اتجهت من فورى إلى المستشفى لأشارك فى الإسعاف .

طابور الإعدام مرة أخرى

بعد مرور أسبوع كامل من منع التجول والنهب والسرقة ، مرت السيارات مرة أخرى تعلن فى مكبرات الصوت أن كل رجل من سن ١٢ سنة حتى سن ٦٠ عليه أن يتوجه إلى مراكز التجمع والفحص القريبة من بيته ، وأن كل من يتخلف فى البيت سيعدم فى الحال . وأسرع الناس إلى الميادين العامة ، حيث أقيمت أسلاك شائكة . . وأخذ الجنود يجلسوننا على الأرض فى صفوف متراصة . وأخذوا يستجوبوننا واحداً واحداً ، وكان أهم سؤال لهم : « هل حاربت إسرائيل فى سنة ١٩٤٨ » . وجاء الدور على صديق لى من الشباب الفلسطينى الثائر . فإذا به يجيب الضابط اليهودى قائلاً :

- لماذا تسألنى هذا السؤال . وأنت تعلم بالرد عليه ، هل تريدون أن تأخذوا أراضينا وأموالنا وبلادنا ثم بعد ذلك لا تتوقعون أن نحاربكم . كن متأكداً من الآن أن كل لاجىء فلسطينى فى هذا القطاع قد حاربكم دفاعاً عن أرضه عرضه . ولا داعى لأن تتعب نفسك بالسؤال وتكلفنا مشقة الجواب ؟

واستشاط الضابط الإسرائيلى غضباً من هذا التحدى الصارخ . . فأخذ يصيح فى الجنود قائلاً : « خذوه إلى شمونى . . إلى شمونى » .

فأخذت أسأل ما معنى شمونى ، فقالوا لى إنها بالعبرية تعنى قسم ثمانية . . فقد قسموا الناس إلى ثمانية أقسام أخطرهم هم أهل شمونى ، فهؤلاء مصيرهم إلى طوابير الإعدام . . وكان الجنود يعاملون كل من يرسلونه إلى شمونى بوحشية بالغة . . فيسدددون إلى ظهره حراب بنادقهم . . ويدفعونه دفعاً إلى قسم تحيط به الأسلاك الشائكة ، وكان يقف على حراسة شمونى مجموعة ضخمة من اليهود القرائين ، وهو نوع من اليهود المشهورين بالتعصب الأعمى . فهم يطلقون لحاهم وسوالفهم ويلبسون طاقية سوداء وتفوح منهم رائحة كريهة . . ولا يعرفون أى لغة غير العبرية . ومرت ساعات طويلة ونحن جالسون تحت وهج الشمس المحرقة على الأرض . وكان إلى جانبى إثنان من زملائى : هما الدكتور / عبد الحميد جنينه ، والدكتور/ الياس أصلانيدس . . وكنا على ثقة بأنهم سيطلقون سراحنا بمجرد أن يعرفوا أننا أطباء فى هيئة الأمم ، ولذلك فقد أخذنا نزحف لنتعجل دورنا . . ووقفنا نحن الثلاثة أمام الضابط المحقق فتناول أوراق الدكتور أصلانيدس أولاً ونظر فى بطاقته الشخصية وبطاقة هيئة الأمم وكاد أن يصرفه . . ولكن الدككتور أصلانيدس أخرج من جيبه باسبوره المصرى (جواز سفره) وقدمه إليه . . فما أن نظر إليه حتى صاح فى وجهه قائلاً :

- إذاً أنت مصرى يا دكتور . . ولست يونانياً .

فرد عليه أصلانيدس بعربيته (اليونانية) :

- أنا ولدت فى مصر . . وعشت فى مصر . . وسأموت فى مصر .

فصاح الضابط قائلاً :

- أنت ستموت هنا وليس فى مصر . خذوه إلى شمونى .

فرد عليه الطبيب قائلاً :

- إذا كان أنا شمونى . . يكون أنت مجنون .

وهكذا ارتبك الجو . . وتقدم عبد الحميد جنينه ، فكان أول سؤال وجهه المحقق إليه ، هو السؤال التقليدى :

- هل حاربت إسرائيل فى سنة ١٩٤٨ ؟

فرد الدكتور جنينه بأسلوبه الساخر :

- عام ١٩٤٨ !! هذا تاريخ بعيد وأنا ذاكرتى ضعيفة . . ولكن دعنى أتذكر . . !

ثم أخذ يعد السنوات على أصابعه وهو يتمتم ٤٨ من ٥٦ فيها ثمانية ومعاننا واحد وأربعة من أربعة فيها صفر . . ولم يدعه المحقق يتم كلامه ، فقد صاح بسرعة :

- شمونى . . شمونى . . شمونى .

فقفز الجنود نحوه وأخذوا يدفعونه بحربة البندقية ويقولون له : « اركض . . اركض » وجاء الدور عليّ فأعطيته أوراقى كلها فنظر إلىّ وصاح :

- هل أنت طبيب معهم ؟

فقلت : نعم أنا معهم فى شمونى .

فضحك . . وقال :

- آه يا فراعنة . . خذوه معهم إلى شمونى .

وأدركنا أن إسرائيل لا تبحث حقاً عن الفدائيين . . إنما تبحث عن كل شاب قادر على حمل السلاح لكى تتخلص منه . . وامتلأ قسم شمونى بالشباب من مصريين وفلسطينيين حتى ضاق بمن فيه .

وكان الدكتر أصلانيدس أكثرنا هدوءاً وثباتاً . . فهو قد اشترك من قبل فى الحرب العالمية الثانية وقاتل قوات الاحتلال النازية فى اليونان . . ولم يفقد طبيعته المرحة ، بل كان بين الحين والحين يهمس فى أذنى قائلاً :

- أشوفك بخير فى النار يا ولد يا أحمد . . سلم لى على أهل النار يا ولد .

وبينما نحن على هذه الحال ، إذ مرّ طبيب يهودى ومعه رئيس أطباء هيئة الأمم المتحدة الدكتور « جرتنباخ » وأخذ الطبيب اليهودى ينادى قائلاً :

- إذا كان فيكم طبيب أو ممرض فى هيئة الأمم فليخرج من مكانه ويلتحق بعمله .

وهنا قمت مسرعاً من مكاني وقفزت فوق الأسلاك الشائكة ، ولكن الحرس اليهود لم يفهموا ما قاله ذلك الطبيب بالعربية واعتقدوا أننا نريد الهرب ، فأطلقوا النار فوق رؤوسنا فانبطحنا أرضاً . . ومرّ بنا الدكتور جرتنباخ ونحن الأطباء الثلاثة على هذه الحالة . والتقت عيني بعينه ، ولكنه أدار رأسه فجأة إلى الناحية الأخرى متظاهراً بأنه لم يراني . . ولكن الطبيب اليهودي تنبه إلينا فأشار إلى الضابط يسأله : « هل هؤلاء من الهيئة الطبية ؟ » فقال له الضابط : نعم .

فقال : ارسلوهم إلى عملهم .

ومهما مرّ بي الزمن فلن أنسى مدى احتقاري لهذا الطبيب الهولندي الذي بلغت كراهيته للعرب هذا الحد الذي يتمنى فيه إرسالنا إلى طوابير الإعدام . . وكنت أعرف سبب هذا الحقد من كلمة قالها لي مرة :

« إن عبد الناصر هو سبب طردنا من أندونيسيا ، وهو سبب كل الثورات في جميع أنحاء العالم » .

العمل تحت الحكم الإسرائيلي

استلمت عملي في معسكر (جباليا) للاجئين ، وكم كانت الحياة شاقة وقاسية تحت حكم إسرائيل وارهابها . . وكم من الليالي مرت بي وأنا لا أعتقد أنني سأرى نور الصباح . . كان التجول ممنوعاً من غروب الشمس حتى مطلع الفجر . . وكانت الدوريات الإسرائيلية كل ليلة تمر وتطلق النار دون إنذار على أي شخص يتحرك خلال الليل . . وكانوا يفتحون البيوت عنوة فإذا وجدوا شباباً أخذوهم إلى الإعدام . . وإذا وجدوا نساءً اعتدوا على أعراضهن . . وفي إحدى الليالي مرت الدورية فرأى الجنود فتاة في أحد معسكرات اللاجئين وقد خرجت من بيتها لتذهب إلى دورة المياه . . وهذه الدورة في المعسكرات عبارة عن كوخ خشبي صغير منعزل عن البيوت وفيه حفرة وخزان للماء . . ونزل الجند بهدوء ثم انقضوا على الفتاة المسكينة فأمسكوها . ثم قام زميل لهم واعتدى على عرضها وقد كتفوها له . وسمع والدها ، هو شيخ ضرير ، الصراخ فخرج مهرولاً وأخذ ينادي جيرانه طالباً الرحمة بابنته وإنقاذها . . وهنا نزلت إحدى المجندات من السيارة وانقضت على الشيخ الأعمى فأسقطته على الأرض ، ثم وضعت حذاءها العسكري الضخم على رقبته وصوبت مدفعها الرشاش نحو اللاجئين الذين أطلوا من بيوتهم على الصراخ . وقالت لهم : من يخرج سأطلق عليهم النار .

كان هذا المنظر البشع لا يبعد بضعة أمتار عن حجرة نومى فى العيادة . . أخذت أنظر فى ضوء القمر إلى تلك المرأة المتوحشة . كان وجهها قبيحاً غليظ القسمات يتدلى فوقه شعر أحمر وأبيض وأسود من كثرة الأصباغ . وقلت لزملائى :

– أكاد أقسم لكم أن هذه المرأة لا يمكن إلا أن تكون من الداعرات قبل تجنيدها .

وهنا قال المرض الفلسطينى الذى كان يقف إلى جوارى :

– فعلاً يا حكيم . إن هذه المرأة كانت تعمل فى أحياء الدعارة فى تل أبيب ، وأنا أعرفها فهى قوادة .

وهكذا لم تتخل تلك المرأة عن مهنتها القديمة وهى فى ملابس التجنيد . فقد ظلت واقفة تحمى زملاءها بمدفعها الرشاش وهم يتبادلون هتك عرض الفتاة حتى بعد أن أغمى عليها . وكنت أسمع كلاً منهم ينادى زميله بالعبرية قائلاً : « بوينا . . بوينا » . . وانتهى الجند من ذلك العمل القذر الحيوانى . فرفعت المرأة قدمها عن الشيخ وأخذت تصيح فيه :

– قم أركض يا (وسخ) . . ولكن الشيخ كان قد فارق الحياة فظل فى مكانه جثة هامـدة .

وفى نفس تلك الليلة اقتحم ضابط إسرائيلى فى غزة منزل صلاح اللبابيدى المدرس فى المدارس الثانوية . . وكانت زوجته السيدة ميسر اللبابيدى امرأة جميلة فحاول الضابط الإسرائيلى الاعتداء عليها ، فأخذت تصرخ وتستغيث . فاستيقظ أطفالها فزعين فأخذوا يصرخون . . وكان الزوج فى زيارة لجيرانه فحضر مسرعاً على الصراخ . . وهنا فاجأه الضابط بإطلاق النار وأرداه قتيلاً أمام زوجته وأولاده . . ولم يهدىء منظر الدم والصراخ من غريزته الحيوانية ، فعاد يهاجم السيدة من جديد ، فأخذت تدافع عن نفسها بأظافرها وأسنانها وكل ما تصل إليه يداها . . وعندما مل الضابط الإسرائيلى المتوحش هذا الصراع أطلق مسدسه على السيدة ميسر وترك جثتها وجثة زوجها على الأرض وسط صراخ الأطفال وخرج .

وفى الصباح تجمع نساء المعسكر فى مظاهرة كبيرة اتجهت نحو مركز الحاكم العام فى غزة « صاغان ألوف حاييم جاعون » وأخذت تهتف بسقوط الدولة البغى ووصلت المظاهرة إلى غزة فانضمت إليهن نساؤها وفتياتها ، وتابعت المظاهـرة سيرها رغم حصار الجنود لها . . وحاول الجند تفريقها بإطلاق النار إرهاباً فى الهواء . ولكن الموت كان أحب إليهن من تلك الحياة . « واليائس أخطر من أن تخيفه بالموت وطلقات الرصاص » . . ووصلت



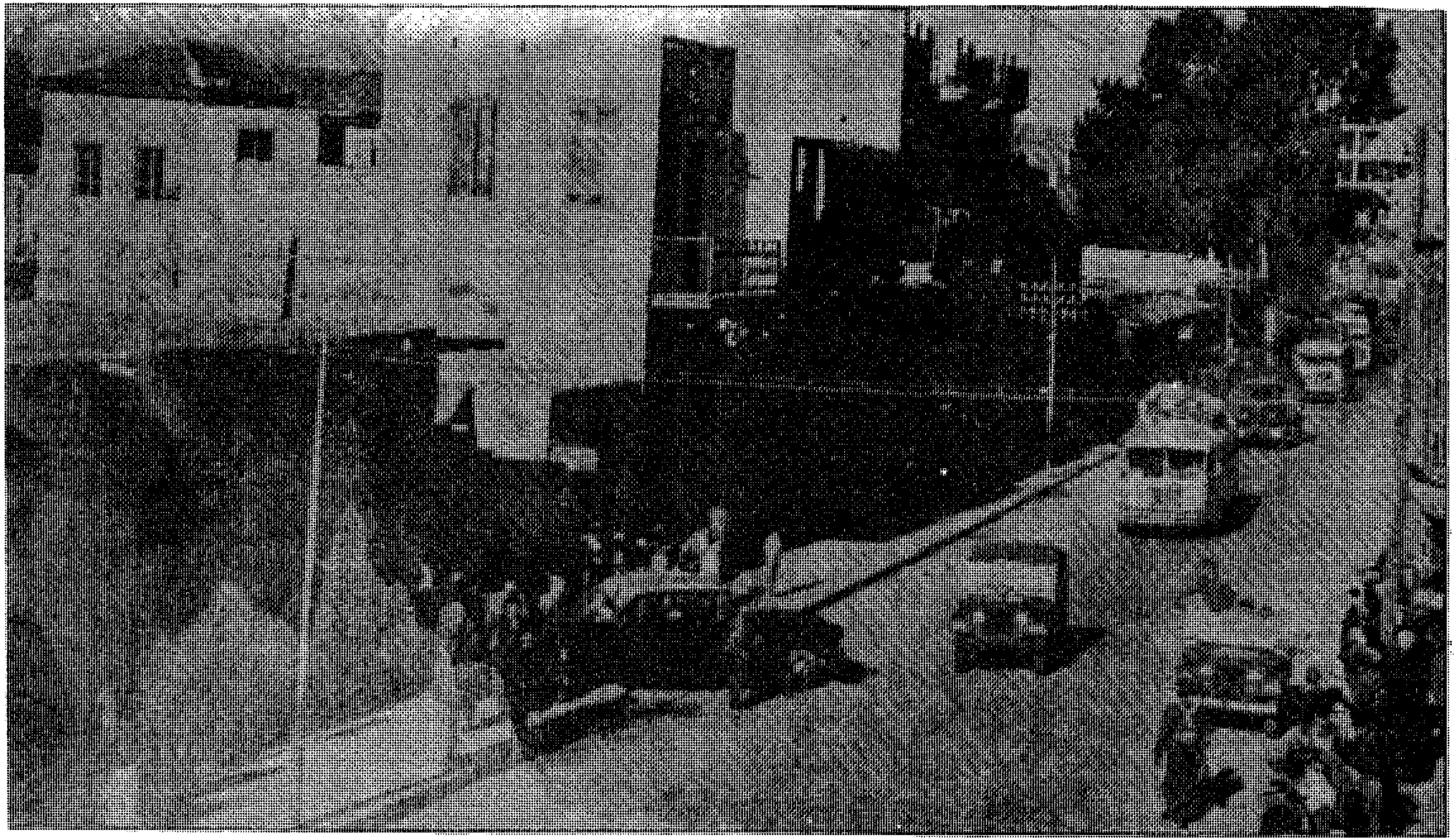
مظاهرة نسائية في غزة . ضد حوادث الاغتصاب وهتك الأعراض .. من الجنود الإسرائيليين وقدخرجن يحملن الإعلانات بالإنجليزية والعبرية ويهتفن بسقوط إسرائيل .. وقد سارت المظاهرة مسيرة ساعة كاملة فى شجاعة ليس لها مثيل غير عابئات بالرصاص المنهمر حولهن حتى خرج لهن الحاكم العام اليهودى وعد بإيقاف جنوده .

المظاهرة إلى مكتب الحاكم فأطلق عليها حراسه النار فقتلوا فتاتين وجرحوا عشرات ولكنهن لم ينصرفن وكن ينادين : « نريد مقابلة الحاكم » . فخرج لهن جاعون ووعد بإيقاف جنده عند حدهم وعدم تكرار تلك الحوادث .

ولم تقتصر أعمال (جيش الدفاع الإسرائيلى البطل) على عمليات الإعدام الجماعى للشباب ، ولا عمليات انتهاك أعراض النساء . . ولكنهم لم يرحموا حتى الأطفال . . فقد كانت الدوريات تلقى فى الليل أمام بيوت اللاجئين بعض قطع الحلوى الملوثة ، فإذا أكلها الأطفال فى الصباح أصيبوا بالتسمم . . وكثيراً ما كانوا يلقون بهدايا صغيرة على شكل أقلام الحبر أو لعب الأطفال ، فإذا أمسك بها الطفل ليلعب بها انفجرت فى يديه وبترت أصابعه.

اعتقال العائلات المصرية

وكانت أسوأ معاملة يلقاها أحد فى القطاع من نصيب المصريين بالذات . فقد كانت إسرائيل تحاول بكل وسيلة أن تجبرنا على المطالبة بمغادرة القطاع حتى تستغل هذا الحادث فتفهم إخواننا اللاجئين الفلسطينيين أننا قد تخلينا عنهم فى وقت المحنة . . فلما فشلت سياسة الإغراء ، لجأت إلى القوة فجمعت العائلات المصرية فى منطقة سكنية وحاصرتهم بالأسلاك الشائكة ومنعتهم من مغادرتها إلى أن يوقعوا على طلب العودة إلى مصر . واكتشفت إسرائيل أن هذه الطريقة قد قلبت الأمور إلى عكس ما توقعت . فما أن أحس أهالى غزة بأن المصريين محاصرون ويلقون العنت والإرهاق فى سبيلهم حتى بدأوا يتسابقون فى مساعدتهم والتعاطف معهم . . وكانت كل يوم تصلهم الهدايا والحلوى من الأسر ومن المحلات التجارية ، وأولها صاحب محل « ساق الله للحلويات » . فقد كنت أرى هذا الرجل كل يوم يجر بنفسه عربة صغيرة عليها أكداس من الحلوى التى يتقن صنعها ويقف أمام الأسلاك الشائكة يوزع حلواه مجاناً على المحاصرين . وكان هناك رجل من أثرياء غزة وأعيانها اسمه« الحاج عجور »دفعته نخوته إلى أن يشترى كل ما استطاع من البطاطين والمأكولات الجافة يقدمها هدية إليهم . . وهكذا أصبحت العائلات المصرية قبلة الجميع أثناء ساعات السماح بالتجول . . وعند ذلك قرر اليهود ترحيلهم بالقوة . . واجتمعنا نحن الأطباء المصريون وتداولنا فيما نفعله لو أجبرتنا إسرائيل على الرحيل . . وقررنا أن أذهب نيابة عن زملائى إلى رئيس أطباء الهيئة الهولندى الدكتور جرتنباخ وأخبره برغبتنا فى عدم التخلى عن إخواننا اللاجئين مهما لقينا من عذاب . وأن كل ما نطلبه من



الأسر المصرية فى قطاع غزة وقد أجبرتهم إسرائيل علي الرحيل فى هذه السيارات .. ونرى المحلات التجارية وقد أغلقت أبوابها احتجاجاً على ترحيل المصريين وحرمان الأهالى من خدماتهم .

هيئة الأمم هو أن تعاملنا كما تعامل الموظفين الدوليين ، أى تقوم بحمايتنا من السجن والاعتقال . . وفوجئت بهذا الرجل الحقود يقول : « أعتقد أن الهيئة لا يمكنها حمايتكم . ولو أخذكم اليهود إلى المسلخ وجعلوا منكم لحماً مفروماً يباع فى العلب فإن الهيئة لا تستطيع التدخل » . وأسررت هذه الحادثة فى نفسى بعد أن تكشفت نذالة هذا الرجل . . وقررت مع زملائى عدم الاعتماد على الهيئة ومواجهة المصير دون مساعدة من أحد إلا من الله . . وما أن حضرت السيارات لجمع العائلات المصرية تمهيداً لترحيلها إلى مصر عن طريق العريش والقنطرة حتى اختفينا نحن الأطباء فى بيوت اللاجئين فى معسكراتنا إلى أن خرجت السيارات خارج غزة . . وكان يوم رحيلهم يوماً مشهوداً حزيناً . . فقد أخذت العائلات الفلسطينية تودعهم بالبكاء والنحيب ويقولون لهم : « انشاء الله عائدون . . انشاء الله راجعون . . سلموا على عبد الناصر » . . وقرر التجار الإضراب احتجاجاً على جريمة إسرائيل حتى خلت جميع شوارع غزة من الناس وقضت يومها كله فى مأتم . . وقد استطعت من المنزل الذى اختبأت فيه أن التقط تلك الصورة التى يراها القارىء للسيارات أثناء الترحيل وقد أغلقت جميع المحال التجارية . . وفى اليوم التالى بعد أن هدأت العاصفة عدنا نحن الأطباء إلى عياداتنا ، فحضرت الشرطة الإسرائيلية واعتقلتنى وأودعتنى السجن يومين ، ثم أفرجت عنى دون تحقيق وعدت إلى العمل عندما أعلن اللاجئون أنهم يرفضون تناول أى دواء مهما كان نوعه من أى طبيب يهودى .

إسرائيل تحاول بث الفتن الطائفية

إذا كان الاستعمار الغربى قد ابتدع فكرة « فرق تسد » . فإن شعب إسرائيل هم أول من خلق فكرة الفتن الطائفية والوقيعة بين الأديان . . وفى برتوكول حكماء صهيون أعلنوا هذا المبدأ صراحة : « يجب أن ننشر فى سائر أقطار العالم الفتنة والمنازعات والعداوات المتبادلة » . ومن خططهم التى وضعوها لتمزيق العالم العربى ، أن يقسّموا البلاد العربية إلى طوائف دينية وعنصرية ويبثوا الفتن بينها ، كما كان يفعل الاستعمار الفرنسى فى لبنان وسوريا . فالمسيحيون يقسمون إلى كاثوليك وبروتستانت وارثذكس وموارنة . . والمسلمون يقسمون إلى شيعة ودروز وسنّة . . وجاءت إسرائيل تطبق سياستها هذه فى غزة . . ونسيت أمراً هاماً . . وهو أن فلسطين بالذات والشعب الفلسطينى قبل أى شعب عربى آخر من الصعب جداً تقسيمه وتفريقه بإثارة النعرات الطائفية والدينية فيه . . لا لأن

المحن التى تعرض لها هذا الشعب قد صهرت قلوبهم ووحدت بينهم فحسب . . ولكن أهم من هذا لأنك قد تجد العائلات المسلمة والمسيحية تربط بينها صلات القرابة منذ مئات السنين . . بل أن العائلة الواحدة قد يكون منها فرع مسلم وفرع آخر مسيحى مشتركان معاً حتى اليوم فى اسم الجدود ويعيشون معاً فى نفس المدينة فى سلام ومحبة وتعاون .

ابتدأت إسرائيل خطتها الخائبة فى شهر ديسمبر ١٩٥٦ ، عندما ذهب وفد من حاخامات اليهود لزيارة كنيسة غزة مدعين بأنهم يسعون للتقارب المسيحى اليهودى . وكان قصدهم من تلك الزيارة إثارة حفيظة المسلمين تمهيداً للإيقاع بين الطائفتين . وكان المسئول عن كنيسة غزة هو ذلك العربى الأصيل القس حنا النمرى . . كان أبونا حنا من الوطنيين المتطرفين وكان معروفاً بمواقفه العربية والوطنية منذ حرب سنة ١٩٤٨ . وطلب اليهود من أبونا حنا أن يقيم الزينات والأفراح وأن يجعل الاحتفال بعيد الميلاد فى هذه السنة أروع منه وأعظم من كل سنة ماضية . وقالوا له إن إذاعة إسرائيل وصحافتها سوف يشتركون معه بإذاعة خطابه وتشجيعه .

وتنبه أبونا حنا على الفور إلى حقارة تلك الخطة الخبيثة فقال لهم :

– «هل حضرتم لزيارتى كوفد دينى أم وفد سياسى ؟

فقالوا له :

– وفد دينى .

فقال : فهل يمكننى كرجل دين أن أقيم مثل تلك الاحتفالات ودماء الضحايا والشهداء من أبناء بلدى لم تجف بعد . . إننى سأجعله يوماً حزيناً ولن أحتفل بالميلاد إلا فى ظل الحرية .

فقال أحد الحامات :

– ولكنك لست منهم ولم يقتل فى الحرب رجل مسيحى واحد .

وهنا احتد أبونا حنا قائلاً :

– ماذا ترونى . . هل ترونى إنجليزياً أم فرنسياً . . أم تحسبونى بلا وطن ولا جنس مثلكم . . إننى عربى مسيحى وسأعلن على الناس كل ما قلتموه لى حتى يحتاطوا منكم .

وخرج وفد الحاخامات خائباً غاضباً وأبلغوا حكومتهم ، فصممت إسرائيل على الانتقام بطريقتها الحقيرة الدنيئة . . وفى يوم عيد الميلاد المجيد اتجه الأطفال مع أهاليهم إلى الكنيسة فإذا بهم يجدون الهدايا والألعاب وقطع الحلوى على عتبات الكنيسة ومدخلها .

وأكلوا الحلوى فأصيبوا بالتسمم وفتحوا الهدايا فانفجرت فيهم وقطعت إحدى تلك المتفجرات يدى طفلة صغيرة فى الرابعة من عمرها وشوهت وجهها . . وثار القس العربى على تلك المؤامرة الخسيسة وأخذ يهاجم الاحتلال الصهيونى علانية فى جميع صلواته وخطبه ، بل قام بقيادة مظاهرة إلى مقر الحاكم العام وهو يهتف : « عاشت المسيحية مع الإسلام ولتسقط الصهيونية المجرمة » . وإلى هنا لم تسكت إسرائيل ولجأت إلى آخر طريقة فى جعبتها . . ألا وهى الاغتيال . . الوسيلة الوحيدة التى يحل بها اليهودى مشاكله المستعصية . . وكان أبونا حنا لا يخرج فى الأسواق ولا يرى فى الطريق إلا حاملاً بين يديه تلك الطفلة البريئة التى شوهتها الألغام التى وضعها اليهود . . وكان منظرها وحده أسوأ دعاية لوحشية إسرائيل . . و ترصد اليهود به فى الطريق فأخذوا يتبعونه إلى أن وصل إلى مكان مهجور فأطلقوا عليه النار ولما سمعوا صرخته ولوا هاربين . . ولكن الرصاصة أصابت الطفلة المسكينة فقتلتها بين يديه وسَلم القس وأخذ يقص على كل من رآه قصته ويقول : « أنا أعرف أننى لو قُتلت لأذاعت إسَرائيل أن أحد المسلمين قد قتلنى لكى تستفيد من موتى فى خلق فتنة . . ولكن الله قد حمانى لأفضح المعتدين الآثمين و أصون وحدة بلادى » . ولا يفوتنى هنا أن أذكر عن هذا الرجل البطل أنه كان يعطف على المسلمين والمسيحيين على السواء دون تفرقة . . وكان يوزع هدايا البابا على جميع المحتاجين دون النظر إلى دينهم ، بل كان يساعد الفدائيين ويأوى الجريح منهم فى كنيسته .

حاكم غزة

ذات يوم جاءنى مندوب من البوليس الحربى الإسرائيلى وأخبرنى أن الحاكم العام « صاغان ألوف حاييم جاعون » يريد أن يزور عيادة جباليا التى أعمل فيها . . ولم أجب بكلمة واحدة ، فقد كنت أعلم أنه يقصد إبلاغى وليس استئذانى . وبعد ساعة حضر الحاكم العسكرى العام ومعه أركان حربه الذين خاضوا معركة غزة وخططوا لها . . وكانوا فى العقد الثالث من عمرهم ولا يبدو أن أكبرهم يزيد عمره عن ٣٥ سنة . . وتظاهر الحاكم بالتمسك بأصول اللياقة والتهذيب ، فقد ابتدأ حديثه قائلاً :

- أرجو أن تعتبر هذه الزيارة للتعارف والصداقة لا أكثر ولا أقل .

ورغم شعورى بأن هذه المجاملة مجرد تمثيل وخداع ، فيجب أن أعترف أننى قد دهشت لعباراته المؤدبة التى لم نعتدها من جنود إسرائيل منذ احتلالهم غزة .

ثم استأذن منى وجلس هو وأركان حربه . وكان إلى جوارى زميل لى هو الدكتور / أنور هو شاب مصرى درس الطب فى سويسرا ، وكان معنا أيضاً السيد مصطفى أبو مدين مدير معسكر اللاجئين ، والسيد خليل ريان الاخصائى الاجتماعى فى هيئة الغوث . . وبدأ الحاكم الحديث عندما لاحظ كتاباً بالإنجليزية على مكتبى ، هو رواية (تاجر البندقية) من شعر شكسبير . ولا أنكر أننى تعمدت وضعها فى مكان ظاهر ليلاحظها لأنها تظهر حقيقة الخُلق اليهودى وحقارته بتحليل عميق .

وقال بالإنجليزية : هل قرأت مسرحية شكسبير هذه يا دكتور ؟

قلت :

- نعم ، إننى من المعجبين جداً بشعره . . ألا يعجبك أنت !

قال :

- إنه يعجبنى بدون شك ، ولكن هذه المسرحية فيها الكثير من المغالطة والكذب عن اليهـود .

قلت :

- إن معظم مسرحيات شكسبير ليست خيالية ، بل لقد اتهم فى كل عصر بأن كل فضله أنه أخذ القصص من التاريخ ووضعها فى إطار شعرى ولم يخلق قصة واحدة من خيـاله .

ولم يرقه تعليقى ، وقال :

- هل تصدق أن شيلوك المرابى اليهودى فى هذه المسرحية كان يشترط على مدينه إذا لم يسدد الدين فى موعده أن يقتطع رطل لحم من جسده .

هل من المعقول أن يكون هناك قانون يسمح بذلك فى الأساس ؟

فقلت :

- أرجو أولاً أن لا تغضبك المناقشة مادمت قد أثرتها .

فقال :

- إننا نقدس حرية الرأى . ويمكن لأى رجل إسرائيلى أن يسب رئيس الجمهورية دون أن يعاقب أو يلام فخذ راحتك .

فقلت ضاحكاً :

- أرجو أن تضم صوتى إلى صوت ذلك الرجل .

ثم قلت :

- لقد تحريت تلك النقطة بالذات فوجدت أن القانون الروماني في ذلك العصر كان فعلاً يجيز للدائن حق اقتطاع فلذة من لحم المدين إذا كتب ذلك في شرط الدين . . فالقضية فعلاً حقيقية ومحتملة الوقوع .

وكاد الجو أن يتكهرب ونحن بعد في أول جلسة . . وتدخل زميلي الدكتور أنور قائلاً :

- لا تؤاخذوني فأنا ضعيف في الإنجليزية . . هل تتكلمون الفرنسية حتى أشارككم الحديث ؟

فقال جاعون :

- لا مانع فمعنا ضباط من أصل فرنسي وأشار إلى أحد زملائه مبتسماً . . واتخذ حديثنا بالفرنسية وجهة أخرى . فقد بدأنا الحديث عن الهوايات . ولما علم أنني من المغرمين بالموسيقى الكلاسيك ، بادرني بالسؤال عن رأيي في الموسيقيين اليهود فقلت له :

- إنني معجب بموسيقى مندلسون . وسمفونيات ماهلر وأغانيه . . ويعجبني عزف يهودا مناحم على الكمان وروبشتاين على البيانو . . وعددت له آخرين وقلت له إن الفن لا يعرف التعصب .

وأخيراً تطرق الحديث إلى موضوع الإنسانية وأثر الحروب عليها . وجرنا الكلام إلى الموضوع الحساس وهو قضية اللاجئين .

فقال الحاكم الإسرائيلي :

- لعلك كطبيب تعرف أن الحروب يحدث فيها أخطاء كثيرة وغير مقصودة وأن ضحايا هذه الأخطاء هم المدنيون قبل العسكريين .

وانتهزت هذه الفرصة . . وقلت له :

- مرة أخرى أرجو أن تتيح لي فرصة التحدث معك بصراحة . . إنني لا أنكر أن هناك فرصة لوقوع أخطاء في الحروب تترك وراءها العديد من الضحايا ، ولكن هناك أشياء لا يمكن أن نعتبرها أخطاء مهما حاولنا تبريرها . . فلا يمكننا أن نعتبر اعتداء جنود الدورية الإسرائيلية الرسمية على البيوت والأعراض من قبل الصدفة أو الخطأ . . كذلك إلقاؤهم الهدايا الملغمة والحلوى المسمومة . . ونسف مستشفى خان يونس وقتل أطبائه .

وأردت أن استرسل لأعدد فظائع هذا الجيش ، ولكنه قاطعني صارخاً :

- مهلاً يا دكتور . . إن جيش الدفاع الإسرائيلى لا يمكن أن يفعل ذلك . . فنحن شعب متمدن ومثقف . . لقد قرأت تقاريرك التى ترسلها إلى مدير عام هيئة إغاثة اللاجئين تتهم فيها جيشنا بإلقاء الهدايا المحملة بالألغام . وأؤكد لك كما سبق أن أبلغت هيئة الأمم بأن هذه الألغام قد تركها الجيش المصرى أثناء انسحابه ولا دخل لنا بها إنها مخلفات حرب .

وابتسمت عندما سمعت هذه الجملة التى لا تجوز على الأطفال . . وبرغم شعورى بمراوغته فى الرد ، فقد أصررت على مواصلة الكلام قائلاً :

- هل تحب يا سيادة الحاكم أن ترى بعض هؤلاء الأطفال الذين انفجرت فيهم القنابل . . وتسمع بنفسك قصتهم من لسانهم .

فقال :

- لقد رأيت حالات كثيرة فى المستشفيات وتأكد لى أن جنودنا غير مسئولين عنها .

وعند ذلك أدركت أنه لا فائدة من الجدال معه . . فأنت تستطيع أن تجادل الرجل الذى يريد أن يصل إلى الحقيقة ويعرفها . . أما الرجل الذى يريد إضاعة الحقيقة فلا فائدة من جداله . . ولا إقناعه . . ولكن هذه المناقشة قد أشعرتنى أن هذه الحوادث قد تمت عمداً بمعرفة حكومة إسرائيل وبأمر مخابراتها . فهم لا يكتفون بإعدام الشباب ، ولكن أيضاً يقتلون الأطفال الأبرياء . . أو يصيبونهم بعاهات مستديمة تعجزهم إذا صاروا شباباً عن العمل ومحاربتهم . . وقد زاد يقينى من هذا الأمر بعد ذلك فى سنة ١٩٦٩ . فقد وقف المدعى العام اليهودى فى تل أبيب أثناءمحاكمة الفدائيين العرب الذين اعتقلتهم إسرائيل وقال فى اتهامه الذى نشرته الصحف :

- هؤلاء الفدائيون الذين ترونهم أمامكم هم أطفال الأمس الذين تركهم جيش الدفاع الإسرائيلى أحياء عندما احتل غزة سنة ٥٦ . ولم يكن عمر أكبرهم يزيد عن العشر سنوات .

كأنه كان يقول : « لو أن الجيش الإسرائيلى قضى عليهم جميعاً لكانت إسرائيل اليوم فى أمان » .

وهكذا انقضت ثلاث ساعات فى حديث متواصل مع الحاكم العام . . والحق أقول أنه واسع الثقافة كثير الطلاع . . ولكن رغم الجهود التى بذلتها لم أحصل منه على وعد يحدد نشاط جنوده فى العدوان على أعراض الناس وإلقاء الهدايا المسمومة والملغمة .

وعندما خرج من العيادة وجد بعض أطفال اللاجئين يلعبون فى الطريق ، فمال نحوهم ملاطفاً وقال بعربية ركيكة :

– لماذا لا تذهبون إلى المدرسة أيها الأطفال ؟

فأجابوا : أبونا يقول أن اليهود يضعون السم لأطفال المدارس ويقطعون أصابعهم .

إسرائيل تعلم العرب الإسلام

لم تكد تمر بضعة أيام على زيارة الحاكم الإسرائيلى جاعون ، حتى جاءنى مدير التعليم الذى عينته إسرائيل للإشراف على مدارس القطاع . . وهو يهودى من أصل عربى يضع عيناً زجاجية ، كما يحمل سماعة أذن لضعف سمعه ويدعى نورى . وعندما دخل نورى العيادة سأل عنى وقال أنه مرسل من قبل الحاكم العام للتفاهم معى فى الشكاوى التى أبلغته عنها وخصوصاً ما يمس أطفال المدارس . . وأخذ الحديث يدور بيننا حول نفس الحلقة المفرغة من جديد . . ثم قال أنه أعد مشروعاً لتشجيع التعليم فى القطاع وسيشجع هذا المشروع الأطفال على العودة للدراسة والإقبال على التعليم .

فسألته فى لهفة عن هذا المشروع فقال مبتسماً :

– إننا سنجعل الدين الإسلامى إجبارياً ، وسنجعل أساس التعليم فى المدارس هو تحفيظ القرآن الكريم .

وهنا ساورتنى الشكوك مباشرة وخصوصاً إننى كنت أعلم أن إسرائيل قد طبعت نسخاً محرّفة من القرآن ووزعتها على مسلمى أفريقيا فهل تريد توزيعها على اللاجئين العرب . . فسألته :

– وماذا تقصدون من وراء تحفيظهم القرآن ؟

قال :

– إننا نحرص على تعليم الدين اليهودى للأطفال اليهود ونريد أن ينشأ الأطفال العرب أيضاً نشأة دينية . ولكى يتاح للأطفال الدراسة الدينية المطولة المتعمقة فلابد من تخفيض المناهج الأخرى . لذلك سوف نلغى المواد الأخرى مثل الحساب والجغرافيا والتاريخ ونركز على تحفيظ القرآن . . وسوف تساهم حكومة إسرائيل مساهمة مجانية فى هذا المشروع !!

وهنا فهمت مقصده . . فهذه أيضاً كانت نظرية الاستعمار البريطانى عندما ألغى الجامعات وأغلق المدارس الثانوية واكتفى بالكتاتيب فى الأحياء القديمة فى االأرياف ، فلا يدرس الإنسان العربى إلا حفظ القرآن .

ثم سألته زيادة فى التأكيد :

– ولكن بالله عليك ماهى المساعدة التى ستقدمها إسرائيل مساهمة منها فى هذا المشروع .

قال :

– سنقدم المصاحف مجاناً للتلاميذ .

قلت :

– وهل طبعت تلك المصاحف فى بلد عربى ؟

قال :

– إن لدينا مطابع عربية ضخمة ولدينا طبعات نفيسة من المصحف الكريم ، فنحن اليهود العرب مازلنا حريصين على لغتنا العربية . .

وفاجأته بقولى :

– هل هذه المصاحف هى المحرّفة التى سمعنا عنها . . أحب أن أخبرك أن كل طفل ورجل عربى يعرف هذه المصاحف المحرّفة التى طبعتموها فلا تتعب نفسك فى هذا المشروع لأنه سيفشل أكثر من غيره .

محاولة نشر الأوبئة بين اللاجئين

فى أحد الأيام كنا نستمع إلى نشرة الأخبار فى الراديو فى استراحة الأطباء، فسمعت أن وباء الجدرى قد ظهر فى لبنان ، وزاد قلقى عندما سمعت أنه قد انتقل من لبنان إلى الأردن . . وكنت أعرف أن الكثير من الفدائيين يتنقلون عبر إسرائيل من الأردن إلى غزة وبالعكس . . ولذلك بادرت بكتابة خطاب إلى رئيس أطباء هيئة الأمم لإغاثة اللاجئين لإمدادنا بمصل ضد الجدرى بصورة مستعجلة للوقاية من الوباء . . وبعد بضعة أيام أرسل إلىّ دفعة كبيرة من مصل الجدرى . . ولما فحصته وجدته من صنع إسرائيل . فامتنعت عن استعماله وأبلغت زملائى ثم ذهبت إليه قائلاً : كيف تفعل هيئة عالمية مثل هذا العمل يا دكتور ؟ هل ضاقت الدنيا فى وجوهكم حتى تأخذوا المصل من إسرائيل التى تتمنى إبادة العرب ؟

فقال لى الطبيب الهولندى مستنكراً قولى :

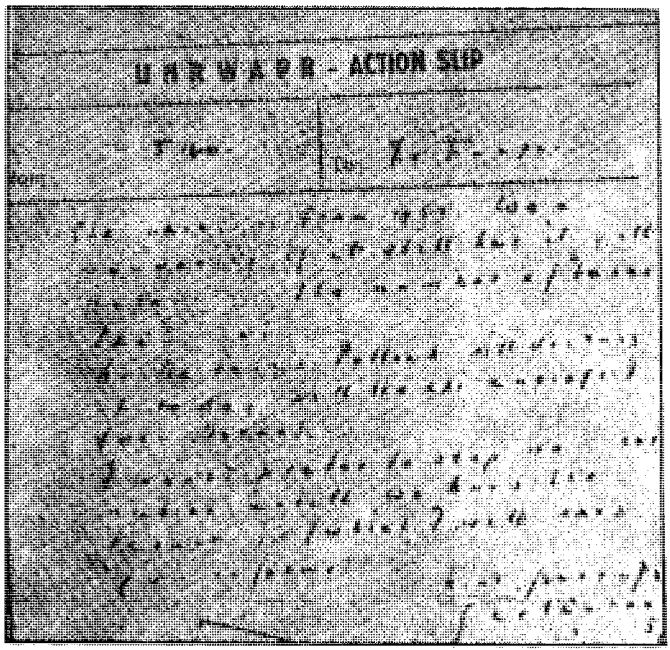
- إنكم أيها الشرقيون لا تفهمون العقلية الأوروبية . . إننا لا نخلط الطب والإنسانية . . بالسياسة والدعايات . . كما أننا لا نحب أن تطغى عواطفنا على عقولنا . . فنحن نشترى الدواء من أى بلد فى العالم حتى لو كان هذا لبلد من أعدائنا لنستفيد منه . وذلك مثلما تشترون أنتم السلاح الروسى للدفاع عن أنفسكم .

قلت :

- لقد أسأت فهمى يا دكتور « جرتنباخ » إننى لا أعارض الدواء لأنه يهودى . . ولكن لأن الصهاينة يختلفون عن جميع شعوب العالم فى أنهم لا يتورعون عن أى عمل حقير وغير إنسانى . . فقد يكون الطعم فاسداً أو مسموماً . . وهذا غير مستبعد عليهم .

فضحك الطبيب فى سخرية وقال :

- إن هذا المصل قد اشترته الهيئة من إسرائيل بالمال ، فهو ليس هدية ، ولا يفوتك أننا قد اشتريناه باسم هيئة الأمم ، فدعك من هذه الخرافات وعجل بإعطاء التطعيم حتى لا تفوت الفرصة على اللاجئين وينتقل إليهم الوباء وإلا وجهت إليك تهمة التقصير .


U N R W A P R - ACTION SLIP

- الخطاب الذى أرسله رئيس أطباء الهيئة إلي الدكتور فنجرى يخبره فيه أن الطعم الإسرائيلى فاسد ويطلب منه إعدام الكمية التى أرسلها إليه من وزارة الصحة فى إسرائيل .

قلت :

– آسف يا دكتور . . لقد أعطيتك عدة تقارير عن الحلوى المسمومة والهدايا الملغمة التى يلقيها اليهود إلى أطفال اللاجئين ولكنك لم تصدقنى . . وأريتك بعض الحالات فدافعت بأن هذه الحوادث ليست من صنع جنود إسرائيل . . تماماً كما فعل حاكم غزة اليهودى . . والآن إذا كان ولابد فأرجوك على الأقل أن تعطينى شهادة رسمية لهذا المصل من معامل الهيئة تثبت صلاحيته . . وإلا فعليك أن تعطى بيدك أول جرعة منه كتجربة على مسئوليتك .

هنا ثار الطبيب علىّ وغضب وطلب منى مصلاً لكى يقوم بنفسه بالتطعيم ، فحللت له مصلاً وتعمدت أن يكون مخففاً بقدر الإمكان . . لتخفيف الضرر . . وشمر الدكتورعن ساعده وتقدم نحو أول طفل إلى جواره وأعطاه التطعيم ثم مال على الثانى فطعمه وابتدأ فى حماس يمر بالصف كله . . فملت على أذنه قلت له :

– كفى هذا الآن يا دكتور وانتظر النتيجة ولو يوماً واحداً على الأقل ، فلو أصاب أحد من هؤلاء الأطفال أى أذى لقتلك أهلهم خصوصاً أن قصة هذا المصل قد أصبحت معروفة

وتوقف الطبيب بعد إلحاح ، . واضطررت إلى حجز الأطفال تحت المراقبة خوفاً مما يصيبهم من المضاعفات . . وبعد ساعات ظهر عليهم ارتفاع شديد فى الحرارة ثم ابتدأت أعراض التسمم الشديد تبدو عليهم ، فأخذت فى إسعافهم وعلاجهم وأرسلت إلى الدكتور جرتنباخ من أيقظه من نومه فى الثالثة صباحاً . . فحضر مذعوراً مرتعداً . وما أن رأى بنفسه حالة الأطفال حتى أخذ بعض المصل وتوجه بسيارته إلى تل أبيب . . ومن هناك أرسل إلىّ هذه الرسالة التى نشرتها مصورة بالزنكغراف فى الصحف العربية وأولها مجلة آخر ساعة بتاريخ ٢٩ مايو ١٩٥٧ وها هو نصها :

« عزيزي الدكتور فنجرى

اتضح أن هذا المصل من عام ١٩٥٢ ، وأننا نتعجب إذا كان مازال يحتفظ بحيويته وصلاحيته . . كمية التأكز قليلة . . الدكتور نيكارى بولاخ سيبحث الأمر اليوم مع اخصائى الأمصال الإسرائيلى . أفضل أن توقف التطعيم حتى نرى النتيجة . التى سنحيطك بها علماً بعد إتمام تحليل المصل فى معامل الهيئة » .

وفى اليوم التالى أرسل الدكتر جرتنباخ برقية من بيروت بعد ظهور نتيجة تحليل المصل فى معامل الهيئة . . فيها يقول :

« المصل ملوث . . أعدم الكمية التى عندك » .

وهكذا تكشفت هذه الحقائق عن مأساة أخلاقية وإنسانية أثبتت أن العصابة التى تحولت إلى دولة مازالت تتصرف بأخلاق العصابة . وأن شكسبير لم يكن مبالغاً فى وصفه لليهود ممثلين فى شيلوك اليهودى الذى أراد أن يقتطع من لحم أخيه الإنسان حياً سداداً لدينه .

وأخيراً عاد الدكتور جرتنباخ إلى غزة . . وما أن وصل بالطائرة حتى توجه مباشرة إلى عيادتى ومقابلتى . . وأخذ يسلم علىّ بحرارة ويشكرنى على إنقاذى له من ورطة كبيرة كاد أن يقع فيها ولكنى قابلت حماسه هذا باستياء وفتور . . وقلت له :

– من قال لك ياسيدى أنك قد نجوت من العقاب والإنتقام . . هل تعتقد أن أهل هؤلاء الأطفال سوف يسكتون عما جرى على يديك لأطفالهم؟

فأجاب متصنعاً اللطف والمداعبة :

– مهلك يا دكتور فنجرى ، فأنت لا تعرف كم كان احتجاجى عنيفاً وحازماً فى تل أبيب . . بل إننى قد طالبت أيضاً بإعادة ثمن الطعم إلى الهيئة .

فأجبته وقد أحسست بأن ساعة تصفية الحساب الطويلة قد دنت :

– شكراً لك ياسيدى على احتجاجاتك ، ولكن لعلك تتذكر أن هناك أرواح كادت تزهق بسبب إصرارك على إعطائهم هذا التلقيح ، وليست هذه هى المرة الأولى التى تتصرف فيها بهذه الصورة المعادية للعرب . فهناك حساب طويل لا يمنع تصفيته كونك رئيساً لى . . فعندما هاجم اليهود غزة تخليتم أنتم الأجانب والدوليون عن زملائكم فى العمل من الموظفين العرب وأخذتم تتعمدون الإساءة إلى مشاعرنا . . وأنت بالذات يا سيدى قد تركت عملك الإنسانى كطبيب وأخذت معك الممرضات والأطباء الأجانب فى القطاع . . وهربتم جميعكم إلى البارجة الأمريكية التى حضرت يوم العدوان لكى تحميكم من أى شر . . وهكذا تخليتم عن غزة وعن أبنائها الجرحى والمصابين فى وقت محنتهم . . ولو أنكم قبل هربكم قد أمنتم لنا الدواء وحرية العمل لهان الأمر ولقمنا نحن الأطباء العرب بواجبنا دون شكوى أو ملل . . ولكنكم اختفيتم فجأة وهربتم فى الظلام . . ثم عدتم جميعكم إلى الظهور بعد بضعة أيام عندما هدأت الأمور واستقر الأمر لليهود . . وبالرغم من هذا العمل المخزى فقد عدت ياسيدى عودة الظافرين المتكبرين . ولعلك تتذكر يوم طلبت مقابلتك وأخذت أسألك نيابة عن زملائى الأطباء العرب عن موقف الهيئة منا فى ظروف الاحتلال الإسرائيلى وهل ستقوم بحمايتنا كما ستحمى الموظفين الدوليين أم ستتخلى عنا . فأخذت يا دكتور تتهكم بنا وتقول : « إن

اليهود سيجعلون منكم لحماً مفروماً يباع فى العلب المحفوظة . أما عن موقف الهيئة فإنها ستقول لسلطات الاحتلال أنها لا تعرف أحداً منا ، وأنهم يستطيعون أن يفعلوا بنا ما يشاؤون » . أليس هذا هو حديثك ؟

فقال مقاطعاً :

– لقد كنت أقصد الدعابة فلماذا أغضبك كلامى هذه المرة ؟

قلت :

– إذا كانت الدعابة هى التى دفعتك إلى قول ذلك ، فما أسوأها من دعابة فى وقت تزهق فيها أرواح إخواننا بالعشرات ، وعلى كل حال فإنك قد تصرفت معنا فعلاً بما تدعى أنه دعابة . فلا يمكن أن أنسى يوم أن وضعنى اليهود فى طابور الأعدام ومررت أنت بنا ورأيتنى منطبحاً على الأرض والمدافع الرشاشة مصوبة إلى رأسى ، فما أن التقت عينى بعينك حتى أدرت ظهرك كأنك لا تعرفنى وكان بيدك إنقاذى بإشارة صغيرة منك ، هل بيننا عداوة إلى هذا الحد ؟ وماذا كنت تفعل لو أننى كنت مريضاً وبيدك شفائى كطبيب ؟ أكنت إذاً تضع لى السم بدل الدواء ؟

فقال فى استياء :

– انك تبالغ فى تصوراتك فأنا أقسم أننى لم أركَ فى هذا اليوم .

قلت :

– ليتنى أكون مخطئاً ، ولكن ما رأيك فى ذلك الحادث الذى يرويه جميع سكان غزة عنك وعن مروءتك . فعندما استولى اليهود على جميع سياراتهم ، كنت تمر أنت والموظفون الدوليون بسياراتكم دون مراعاة لمشاعر زملائكم العرب ، وذات يوم أوقفك الأهالى فى الطريق وطلبوا منك أن تنقل بسيارتك الخاصة أحد الجرحى إلى المستشفى لإنقاذه من جرح خطير فأبيت خوفاً على سيارتك من أن تتسخ بالدماء . هل كنت تستطيع أن تتصرف هكذا فى بلدك وبين مواطنيك فى هولندا ؟ ألا تعلم أن جميع أهل غزة يتناقلون هذه القصة عنك فى صمت وألم مرير . ولن ينسوها لك . وأخيراً يا سيدى الرئيس جاء دور المصل الملوث الذى أصررت بكبرياء على استعماله . فلتعلم أن أهالى هؤلاء الأطفال قد أقسموا على قتلك يا دكتور ، وتأكد أنهم قادرون على ذلك فالفدائيون يستطيعون أن يصلوا إليك وأنت فى حجرة نومك ولن تهتم إسرائيل أبداً بما يحدث لك .

وهنا خرج الطبيب من عيادتى متلفتاً خائفاً . وطلب نقله فى نفس اليوم من قطاع غزة ، فحضر بدله الطبيب الفرنسى الدكتور « يوبيه » .

إلى طابور الإعدام مرة أخرى

انتشر خبر المصل المسموم والصراع الذى جرى بينى وبين رئيس الأطباء فى جميع معسكرات اللاجئين . وبت أتوقع أن تستدعينى الهيئة للتحقيق وتفصلنى من عملى لتهجمى عليه . . ولكن السلطات الإسرائيليةكانت أسرع . فما أن علمت بالخبر وتفاصيله حتى بادرت إلى العمل . ففى أحد الأيام حضرت سيارة إسرائيلية مصفحة نصف جنزير ، ووقفت أمام باب العيادة ونزل منها أربعة جنود مسلحين بالمدافع الرشاشة وتجمع اللاجئون يريدون معرفة ما يحدث لى ، ولكنى نصحتهم بالتفرق والهدوء حرصاً على سلامتهم . وقلت لهم : إننى فى حماية هيئة الأمم فلن يمسنى اليهود بسوء . وطلب منى الجنود أن أتوجه معهم إلى مكتب الحاكم اليهودى العام . وكانت هذه أول مرة فى حياتى أركب فيها سيارة حربية مصفحة . وحولى هذا العدد من الأسلحة والجنود . وكانت السيارة من طراز عتيق جداً وقد علاها الصدأ من داخلها . أما الجنود فكانت ملابسهم قذرة وعتيقة ومدافعهم الرشاشة مربوطة بخرق بالية . ودخلت على المستر جاعون فوقف يستقبلنى بحرارة . ثم قال مبتسماً :

– يا دكتور . . إننى كنت أود أن أعتبرك صديقاً شخصياً لى بعد أن وجدت أننا منسجمين فى الميول والعادات . . وفى الهوايات . لكن لا تأتينى من ورائك دائماً إلا المتاعب . قلت :

– أى متاعب يا سيادة الحاكم ؟

قال :

– إنك تتصرف كأنك زعيم سياسى لا طبيب وجراح . وقد كثرت لدى التقارير عنك وكثرت أيضاً تقاريرك عنا . ويبدو منها أنك دائم التشنيع علينا والإساءة إلى سمعتنا . وعلى كل حال فقد خرج الأمر من يدى وأصبح فى يد المحقق .

وخرجت من مكتبه وأخذونى إلى المحقق وهو يهودى يمنى الأصل ، وكان هذا الضابط المحقق صغير الجسم جداً حاد النظرات مقوس الأنف والظهر . . فهو فى الحقيقة أقرب مثّل إلى اليهودى الذى ترسمه المجلات العربية (بالكاريكتور) أو إلى الصورة الشاعرية التى كتبها شكسبير عن اليهودى شيلوك .

وفوجئت بالمحقق يوجه إلىّ تهماً غريبة ليست لها صلة بالموضوع الذى توقعته . كانت التهمة الأولى إننى أتصل بالفدائيين وأعالجهم بالمستوصف . والثانية هى إثارة اللاجئين فى المعسكر وتحريض التلاميذ والمدرسين على الامتناع عن الدراسة . والثالثة هى التشنيع على إسرائيل . ثم قال :

- وباختصار إن تهمتك أنك فدائى .

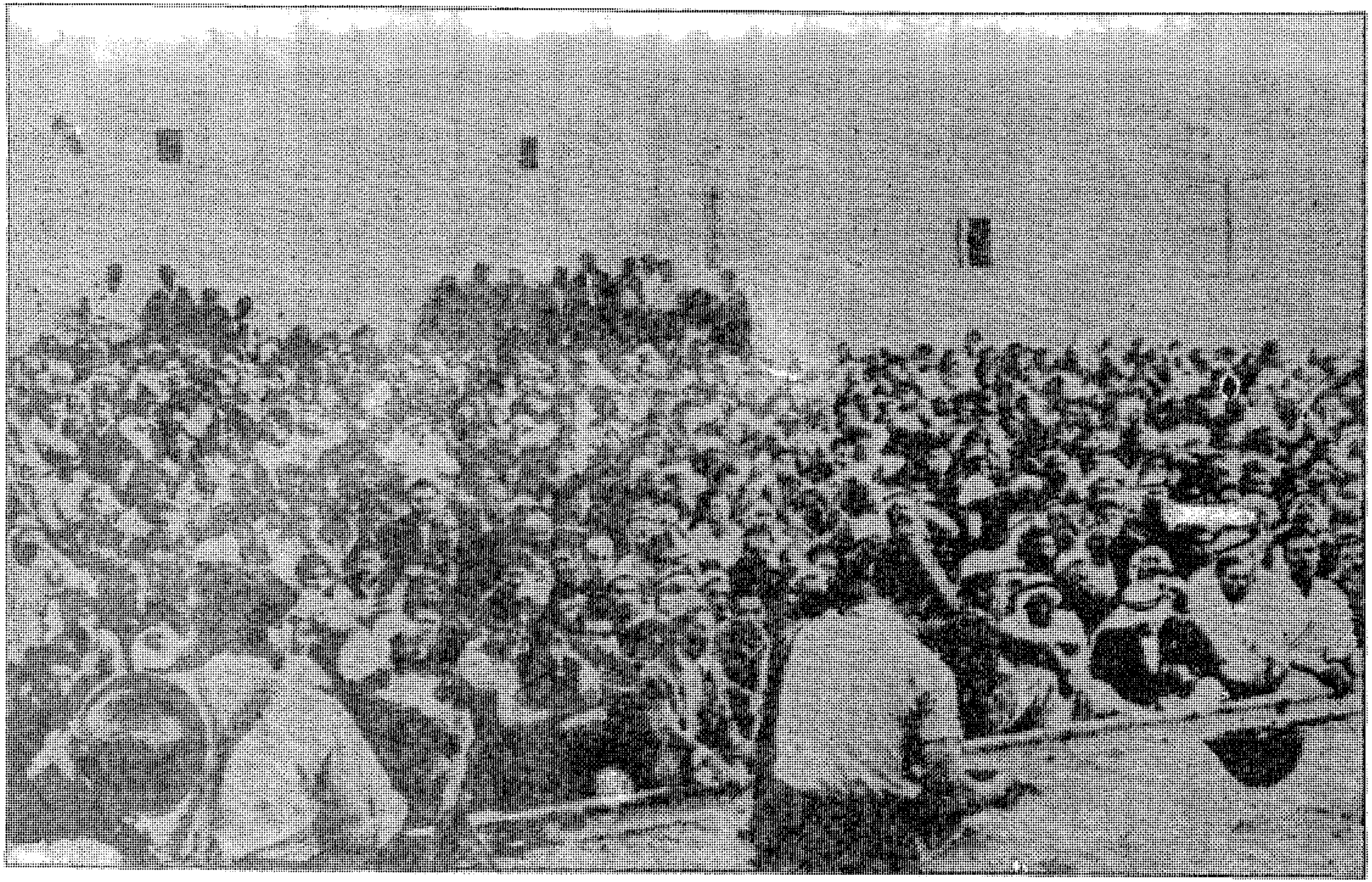
ولم يمهلنى ذلك المحقق المجنون لكى أنطق بكلمة واحدة ، ولكنه بعد أن تلا علىّ هذه التهم ، قال مباشرة :

- أرى أنك لن تستطيع الدفاع عن نفسك ، وعليك أن تتحمل تبعة أعمالك .

وخرجت من حجرته دون أن أتكلم فأخذونى إلى السجن . وكانت هذه هى المرة السابعة التى أدخل فيها السجن خلال حكم إسرائيل الذى دام خمسة أشهر ، وأمضيت فى السجن هذه المرة أسبوعاً لم أذق فيه طعم النوم ، وكان طعامنا عبارة عن علب العدس المغلقة التى تركها الجيش المصرى فى العريش . ولم يكن معنا شىء لفتحها فكنا نحك العلبة فى الحائط الخرسانى حتى يتآكل الغلاف ونفتحه .

وكان ما خفف على نفسى أنهم أحضروا رئيس الأطباء العرب حيث قضى معى ليلتين ، وكانت تهمة اللواء الدكتور / محمود أمين المصرى ، أنه قد ساعد أحد الفدائيين المجروحين بالمستشفى على الهرب بعد شفائه . وعندما خرج الدكتور أمين من السجن عاد إلى قلبى الانقباض . . ولكن زال همى بعد ذلك عندما وجدت بعض زملائى يتوافدون معى إلى السجن وأولهم الطبيب اليونانى « الياس أصلاننيدس » . ثم الدكتور عبد الحميد جنينه ، ثم عدد لا بأس به من الأصدقاء ، منهم المدرسون والقضاة والموظفون ، وبعد أن انقضى هذا الأسبوع التعس فى السجن ، أخذنا اليهود فى سيارات أتوبيس عبر حدود إسرائيل إلى صحراء النقب حتى وصلنا مكاناً نائياً لا زرع فيه ولا ماء . وأنزلنا جنود إسرائيل وأخذوا يقيمون حولنا الأسلاك الشائكة وينصبون الخيام . ثم صفونا على الأرض صفوفاً متوالية . وظللنا جالسين فى الشمس وهم يفحصون أوراقنا ويتحققون من شخصياتنا ويقسموننا إلى مجموعات متجانسة ومتشابهة . ويستولون على كل ما معنا من نقود وساعات وأقلام وجميع أوراقنا الشخصية وجوازات السفر . ثم يسلمون كلاً منا ورقة فيها كتابة بالعبرية . . قالوا إنها وصل بما أخذوه منا حتى يرد إلينا بعد الانتهاء من فحصها . وطبعاً لم أفهم ما هو مكتوب فى الورقة . ولم يكن لدينا أمل فى أن نسترد شيئاً منهم .

وظللنا كذلك فى الشمس الحارقة بدون قطرة ماء حتى أغمى على البعض من العطش وضربة الشمس . وظلت السيارات تتوالى وتجلب المزيد من الرجال بين سن ١٥ حتى سن ٦٠ من أهالى غزة ، وقد قدرت عددنا بحوالى ألفين . . وكلما طلبنا منهم ماء سخروا منا وقالوا :



جنود إسرائيل هم يصوبون مدافعهم الرشاشة نحو الأهالي العزل . وقد جمعوا كل الرجال من سن ١٢ حتى سن ٦٠

- إنكم فى مكان لا يوجد فه زرع ولا مـــاء ولا طعـــام . ولكنـــكم سترتاحون بعد قليل !!

وبينما أنا جالس اقترب منى شاب فلسطينى فى الـ ١٨ من عمره وقال لى : « هل تذكرنى يا دكتور . أنا جابر ! ولما لاحظ الشاب أننى لم أتذكره كشف عن ساق خشبية وقال : لقد أنقذت حياتى وقمت بعملية بتر لهذه الساق . وكان هذا الشاب قد أصيب يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩٥٥ فى حادث ضرب مدينة غزة بمدافع المورتر ، وهى المذبحة التى تحدثت عنها فى بداية هذا الكتاب .

وأخذ الضباط الإسرائيليون يفحصون أوراق كل فرد ويقسموننا إلى فئات حسب العمر والعمل والمقدرة على حمل السلاح . وفى آخر النهار ابتدأوا ينادون على أسماء معينة حسب الكشوف التى أعدوها من بطاقات الهوية ، وأمروهم بركوب السيارات مرة أخرى حيث حملتهم السيارات إلى مكان مجهول . وجاء الشاب جابر إلى جوارى وهمس فى أذنى :

- أتعلم يا حكيم مصير هؤلاء ؟ تأكد أنهم سوف يضعونهم فى طوابير الأعدام بعد أن يجبروهم على حفر قبورهم بأيديهم . ولن يعودوا أبداً .

فقلت له غاضباً :

- أعوذ بالله من كلامك هذا . . إننا فى القرن العشرين والعالم كله آذان وعيون متفتحة . ولا يمكن أن تحدث هذه المذبحة فى عصرنا هذا فى غفلة عن العالم !!

فقال :

- يا حكيم . . هذا هو ما حدث فى حرب سنة ٤٨ عندما كنا فى دير ياسين وراح ضحيتها أبى وعمى . فهو أسلوبهم فى كل حرب .

فقلت له :

- إياك يا جابر أن تشيع هذا الكلام حتى لا تحطم معنويات الآخرين .

وبعد قليل جاءت السيارات مرة أخرى وهى فارغة . . وأخذوا ينادون على دفعة جديدة . . وإذا بينهم الشاب جابر . فقلت للضابط الإسرائيلى :

- هذا الشاب كسيح ومعوق وبرجل واحدة . .

فإذا به يصيح فى وجهى بالعبرية ودفعنى فى صدرى بمؤخرة البندقية دفعة أوقعتنى على الأرض .

وسحب الشاب المعوق من ذراعه ودفعه فى السيارة ولم أره بعد ذلك !!

وعندما خيم الليل قسمنا اليهود إلى جماعات كل مجموعة من ٣٠ شخصاً . . وحشروهم فى خيمة واحدة . . وطوال الليل كنت أسمع الصراخ وطلقات النار . . وتعود السيارات ليشحنوا فيها مجموعة جديدة . . والخيمة التى تفرغ كانوا يهدمونها مباشرة . وطبعاً لم يغمض لى جفن . فقد كنا محشورين فى الخيمة وأكثرنا لا يجد مكاناً لقدمه أو رأسه . وقد كتمت أنفاسنا من الزحام . ومع ذلك فقد نام بعض الزملاء الأسرى وهم واقفون من شدة الإرهاق وعلا شخيرهم وسط أصواط البنادق .

وأشرقت الشمس فتوقف إطلاق النار . ثم مر علينا الجنود وكأنما يقولون : صباح الخير أيها الأحياء . لقد كتب لكم العمر لساعات أخرى !!

أخذ الجنود يعيدون عملية الفرز للمرة الألف ، وكان من تبقى منا لا يزيد عن نصف العدد الأصلى . ووقف ضابط المخيم يعلن أن إسرائيل سوف تعترف بنا كأسرى حرب . . وأننا سوف ننقل إلى معسكر الاعتقال فى عتليت وسوف نكون تحت إشراف الأمم المتحدة ونتناول طعاماً وشراباً وسجائر . . وأمرنا بالتوجه إلى السيارات التى سوف تنقلنا إلى المعسكر شمالى عكا . ولاشك أن القارىء سوف يتساءل كما تساءلنا نحن فى أنفسنا عما حدث للآخرين . . لتسمح لي أن أقطع تسلسل الأحداث . وأن أقفز إلى ما حدث لهم لأروى قصة طواير الإعدام .

قصة طوابير الإعدام

يوم ٧ مارس سنة ١٩٥٧ . . يوم لا أنساه مدى العمر لأنه يوم عيد بلادى . . وقد تم فيه انسحاب إسرائيل من غزة وانتهاء العدوان الثلاثى . . وخرج أهالى غزة لأول مرة بعد العدوان الإسرائيلى فرحين مهللين . كان ذلك اليوم عيداً بعد ما قاسوه من العذاب والحرمان وأنهار الدم .

وقد ظلت المظاهرات تخرج كل يوم ، وازدحمت الشوارع كأنها فى يوم الحشر . ولأول مرة فى تاريخ المدنية يخرج النساء والرجال والأطفال معاً ، حتى الأمهات والآباء الذين ذهب أبناؤهم ولم يعودا ، خرجوا هم أيضاً يزغردون ويرقصون فى الطريق . وكان عدد الشباب المتغيبين لا يقل عن ألف بين تلميذ مدرسة أو مدرس أو عامل أو مزارع أو موظف . وكان الأمل يداعب أهاليهم بأنهم لابد عائدون . . كانوا إذا سألوا الحاكم الإسرائيلى فى غزة عنهم يدعى عدم علم إسرائيل بأى شىء عنهم . . وأنهم ربما هربوا إلى الأردن . . أو ضالين فى الفيحاء مع البدو . .



مئات الجثث التى جرفتها السيول حتى حدود غزة . فكشف الله الجريمة البشعة التى حرصت إسرائيل على إخفائها ونرى آثار التعذيب والضرب على الجماجم المحطمة والأذرع المكسورة .



أهالى المفقودين فى قطاع غزة .. وقد تجمعت كل أسرة تبحث فى هذه الأشلاء المتعفنة عن ابنها أو أخيها أو أبيها ..



الأم العجوز .. وقد جاءت تبحث فى هذه الأشلاء عن ابنها وأخوتها حيث أخذ اليهود جميع رجال الأسرة ولم يعودوا إلا أشلاء ممزقة



هذه هي الرجل التي كشفت عن هوية القتلى وقد أمسك بها الطبيب الشرعي

وبعد بضعة أيام من العوطف المختلطة من الأمل واليأس والفرح والخوف . . والأمان والقلق . . أراد الله أن يكشف سر المذبحة .

فقــد هطل فى ذلك اليـوم مطر غزير . . لـم يسبق لغـزة أن رأت له مثـيلاً منذ مـئات السنين . . وظل الناس تحت الأمطار الغزيرة يحتفلون بيوم الخلاص . . وامتلأ وادى غزة بالمطر . . وأخذت السـيول تنساب من داخل حدود إسرائيل إلى هـذا الوادى العـميق . . ولاحظ البدو أن السيول ابتدأت تجرف معها بعض الجثث نحو غزة . . وتكاثرت الجثث حتى أصبحت بالمئات . . وكلها قد تعفنت وضاعت معالمها بحيث أصبح من العسير معرفة أصحابها أو جنسيتهم . وكنت إذ ذاك فى المستشفى فى غزة عندما أبلغنى مسئول فى هيئة الأمم بالخبـر وطلب منى التـوجه إلى الموقع خـوفاً من انـتشـار الأوبئة من الجثث المتعـفنة . وأخذت معى فى سيارة الهيئة الطبيب الشرعى ومصور صحفى إلى جانب كاميرا استعرتها من صديق أجنبى ، لأن اليهود كانوا قد سرقوا كل أجهزتى .

وكـان أهالى المفقـودين قد سبقـونا للبحث عن أبنائهم وآبائهم وإخوانهم . . وكـانوا يغطون أنوفهم وأفواههم بالمناديل من الروائح العفنة . . وكان من الصعب علىّ أن أتحقق من شخصيات القتلى .

فـمن قـائل أنهم قـتلى من الجيش الإسـرائيلى . . ومن قـائل أنهم من جنود الجـيش المصرى . . ومن قائل أنهم شباب قطاع غزة الذين مازالوا غائبين منذ أن جمعهم اليهود يوم دخولهم . .

وأخذت أفحص الجثث مع الطبيب الشرعى . . فإذا بهم جميعاً قد تعرضوا لتعذيب وحشى قبل قتلهم . . فقد كانت الأذرع مكسورة أو كسـور فى الأرجـل أو فى الضـلوع أو فى الجماجم . وكان بعضهم مربوط اليدين أو الرجلين . وكان عـددهم ما بين ٧٠٠ إلى ألف جثة .

وفجأة بينما نحن نبحث ونصور فى هدوء . . إذ انطلقت صرخة أم عجـوز تقول : « هذا ابنى جابر » !!

وكـانت تمسك فى يدها برجـل خـشـبـيـة . . وتجـمّع حـولهـا النسـاء والأمـهـات والأخـوات ، فـقـد عرفـن القـتيل من هذه الرجل . . وكـانت نساء الحارة التى يسكن فيـها

عندما حدث الاحتلال الإسرائيلى قد طلبن من جابر أن يخبىء مصاغهن فى رجله الخشبية . فلن يجدن مكاناً آمناً من أيدى الجنود الصهاينة إلا هذا المكان . وفتحت النسوة الرجل الخشبية فوجدت كل واحدة منهن مصاغها بداخلها .

وبذلك وحده تأكد لهن جميعا أن هذه الجثة للشاب الصغير جابر الذى تعرض لمذبحة بشعة وهمجية من جيش إسرائيل فى حرب سنة ٥٦ بنفس الطريقة التى قتلوا بها أباه وعمه من قبل فى حرب سنة ٤٨ ، وأخذت أصور الرجل الخشبية وهى يد الأم وأصور الجثث وأصور كل الأمهات الثكالى وقد تحول فرحهن بخروج اليهود من غزة إلى صراخ وعويل . . بعد أن تأكد للجميع أن هذه جثث أبنائهن وآبائهن وإخوانهن الذين أخذهم اليهود من بيتهم . . وعادوا أشلاءممزقة .

ولقد رأيت بين هذه الجثث ملابس وأحذية لجنود وضباط من أسرى الحرب المصريين . . كما شاهدت جثثاً لأطفال لا يزيدون عن الثانية عشر من عمرهم ، وأخرى لعواجيز فى الستين ، فلم يرحموا صغيراً ولا كبيراً ، ولا مدنياً أو عسكرياً .

ولا يفوتنى هنا أن أذكر ما قالته لى هذه الأم المسكينة فيما بعد من أن عائلة (أبو راس) وحدها كان لها بين هؤلاء القتلى ٢٦ شخصاً من نفس العائلة ، فقد أباد اليهود العائلة كلها تقريباً عدا النساء .

وقال لى الأهالى أن من بين هذه الجثث الكثير من معارفى الشخصيين والذين كنت أعالجهم . منهم رمضان الخطيب ، وعبد الله محمد دغش ، وأحمد جودة ، ومصطفى غنيم ، وحسن عبد الله حموده ، ومحمود أبو نصار ، وفؤاد العالى ، ونصحى العالى ، ومعظم أفراد أسرة (أبو راس) وأسرة اللبابيدى . وغيرهم كثيرون . .

وبينما أنا فى هذا الموقف المفجع أخذت أتذكر المحاضرات المطولة التى كان يلقيها علينا الضباط الإسرائيليون كل يوم فى معسكر الاعتقال ، أو أثناء زيارتهم لى فى مستشفى غزة . . كان كل حديثهم عن آداب الحرب ، وأنهم يراعون حرمة الأحياء والموتى . . وأنهم لا يقتلون مدنياً ولا يشوهون جثة ولا يعدمون أسيراً . . وكانوا يعيبون على الفدائيين العرب أنهم يفعلون ذلك . . ويشاء الله أن يفضح أمرهم ويكشف سرهم الذى كانوا يخفونه عن العالم مدعين أنهم شعب متحضر غير همجى ، وأن خصومهم العرب هم الهمج وهم القساة ، ، وصدق من قال (ضربنى وبكى وسبقنى وا شتكى) .

معتقل عتليت

أعود بك أيها القارىء الكريم إلى ما حدث لنا نحن الباقين على قيد الحياة . فقد جمعنا اليهود فى سيارات أخذت تعبر بنا مدن إسرائيل . . مررنا بيافا وتل أبيب ثم حيفا ثم عكا ، وأخيراًوصلنا إلى عتليت شمالى عكا . وفى كل مدينة نصل إليها كانوا يوقفون السيارات فى الميادين . ثم ينادون على السكان بالعبرية قائلين : « لقد اعتقلنا الفدائيين فتعالوا لتتفرجوا عليهم » . ولم يكن فينا فدائى واحد . وكان الجميع عبارة عن مجموعة من الأطباء والمحامين والقضاة ومدرسى المدارس . بل لقد بلغت أحقادهم أنهم اعتقلوا معنا جميع مرضى مستشفى السل وكان أكثرهم يسعل من الارهاق ويبصق دماً . وقد تأكد لى أن اليهود قد تعمدوا اعتقالهم معنا وحشرهم مع باقى المعتقلين فى العنابر العتيقة والخيام المزدحمة بقصد نشر السل بين العرب جميعهم . وما أن وصلنا إلى عكا حتى وجدنا أهاليها فى حالة هياج شديد بسبب الدمار الذى حل ببيوتهم ومدنهم من البارجة إبراهيم التى ظلت تضربهم ساعتين متواليتين دون مقاومة تذكر . وكاد أهل عكا من الغضب والحقد أن يقلبوا بنا السيارات أ ويشعلوا النار فيها لولا تدخل الجنود . فأخذوا من أحقادهم يرجموننا بالأحجار .

وأخيراً وصلنا إلى عتليت حيث معتقل الأسرى الشهير . . وكان هذا المعسكر قد أنشأته القيادة البريطانية لجنودها فى الحرب العظمى الثانية . ثم سلموه لقوات الهجاناه والعصابات اليهودية لكى تتدرب فيه على أعمال حرب العصابات . وكنت أستطيع أ ن أقرأ أسماءهم وذكرياتهم مكتوبة على الجدران بلغات مختلفة منها الفرنسية والإنجليزية والروسية والألمانية والعبرية . ولن أحدثك كثيراً عما رأيته من الأهوال فى هذا المعتقل . لقد كنا ننام على البلاط فى جو تبلغ حرارته فى بعض الليالى صفراً . . وكانت الأمطار تسقط فوق العنابر فتحدث على الصفيح دوياً مهولاً ثم تنساب السيول تحتنا ونحن نيام . وكان اليهود قد سلمونا بطانية واحدة لكل فرد منا يضع نصفها فوقه ونصفها تحته . أما الطعام فلم يزد عن صحن صغير من الخضار وقطعة من الخبز اليابس . لم يكن هناك دواء لهذا العدد الكبير الذين جمعوهم من بيوتهم ومن مخيمات اللاجئين لكى يدعوا أمام شعبهم أنهم قد اعتقلوا جميع الفدائيين وأن العدوان قد أثمرت نتائجه . واستمر بنا الحال فى هذا المعتقل شهراً كاملاً . وفى أحد الأيام مر بنا ضابط العنبر وقال أن مندوب الصليب الأحمر سوف يزورنا وأننا نستطيع أن نكتب أى رسالة ونسلمها إليه لكى يوصلها إلى

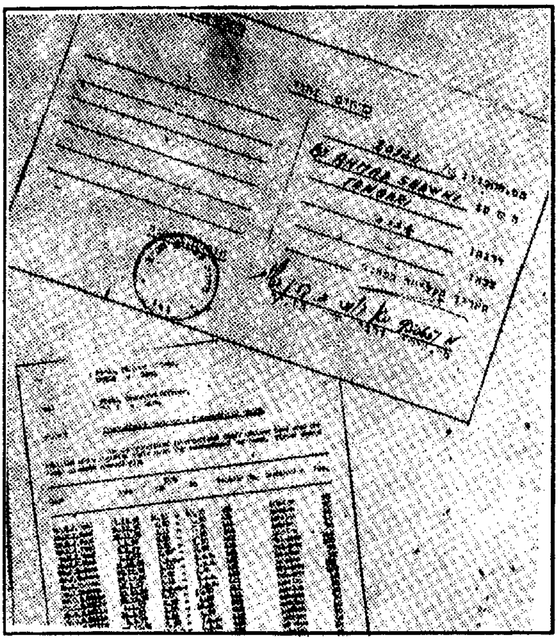
أهالينا فى مصر . وما أن خرج الضابط اليهودى حتى حضر صديق فلسطينى من الذين عاشروا اليهود فى فلسطين وخبروا خداعهم وطبيعتهم . وأخذ الصديق يحذرنا من مندوب الصليب هذا فقد يكون مزيفاً أو يكون ضابط مخابرات يهودى . وأخذنا نتباحث معاً فيما يجب أن نفعله . ثم قررنا أن نتعامل معه ولكن بحذر شديد سواء فى الكلام أم فى كتابة الخطابات . وجاء مندوب الصليب فأخذنا نشكو إليه من سوء المعاملة فى المعتقل . ومن نقص الأغذية والغذاء . ولاحظنا أنه قد أخذ يدافع عن إسرائيل قائلاً : « لا تنسوا أنكم مدنيون . والمدنى لا يخضع لمعاهدات أسرى الحرب » . وهنا بادرت بالرد عليه قائلاً : « إذا كنت تعرف أننا مدنيون. وإسرائيل أيضاً تعرف ذلك فعلام تبقونا فى معتقل أسرى الحرب » . فقال ضاحكاً :

- هذه حقيقة عليكم أنتم أن تثبتوها للسلطات الإسرائيلية حتى أطلب منها الإفراج عنكم . فإسرائيل تعتقد أن بينكم فدائيون . فلتبلغوا عنهم حتى تعودوا بسرعة إلى أهاليكم » .

وهنا تكشفت لنا المناورة وكاد أكثرنا أن يسحب منه رسائلنا لولا أنها لم تكن تحوى شيئاً هاماً أو معلومات تفيد إسرائيل .

وفى صباح اليوم التالى مباشرة ، مر بنا الضباط اليهود يبشروننا بقرب العودة إلى غزة . وقالوا إن كل فرد منا سوف يمر على لجنة من ضباط المخابرات الإسرائيلية لكى يتأكدوا من أنه مدنى وليس فدائياً . وجاء دورى ، فما أن دخلت الحجرة حتى وجدت نفسى أصيح من دهشة المفاجأة . لم يكن سر دهشتى إننى وجدت مندوب الصليب الأحمر هو أحد هؤلاء الضباط ، فقد كان ذلك أمراً نتوقعه جميعاً . ولكن كان سر دهشتى إننى وجدت نفسى أقف وجهاً لوجه مع ذلك الرجل الذى كان يعيش فى غزة على أنه صحفى عربى . فإذا به يهودى وضابط فى مخابرات إسرائيل . فقد كان ذلك الرجل يعيش فى غزة منذ مدة طويلة قبل العدوان وكانت له صداقات كثيرة مع الأهالى منتحلاً صفة الصحفى العربى . وكثيراً ما كنت أراه جالساً على المقهى يدخن الأرجيلة (الشيشة) ويتناقش فى السياسة ، وبهذه الطريقة كان يتسمع الأخبار دون أن يفطن إليه أحد ويتجسس على الفدائيين ، كما سبق أن فصلت من قبل .

وهكذا خرجت من حجرة الضابط أسب وألعن . واتجهنا نحو مركز الخروج حيث بدأوا يسلموننا الأمانات التى تسلموها منا قبل دخول المعتقل . وفى الحقيقة إن كلمة



- بطاقة الاعتقال فى معتقل عتليت شمالى عكا . وقد كتب عليها اسم الطبيب دكتور أحمد شوقى الفنجرى والمهنة طبيب أى أنهم كانوا يعرفون عمله ومهنته مع ذلك أخذوه إلى المعتقل كفدائى .

الأمانات مظلومة هنا فى هذا المجال ، إذ أن إسرائيل لا تعرف ما هى الأمانة . فقد استولى الضباط والجنود على كل ممتلكاتنا واشتروا بدلاً منها أشياء رمزية رخيصة لكى يسلموها لنا بدلاً من حاجاتنا . فساعتى الرولكس الثمينة والقلم الحبر الباركر قد بُدّلَ إلى قلم حبر صينى من فئة العشرة قروش ، ولما جاء دور النقد وضعت يدى على قلبى . فقد سلمتهم كل ما وفرته من رواتبى وهو مبلغ ثلاثمائة جنيهاً . وقررت أن لا أتهاون فى مسألة النقود ، وكانوا قد سلمونى بها إيصالاً باللغة العبرية لم أفهم ما كتب فيه . وقدمت الإيصال إلى الضابط فإذا به يسلمنى ثلاثين جنيهاً . فصحت فى وجهه منفعلاً بالفرنسية . وقلت له :

– بدلتم الساعة وسكت . وبدلتم القلم الحبر ورضيت . أما النقود فلن أسكت عنها . وأرجو أن تسمح لى بالشكوى إلى قائد المعتقل !!!

وفوجئت بالضابط يقول فى أدب زائد :

– معك حق . فلتنتظر إلى غد عندما يحضر قائد المعتقل لتشكو إليه . وهنا أسقط فى يدى . فبقائى فى هذا المعتقل ساعة واحدة وحدى بعد رحيل زملائى قد يذهب بعقلى . وحريتى أثمن من كل ما أمتلك ولو كانت كنوز الأرض . ونظرت حولى فإذا جميع زملائى يشيرون إلىّ بألا أعاند مع سجان ماكر لا تعييه الحيل . وكانت حالى أخف من كثيرين غيرى . فرضيت بالأمر الواقع وركبت السيارة .

مرت بنا السيارات من جديد فى طريق قريب من ساحل البحر . وكنا كلما مررنا بمعسكر حربى نادى علينا الجنود بلغة عربية ركيكة « سكرى إينك » أى أغمض عينيك . وكنا نرى الفلاحات الإسرائيليات بالملابس العسكرية والبنطلون القصير وعلى أكتافهن المدفع الرشاش وكل منهن تسوق (التركتور) لحرث الحقول . وكانت معظم شوارع المدن خالية من الناس . فجميع شعب إسرائيل هو الجيش الذى يقف على الحدود . ومررنا فى طريقنا من جديد بعكا وتل أبيب ويافا وحيفا ثم وصلنا إلى غزة .

ولم أصدق بأننى حي حقاً إلا عندما وقفت فى عيادتى من جديد . بين مرضاى الطيبين الحافظين المعروف الذين لا يعرفون الخسة ولا الخديعة ولا المكر ولا يضمرون الأحقاد ولا الضغينة لأحد لأنهم عرب .

الفدائيــــون

فى إحدى تلك الليالى الرهيبة التى كانت تمر بنا فى أوائل حكم إسرائيل ، وكان التجول محظوراً بعد غروب الشمس حتى مطلع النهار ، جلست فى بيتى أجمع ملابسى ، فقد أمرنى اليهود بإخلاء البيت والسكن فى المستوصف بحجة أنهم سيقومون بإسكان بعض العائلات اليهودية فيه . وكنت فى تلك اللحظة استمع إلى إذاعة صوت العرب ونشرات الأخبار . وبينما أنا كذلك ، إذ سمعت نقراً خفيفاً على زجاج النافذة الخلفية للبيت . وبادرت بإغلاق الراديو وإخفائه تحت الفراش ، لأن الاستماع إلى صوت العرب كان تهمة . كما أن امتلاك الراديو كان مغرياً بنهب البيت كله . وقمت أتوجس الشر من هذا القادم . فلابد أنه دوريةإسرائيلية تريد التفتيش أو تريد السلب والنهب . وكنت فى تلك الأيام السوداء أتوقع فى كل حظة من لحظات الليل مصيبة أو حدثاً خطيراً . . وقمت فى حذر أنظر من النافذة فوجدت فى حديقة البيت شبحاً يحمل كيساً ملفوفاً . . ودققت النظر فى الشبح فوجدته يلبس ملابس جندى إسرائيلى . . ووقفت متردداً فيما أفعله . . فلو كان هذا الجندى من جنود الدورية الليلية لجاء من الباب الأمامى وربما اقتحمه بالقوة أو حطمه إذا تأخرت عن فتحه . . أما هذه الطريقة المريبة والنقر الخفيف على زجاج النافذة فهو ما حيرنى أكثر وأشد . . ومرت الدقائق والجندى واقف فى مكانه بالحديقة وسلاحه على كتفه . ثم عاد ينقر زجاج النافذة من جديد . . وسمعته يهمس بصوت منخفض جداً . . ففتحت النافذة قليلاً لأسمع ما يقول . . فإذا به يتكلم العربية ويقول :

– افتح يا حكيم . . أنا حسن .

فقلت بتعجب : حسن . . حسن من ؟

فاقترب من النافذة حتى رأيت وجهه فى النور ، خيل إلىّ إننى أعرفه ولكنى لم أتذكره . .

استطرد الرجل قائلاً ، وقد رفع القبعة من فوق رأسه :

– أنا حسن الذى عالجته وأنقذته من الشلل . . هل تذكرنى الآن يا حكيم . إننا نحن البدو لا ننسى المعروف . . وأنا أعرف أن أهلك ليسوا عندك ولابد أنك بحاجة إلى طعام . . وقد أحضرت لك هذا الديك المذبوح هدية منى فأرجو أن تقبلها .

وتذكرت فى تلك اللحظة من هو حسن . . فقلت له من فورى :

– هل أنت الآن فى جيش إسرائيل يا حسن . . ما هذه الملابس التى تلبسها ؟

فقال حسن بهدوء :

– أنا فدائى يا حكيم . . وهذا هو ملبسى منذ دخلت إسرائيل غزة فهو آمن من أى ملبس آخر .

قلت :

– ولكن هل مشيت يا حسن عشرة كيلومترات على قدميك من المعسكر إلى غزة لكى تحضر إلىّ بهذه الهدية وأثناء منع التجول . . ألا تخشى على حياتك ؟

فقال مبتسماً :

– إننى أمشى المسافة من غزة إلى الأردن فى ليلة واحدة لكى أوصل رسالة ، فكيف لا أمشى عشرة كيلو من أجلك . . وأرجوك يا طبيب إذا كنت تريد إرسال رسالة إلى أهلك فى القاهرة أن تعطيها لى الآن فسوف أودعها فى البريد بالأردن . . وكانت هذه أمنيتى . . أن أبلغ أهلى وأطمئنهم إلى إننى حي أرزق . . وقمت فى طمأنينة وثقة فى حسن وأعطيته رسالتى . وعزمت عليه بالدخول ولكنه رفض حرصاً على سلامتى . وأصر على العودة فى الحال من حيث أتى . . وهكذا اختفى حسن فى ظلام الليل كما جاء .

قصة حسن الفدائى هى إحدى القصص التى يجب أن تروى بعناية ويعرف تفاصيلها كل مواطن عربى . . وذلك لأنها لا تمثل حياة فرد واحد من اللاجئين ، بل تمثل حياة شعب بأسره . . تمثل المحنة التى يعيش فيها هذا الشعب على الحدود مع الجوع والحرمان . . وتمثل الهمة العربية والطاقة الكامنة فيه تنتظر من يحسن توجيهها لمعركة المصير .

كانت أول مرة أرى فيها حسن قبل الاحتلال بعامين . . فقد لاحظت شاباً نحيلاً يرقد بجوار باب العيادة التى أعمل بها فى أحد معسكرات اللاجئين . وتكرر هذا المنظر فى الأيام التالية وكنت أراه يستجدى الناس وقد علته الأوساخ وتجمع من حوله الذباب . وأخيراً قررت أن أبعده عن المنطقة حرصاً على النظافة والمظهر ، واتجهت إليه قائلاً :

- ألا تستطيع الذهاب إلى مكان آخر للشحاذة غير باب المستوصف ؟

فقال بصوت ضعيف :

- داوينى يا حكيم وأنا ابتعد عنك . . فأنا كسيح .

وصدمتنى كلماته فوقفت أتأمل وجهه . . وإذا كان القارىء طبيباً أو كان يعيش فى الريف المصرى فلابد أنه قد رأى مرض « البلاجرا » . . إنه المرض الوحيد الذى إذا أصيب به أى إنسان فى أى مجتمع فسوف يحكم على هذا المجتمع بأنه مجتمع تعيس فقير ، أو أنه مجتمع ظالم لا عدالة فيه ولا تراحم . . والسبب فى هذا أن ذلك الداء ليس مرضاً ولا ميكروباً يصيب الإنسان . . ولكن إصابته تنتج عن سبب واحد هو الجوع . والحرمان من التغذية أو سوء التغذية إنه مرض البلاجرا . . وهذ المرض فى أشد صوره وأخطرها يؤدى إلى الكساح . . وأما علاجه فهو التغذية أساساً . ولقد شعرت بالتعاسة والألم إذ يصيب هذا المرض المؤسف شاباً فى العشرين من عمره كان من الممكن أن ينفع نفسه ووطنه لو احتفظ بصحته . . حقيقة أن هيئة الإغاثة توزع على كل لاجىء طعامه اليومى . ولكن هذا الطعام ليس غذاءً كاملاً . . إنه مجرد إعانة أو معونة غذائية يأخذها اللاجىء إلى جانب ما يشتريه من ماله من الأغذية . . وأكثر هؤلاء اللاجئين لهم أقارب يعملون فى البلاد العربية مثل الكويت وليبيا ، بل منهم من لهم أقارب مهاجرون إلى أميركا والبرازيل وكندا . . وهؤلاء يرسلون لهم معونات مستديمة . ولولاها لأصيبوا بمرض سوء التغذية جميعهم كصاحبنا هذا . . فهيئة الأمم تقدم إلى كل لاجىء الدقيق كغذاء أساسى ، وتقدم للأطفال وجبة من الحليب . . ولا تشمل تغذية الهيئة اللحوم والبيض والسمك والفواكه ، وهى مواد ضررية ، لما تحويه من البروتينات والفيتامينات . . ومن المعروف أن الإنسان العادى يحتاج إلى مواد تعطيه طاقة حرارية قدرها ٢٤٠٠ سعراً . . فى حين أن هيئة الأمم لا تقدم إلى اللاجىء أكثر من ٩٠٠ سعر حرارى فى اليوم . . فهو يتسلم كل شهر ١٠ كيلو من دقيق القمح و ٦٠٠ جراماً من السكر و ٤٠٠ جراماً من السمن النباتى ٤٠٠ جراماً من

البقول الجافة . وهذه المواد تعادل غذاءً يومياً يتكون من رغيفين من الخبز وملعقة واحدة من السكر وملعقة صغيرة من الدهن . وإذا كان هذا الطعام كافياً لكى يبقى الإنسان حياًمجرد حياة ، فإنه لا يمكن أن يساعده على التحرك أو التفكير أو العمل .

أعود الآن إلى قصة ذلك الشاب الكسيح حسن . . فقد أمرت بنقله على الحمالة وأخذت أفحصه . . ثم شرعت فى عمل التحليلات والفحوصات اللازمة له . . وكانت النتائج مذهلة وإن كانت مشجعة فى قت واحد . . وأثبتت الأشعة أنه خالى من مرض السل ، وهذا كان أكثر ما يهمنى ، لأن سوءالتغذية يؤدى غالباً إلى مرض السل ، وهو مرض شديد الانتشار بين اللاجئين والفتك بهم وبأطفالهم الصغار . . ولكن فحص الدم أثبت أن نسبة الهيموجلوبين فى الدم تقل عن ٣٠ ٪وهى نسبة قد تؤدى بأى إنسان عادى إلى الهبوط العام ثم الشلل وربما الجنون . ونقلت حسن بعد ذلك إلى خيمته بسيارة الإسعاف وتعهدت له أن أزوده كل يوم فى مكانه بالعلاج الكامل . . وكتبت له وصفة طبية « بتغذية إضافية » وهذا تعبير يتمناه كل لاجىء ولا يناله إلا فى حالة إصابته بمرض سوء التغذية . وظللت على هذا الحال شهراً كاملاً أزور الشاب الكسيح فى خيمته وأعطيه مجموعة من الحقن المقوية والمنشطة . . وكنت أشعر بسعادة لا توصف وبفخار واعتزاز كلما تحسنت صحته يوماً بعد يوم . . كان شعورى كمن يراقب ابنه وهو يتعلم السير على قدميه لأول مرة . . فقد بدأ الاصفرار يزول من وجهه . . واختفت أعراض « البلاجرا » من جسمه ، وأصبح رويداً رويداً قادراً على التحرك من مكانه لقضاء حاجته . . وكانت فرحة كبيرة لى عندما سار على قدميه لأول مرة حتى وصل إلى العيادة لكى يكمل علاجه هناك . حقيقة لم يحس أحد بذلك كله . . وقد تم فى سكون ودون دعاية ولا كلام ، فهذا هو حق مهنة الطب علينا . . ولكن كانت فى أعماق نفسى ضجة كبيرة وفرحة . بل ثورات وانفعالات عنيفة . . ثورات على إسرائيل وظلم إسرائيل الذى ترك مثل هذا اللاجىء التعس يعانى الجوع والحرمان وهو فى أوج شبابه . . وثورات على الإنسانية الظالمة التى مدت يدها فى شكل هيئة الأمم لكى تواسى جراح هؤلاء المنكوبين التعساء ، فكانت بخيلة مقترة ولم تعطهم ما يكفى لكى يعيشوا حياة الإنسان بل مجرد الحياة . . وفى نفس الوقت كنت أشعر فى قرارة نفسى بهزة فرح وراحة ضمير إلى أننى قد عملت شيئاً مجدياً وساهمت فى تكوين مواطن صالح نافع . . وهكذا لم تنقض بضعة أسابيع على هذا العلاج والتغذية حتى أصبح حسن فى أوج صحته واستعاد طاقاته ونشاطه وأصبح عضواً نافعاً فى المجتمع . . ولم أعد أراه بعد ذلك إلا كالصاروخ يكاد يخترق الأرض تيهاً بمشيته

وصحته ، وكأنما يريد بذلك أن يعوض ما فاته أيام المرض ، وأخيراً ابتدأ حسن يعمل ويكسب فاستغنى عن « بطاقة التغذية الإضافية » .

وما أن شعر حسن بالصحة والقوة حتى تاقت نفسه إلى أن يدفع ضريبة تلك الصحة إلى وطنه المسلوب ، فانضم إلى قوات الفدائيين التى كونها الشهيد مصطفى حافظ فى غزة . . ولمع اسم حسن بعد معركة ضرب غزة بمدافع المورتر سنة ١٩٥٥ ، فقد ساعدته معرفته باللغة العبرية منذ أن كان طفلاً فى فلسطين بأن ينتحل شخصية ضابط البوليس الحربى الإسرائيلى فيوقف أى سيارة عسكرية بحجة التفتيش عن الفدائيين ثم ينقض عليها هو زملاؤه فيرمونها بنيرانهم ويقتلون ركابها . . وجاء العدوان الثلاثى واحتلت إسرائيل غزة فازدادت صلتى بحسن توثقاً . . وبدأ زملاؤه يتوافدون علىّ للعلاج ، فكانت هذه الصداقة بداية مرحلة هامة من حياتى عشت فيها مع قصص البطولة الفدائية ونكران الذات . . قد كان أكثر ما قوى صلتى بالفدائيين أن اليهود أخرجونى من بيتى فى غزة ليسكنوا فيه بعض العائلات اليهودية . . فقد سكنت منذ ذلك الحين فى معسكر جباليا للاجئين فى نفس العيادة التى كنت أعمل فيها . . وبفضل تلك الظروف أصبحت أعيش مع الشباب الفدائى فأحس بمشاعرهم وأداوى جراحهم . . فكنت أعرف قصصهم وأخبارهم قبل أن يعرفها أى إنسان فى العالم العربى ، وأكثر هذه القصص لم يسمع بها أحد حتى اليوم ، لأن إسرائيل من ناحيتها كانت لا تصدر بلاغاً واحداً عن تلك الحوادث ، بل تخفيها عن شعبها ، كما أن الفدائيين لم تكن لهم قيادة معينة ولا إذاعة منظمة ، كما هو الحال بعد نكسة سنة ١٩٦٧ . وسوف يأتى يوم تسجل فيه تلك الأسماء فى سجلات الأبطال والخالدين . . فعيبنا نحن العرب أننا لا نعطى البطل حقه من التقدير إلا إذا مات شهيداً . . وكأن البطولة هى الموت وليست خدمة الوطن والتضحية من أجله .

لقد سألنى الكثيرون من أصدقائى بعد العدوان الثلاثى : « هل حقاً ما تدعيه إسرائيل من أنها قد حققت من العدوان هدفها وهو القضاء على الفدائيين » . وأرد من فورى فى ثقة من لديه الخبر اليقين : لا . . لقد خاب أمل إسرائيل . . ورجعت بخفى حنين . لسببين هامين :

السبب الأول : أن الفدائى الحق لا يقعد فى بيته حتى يصل إليه أعداؤه . . بل إن جميع الفدائيين عندما ابتدأ العدوان الصهيونى على سيناء قد اقتحموا خطوط الهدنة ودخلوا إسرائيل خلف جيشها وأخذوا يهاجمون مؤخرة هذا الجيش ويقطعون خطوط مواصلاته ويزرعون لهم الألغام . ولذلك فعندما سلمت مدينة غزة لم يكن فيها فدائى واحد .

والسبب الثانى : هو إصرار أهل غزة ، وخصوصاً فى معسكرات اللاجئين على عدم التعاون مع اليهود ولو كلفهم ذلك أرواحهم . . فاللاجئون العرب يعيشون فى معسكراتهم فى حالة من الحرمان والظلم تجعلهم يشتهون الموت . . واليائس من الحياة يصبح دائماً أخطر وأشد صلابة من المتهافت على العيش . . ولذلك فقد كان اللاجئون يواجهون قوات إسرائيل التى تهاجم بيوتهم بحثاً عن الفدائيين بتلك الجملة دائماً : افعلوا بنا ما تشاؤون . . فلن يكون مصيرنا أسوأ من هذه الحياة فى المعسكرات ، لكن لن نسلمكم أولادنا ولن ندلكم على مكانهم . . وقد ذكر لى الكثيرون من الفدائيين أنهم قد أصبحوا يشعرون بالأمان والحرية فى التصرف أثناء الاحتلال عما قبله . . لقد كانوا قبل ذلك يخضعون لإدارتهم فلا يقدمون على عمل إلا بأمرها . . بل لا يلبسون ملابسهم العسكرية أو يحملون سلاحهم إلا بإذن منها . . والروح الفدائية عادة تتنافى مع الروتين الحكومى ولا تستطيع أن تتعايش معه ، لذلك ما أن زالت إدارتهم المصرية حتى انطلقوا أحراراً وازداد نشاطهم بعد الاحتلال إلى حد روع إسرائيل . . بل لقد أصبح العمل داخل إسرائيل آمن لهم من النوم فى بيوتهم فى غزة .

وبدأت إسرائيل كعادتها تلجأ إلى الحيلة والخديعة عندما فشلت وسائل الحرب فى القضاء على الفدائيين . فأحضرت إلى قطاع غزة سيارة ضخمة قد زودت بمحطة إذاعة كاملة . . كانت تلك السيارة أقرب شىء إلى دبابة مصفحة لها اثنا عشر إطاراً وقد وضع فوقها اثنتا عشرة سماعة كبيرة . . وبدأت الخدعة بإذاعة فى كل معسكر من معسكرات اللاجئين بأن جيش إسرائيل عثر عند دخوله إلى غزة على جميع الأوراق الخاصة بأسماء الفدائيين سليمة فى مكتب المخابرات المصرى . . وأن لديهم إثبات عن كل فدائى ورقم سلاحه وعنوان مسكنه وأسماء أسرته . . وأنهم سيعطون أهل المعسكر مهلة ثلاث ساعات لتسليم جميع الفدائيين . . وأن الأسرة التى تخفى فدائياً سوف يتعرض جميع أفرادها للإعدام . . وكانوا إذا مرت المهلة ولم يتقدم إليهم أحد ابتدأوا باعتقال الناس دون تمييز ولا تخطيط مما يدل على كذب إدعائهم . ثم يرسلوهم إلى معسكرات الاعتقال أو طوابير الإعـــدام .

وجاء الدور علينا فى معسكر جباليا حيث كنت أقيم . . فبينما كنت مستغرقاً فى النوم فى حجرتى ، إذ دخل بعض الفدائيين العيادة فى منتصف الليل وأيقظونى من نومى . . وأبلغونى أن اليهود فى طريقهم إلى هذا المعسكر لتطويقه بحثاً عنهم . . وكنت أخفى فى

العيادة أحد زملائهم الجرحى فطلبوا له الإذن بالخروج معهم قائلين : خير لأخينا أن يموت من جرحه عن الموت فى سجون إسرائيل مع تعريضك وزملائك فى العيادة للقتل .

ولم تمض ساعة على خروج الجماعة ، حتى ابتدأ صوت السيارات الإسرائيلية النصف جنزير يسمع من بعيد ، ثم أخذوا يجوبون شوارع المعسكر . . وضربت القوات طوقاً حول المنطقة كلها لكى تمنع الدخول إليها أو الخروج منها . . وما أن أشرقت الشمس فى الفجر حتى حضرت سيارة الإذاعة وأخذ ضباط المخابرات اليهودية يذيعون قائلين بطريقتهم الناعمة التى تقطر سماً : « صباح الخير يا أهالى جباليا الكرام . . إن جيش الدفاع الإسرائيلى يحييكم جميعاً . . على كل الرجال والشباب بين الخامسة عشرة والخمسين التجمع فى الساحة العامة . . وكل من يتخلف فى بيته فسوف يعدم فى الحال . . وخرجت من المستوصف مع زميلى الدكتور أنور ومعنا الممرضون والعمال . وجلسنا جميعاً على الأرض مع إخواننا اللاجئين . . فى هذه الأثناء أخذت سيارة الإذاعة تذيع نفس الأكاذيب عن قوائم الفدائيين وتعد من يستسلم ومن يسلم سلاحه بالعفو والغفران . . وتنذر من يتخلف منهم بالإعدام . . ولما لم يتقدم إليهم شخص واحد فتح باب السيارة المصفحة وخرجت منه امرأة ضخمة الجثة طويلة القوام . . وكانت تلبس ملابس نساء البدو وقد تمنطقت فى وسطها بحزام فيه مسدس فى ناحية وخنجر فى الجانب الآخر . . وعندما اقتربت المرأة ناسمعت أهل المعسكر يهمسون فيما بينهم :

– هذه هى حُسنة . . لعنها الله . . لقد أصبحت تعمل جاسوسة لليهود .

كنت أعرف من هى حُسنة البدوية من سنين . فكم طردتها من العيادة لسوء سلوكها ، وكم حرمت عليها دخولها إلا للعلاج الضرورى . فقد كانت امرأة ساقطة وقد أقسم أهلها البدو على قتلها تخلصاً من العار ، ولكنها هربت إلى إسرائيل وأخذت تعمل جاسوسة لهم وعلى قبيلتها وعلى معسكرها . . فما أن دخل اليهود إلى غزة ، حتى حضرت معهم لكى تشفى غليلها من كل أعدائها . . وعلى الأخص أولاد عمها . . وجن جنون حُسنة عندما لم تجد أولاد عمها بين أهل المعسكر فأخذت تقدم إلى اليهود أطفالهم الصغار كرهائن إلى أن يستسلم الكبار . . وأخذت حُسنة تمر على الصفوف صفاً صفاً فتحكم كما تشاء على أى إنسان بالإعدام بأن تقول أنه فدائى . . ومرت بى حُسنة وأنا جالس على الأرض فى تلك الصفوف ، وكنت أحاول أن أتلافى نظراتها . . ولكنها وقفت أمامى وأخذت تنظر إلىّ فى غلظة ووقاحة . ووضعت حُسنة يدها على كتفى وأخذت تقول لى بلهجة غليظة :

- تتذكر من أنا يا حكيم ؟ هل تتذكر حُسنة البطالة . . التى طردتها من العيادة ؟

فقلت :

- نعم أتذكرك يا حُسنة !!

قالت :

- أتعرف أن حياتك تتوقف على إشارة من أصبعى هذا ، وإننى أستطيع أن أسلمك للإعـــدام .

فقلت لها فى هدوءمن لم يعد يهتم بالحياة من كثرة ما رأيت من الأهوال .

- يا حُسنة تأكدى أنك لن تسلمى أبداً من الثأر لما فعلتيه اليوم .

وأثار غيظها هذا الرد . . فقامت من فورها وأشارت إلى الجنود وصاحت :

- هذا الدكتور المصرى هو طبيب الفدائيين . . وإنه على اتصال دائم بهم وهو يخفيهم فى عيادته .

وهنا أشار علىّ الجنود بالخروج من الطابور واقتادونى نحو سيارة السجن أو سيارة الإعـــدام .

وبينما أنا أهم بركوب السيارة ، إذ نادانى الضابط وسألنى :

- هل أنت طبيب المعسكر ؟

قلت :

- نعم . . وقد كنت فى عتليت . . وأجريتم معى عشرات التحقيقات ، فلماذا تريدون اعتقالى الآن من جديد . . وإليك أوراقى إذا كنت تريدها .

ونظر الضابط فى الأوراق التى سلموها إلىّ من المعتقل وكانت مكتوبة بالعبرية . . ولما قرأها قال : دعوه يذهب ويعود إلى عمله .

وخرج اليهود بغنيمتهم التى لا تتعدى بعض الأطفال فى سن الخامسة عشر أو بعض العواجيز فى سن الستين والخمسين . . ولم يكن بين المقبوض عليهم فدائى واحد . . وفى نفس تلك الليلة ظهر الفدائيون من جديد فى المعسكر وزارنى حسن ومعه بعض أفراد مجموعته وأقسموا لى أنهم سينتقمون لما حدث لى من المهانة . . ولكل من اعتقلهم اليهود أو مسوهم بسوء .

انتقام الفدائيين

كان ذلك فى صباح اليوم التالى مباشرة . . وكنت جالساً فى عيادتى فى جباليا أعالج طوابير المرضى والجرحى الذين أصابهم اليهود أو ضربوهم وعذبوهم بالأمس . . وفجأة دوى انفجار مهول يبدو أنه فى مكان قريب . . ولم أتحرك من مكانى . فقد تعودت على أصوات الانفجارات كل يوم ، وإن كان هذا يختلف عن كل ما سبقه فى قوته . . وبعد نصف ساعة فقط اتصل بى صوت فى التليفون عرفت فوراً أنه صوت حسن .

وقال المتكلم : « يا دكتور أحمد . . لقد وعدناك وصدقنا الوعد » ولم يزد على ذلك شيئاً . وهنا فهمت أن حسن لابد أن يكون زرع لغماً لإحدى السيارات اليهودية فى مكان قريب من المعسكر فنسفها .

وكان يجلس معى فى تلك اللحظة صديق يعمل مصوراً فى غزة . كان يساعدنى فى طبع الصور عن العدوان الإسرائيلى لكى أقدمها فى هذا الكتاب . . وهنا خطرت لى فكرة قد تكون جنونية لكنى لم أستطع أن أقاوم إغراءها . . وقلت لصديقى المصور مداعباً :

– أتريد أن تحصل على صورة قد تسارى مليون جنيه وقد تكلفك حياتك ؟

فتردد فى الرد ، ثم قال :

– تريدنى أن أذهب الآن لأخذ صوراً للسيارة الإسرائيلية بعد نسفها . . لقد مرت نصف ساعة الآن على الحادث . . ولابد أن الجيش الإسرائيلى قد وصل إلى مكان الإنفجار . . ولو رأوا مصوراً هناك لقتلوه دون رحمة .

قلت له :

– إن فكرتى هى أن أذهب معك . . وفى سيارة الإسعاف . . فتلبس أنت كممرض . . وأنا بملابس الطبيب . . فإذا وجدنا جرحى قمت أنا بإسعافهم كواجب إنسانى ، بينما تقوم أنت بالتصوير . . أما إذا كان اليهود قد سبقونا إلى هناك . . فيمكنك أن تخبىء الكاميرا فى السيارة وأحدثهم أنا بأننى قد حضرت على صوت الانفجار للإسعاف والمساعدة . . وبذلك لا تفوتنا فرصة المشاهدة وإن فاتت فرصة التصوير .

واتجهنا نحن الاثنين مع سائق الإسعاف إلى مكان الحادث فى الطريق المؤدى إلى مطار غزة القديم ، ورأينا عن بعد ثلاث سيارات چيب عسكرية قد أحاطت بالسيارة المنسوفة . . وارتبك سائق الإسعاف وصديقى المصور وأرادوا أن يعودوا من حيث أتينا ، فقد كان

الغضب والهياج الشديد يبدو على وجوه الضباط اليهود . . ولكنى أقنعتهم بأن رجوعنا فى هذه اللحظة سوف يؤدى إلى ازدياد الشبهات فينا . . وأنه ما علينا إلا السير فى الخطة حتى آخرها مدعين أننا قد حضرنا للإسعاف . . وتقدمنا أكثر فأكثر فى بطىء شديد حتى اقتربنا من مكان الحادث . . وكانت مفاجأة مهولة لى عندما رأيت أن السيارة التى نسفت هى نفسها سيارة الإذاعة المصفحة الضخمة . . فقد كنت أعرف أن من المستحيل نسفها بالألغام الخفيفة التى مع الفدائيين ، كما أن رصاصهم لايمكنه اختراقها . . وكانت السيارة قد انقلبت على جانبها وتمزقت أشلاء من كل ناحية والنار والدخان مازال يتصاعد من داخلها . . وتأكد لى من هذا المنظر المروع أنه لم ينج من السيارة إنسان واحد . . بل إن الجثث كلها لابد قد احترقت من النيران والانفجار ، وكان طاقم السيارة لا يقل عن سبعة أشخاص .

وبينما نحن كذلك ، إذ تصدت لنا إحدى سيارات الجيب وكان فيها بوليس حربى فأوقف سيارتنا ثم جاء الجندى يسألنى بالإنجليزية :

- ماذا أتى بكم إلىٰ هنا ؟

فقلت له :

- إننى طبيب هذا المعسكر . . وقد سمعت انفجاراً فحضرت للإسعاف . . فهل أستطيع المساعدة ؟

فقال :

- هل أنت مصرى ؟

قلت :

- نعم .

فنظر إلىّ نظرة تقطر حقداً ومرارة . . وكان المصور يجلس فى حجرة الإسعاف الخلفية ، والعرق يتصبب منه . . فلو فحصوا السيارة ووجدوا الكاميرا معه لأعدمونا فى الحال . . لذلك فقد كنت حريصاً على أن أشغل الجندى بأى كلام حتى لا يفكر فى تفتيشنا . . وقلت له :

- إن معى شنطة إسعاف كاملة وأرجوك لو كان هناك أى خدمة إنسانية استطيع القيام بها أن تسمح لى بالعمل .

فقال وما تزال المرارة فى عينيه :

- الخدمة التى تستطيع أن تفعلها هى أن تذهب من هنا .

وتأكدت بذلك بأنه لم يبق إنسان حي فى السيارة بين طاقمها وإلا لما رفضوا الإسعاف . فعدنا من حيث أتينا . . وقد أخذت تتنازعنى فى الطريق عواطف شتى وأفكار متضاربة ، فإن كنت طبيباً فإننى أيضاً بشر . . وإن كنت كطبيب أشعر بالرأفة والرحمة للإنسانية المتطاحنة المتصارعة . . فمن حقى أيضاً أن أشعر بالشماتة وحب الثأر لأهلى وإخوتى الذين يقتلهم اليهود كل يوم . وهذه هى سُنة الحياة ﴿ **ولكم فى الحياة قصاص** ﴾ . . وكنت بعد ذلك فى شغف شديد لمعرفة تفاصيل الحادث من أبطاله أنفسهم . فمن العجيب حقاً أن يستطيع جماعة من الشباب البدوى الذى لم يتعلم الفنون اعسكرية أن يدمروا تلك السيارة المصفحة بأسلحتهم الخفيفة التقليدية . . وأخيراً عرفت الحيلة الذكية التى لجأوا إليها . . وكان « حسن » كما يسمونه ملك الحيلة والدهاء والتخطيط وهو الذى ابتدعها ونفذها . فقد ساعدته معرفته الجيدة باللغة العبرية فى أن يتزيى بملابس ضابط فى البوليس الحربى الإسرائيلى . ووقف حسن فى طريق عودة السيارة قرب مطار غزة وأشار إليها بالتوقف . . وفتح باب المصفحة وأخذحسن يحدث ضابط الإذاعة . . وبينما هم كذلك ، إذ انشقت الأرض عن رفاقه الآخرين الذين كانوا مختبئين فاقتحموا السيارة وأطلقوا النيران وألقوا القنابل الحارقة على المذيعين والضباط . . ولم يكتفوا بذلك ، بل وضعوا الألغام فى داخل السيارة فانفجرت ومزقتها من الداخل عن آخرها . . وقد علمت للأسف الشديد أن أحد الفدائيين قد استشهد فى هذا الحادث محترقاً من شدة النيران والانفجارات .

وتفرغ الفدائيون بعد هذا الانتقام الشافى إلى الجاسوسة « حُسنة » التى كانت سبب نكد هذا المعسكر كله . . وأرسلوا إليها أحد أقاربها ليخبرها أن أهلها قد عفوا عنها وأنهم يريدون مصالحتها وأن أولاد عمها سيكونون بين الحاضرين . . وكما توقع الفدائيون تماماً ، حضرت حُسنة فى المكان الموعود فى منتصف الليل ومعها خمسة من مخابرات إسرائيل فى زى بدوى . . وكان الفدائيون قد أعدوا لها ولكل رفاقها كميناً لا تنفذ منه ثغرة . والتقت حُسنة وأولاد عمها فما أن تحققوا من وجهها حتى انهالوا عليها بالسكاكين ومزقوها شر ممزق ، ثم ظهر رجال المخابرات الخمسة اليهود من الظلام بأسلحتهم للقبض عليهم . وهكذا سقطوا فى كمين الفدائيين ، إذ دارت معركة قضى فيها على اليهود الخمسة .

حادث مقتل العرايشى الخائن

كان الفدائيون يحاربون فى جبهتين : الجبهة الداخلية لتنقيتها من الخونة . وفى الجبهة الخارجية ضد اليهود . . وكان أكبر الخونة شهرة رجل من سكان العريش باع نفسه لليهود

لكى يشفى أحقاده وغلّه من مصر والعرب . . وكان العرايشى هذا يعمل شرطياً فى بوليس العريش ، ولكنه خان أمانة المهنة وأخذ يشتغل فى المخدرات وتهريبها من إسرائيل إلى مصر ، فقبض عليه وحكم عليه بالسجن المؤبد . . ووصل اليهودفأطلقوا سراحه من السجن لكى يستفيدوا منه فساعدهم فى اعتقال أبناء العريش ورجالها المناضلين . . وكافأه اليهود بتعيينه ضابطاً فى مخابراتهم وسلموه سيارة جيب عسكرية ومسدساً . . ودارت دورة الزمن وانسحب اليهود من العريش فهرب العرايشى معهم إلى غزة حيث بدأت فظائعهم وخيانته ، وأخذ يتجسس لليهود على الفدائيين . . وعند ذلك قرر الفدائيون اختطافه وتسليمه حياً إلى المخابرات المصرية . . وأخذ جماعة منهم يصادقونه ويجالسونه فى المقهى ويلعبون معه (الطاولة) حتى آنس إليهم واطمأن . . وذات يوم ركبوا معه سيارته العسكرية فى شارع غزة الرئيسى وفجأة أخرجوا سلاحهم وجردوه من مسدسه وأمر الفدائيون العرايشى الخائن بالاتجاه بالسيارة إلى مدينة العريش لتسليمه إلى السلطات المصرية . . وفى هذه اللحظة مرت دورية إسرائيلية بالقرب منهم فصرخ العرايشى طالباً منهم النجدة . . فوقف اليهود استعداداً للضرب ، ولكن الفدائيين كانوا أسرع منهم . . فقد أفرغوا رصاصهم فى صدر العرايشى ، ثم فاجأوا اليهود بإطلاق النار فقتلوا جندياً وجرحوا الباقين ولاذوا بالفرار .

الفدائيون والمقاطعة العربية

كان من أهم ما ترمى إليه إسرائيل أن تثبت للعالم الخارجى ولهيئة الأمم ، أن حكمهاالقطاع غزة قد استقر وأن أبناء القطاع قد بدأوا حياتهم العادية فى ظل إسرائيل راضين مسرورين وذلك لكى تستطيع ضم القطاع إليها . . وكانت أهم مظاهر الاستقرار التى تحرص على اظهارها هى انتظام التعليم فى المدارس وانتظام حركة البيع والشراء وخصوصاً التعامل فى البضائع والعملات الإسرائيلية . وتنبه الفدائيون إلى هذا الوضع فابتدأوا الدعوة إلى المقاطعة بكل إمكانياتهم ، وأخرج الفدائيون نشرة كانت تطبع فى ورقة صغيرة فى حجم كف اليد حسب إمكانياتهم المحدودة . . وكان أول منشور ثورى أصدروه ينادى المدرسين والطلبة برفض البرامج التعليمية الإسرائيلية ومقاطعتها . . وينادى التجار بعدم التعامل فى العملة الإسرائيلية وعدم بيع وشراء بضائع من إسرائيل . . ونجحت المقاطعة وتعاون المدرسون والطلبة والتجار فى تنفيذها . . وفى ذات يوم تحدى أحد تجار غزة هذا القرار الإجماعى ، فأرسلت إليه المقاومة الشعبية من يحذره من مغبة عمله . .

ولكنه استقبل التحذير بالاستخفاف وأخذ يردد أقوال ضباط إسرائيل وموظفى الهيئة الدولية ويقول لهم :

« كونوا عمليين واقعيين . . فإن حلم العودة إلى فلسطين قد انتهى ومصر لن تعود إلى غزة فتعلموا أن تقبلوا المنطق والواقع وتعاونوا مع إسرائيل » .

وحاول المواطنون ردعه بالطرق السلمية . . فكان يلقى بالنقود العربية فى وجوههم . . ويقول لهم : « لا أقبل إلا عملة إسرائيل ولا أعترف إلا بها » . . وعند ذلك اعتبره الفدائيون خائناً وعميلاً وهاجموه فى دكانه فى وضح النهار فأفرغوا رصاصهم فى رأسه وصدره وجعلوه عبرة لمن يعتبر .

من هو الفدائى

قد يظن بعض الناس أن الفدائى هو الشخص الذى يحمل سلاحاً على كتفه وغير ذلك لا يعتبر فدائياً . ولكن الفدائى هو كل شخص يعرض حياته ورزقه للخطر فداءً للوطن والعروبة . . وبذلك فقد كان كل شعب غزة شباباً وشيوخاً أثرياء وفقراء . . نساءً ورجالاً . . كانوا جيعاً فدائيون . وعندما انقطعت موارد الفدائيين بذهاب الإدارة المصرية من القطاع ، تقدم بعض أعيان غزة والمقتدرين منهم بمدهم بالذخيرة والسلاح . . وكانوا يفعلون ذلك فى صمت ودون دعاية ولا ضجة . . وعندما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب فى سنة ٦٠ ، خفت أن أذكر بعض هذه الأسماء خوفاً عليهم . لأن اليهود كانوا يبعثون ببعض جواسيسهم إلى غزة بعد زوال العدوان . . وكانوا يقتلون قادة المقاومة . أما الآن وقد أصبح الحكم فى غزة فى أيدى أبنائها ، فمن الحرام أن نتجاهل أسماءهم . وفى مقدمة هؤلاء الحاج عجور . . ومعذرة إذا كنت قد نسيت اسمه الكامل بعد مضى ٣٥ سنة مضت . ففى أحد الأيام استدعانى صديق لى لعلاج مريض فى بيته . . فإذا بى أجد هذا المريض واحداً من الضباط المصريين وكان جريحاً بعد معركة اشترك فيها مع الفدائيين ضد اليهود . . وقد اكتشفت أن بيت هذا الرجل الثرى قد أصبح كأنه ترسانة للأسلحة أو معسكراً للفدائيين والجنود والضباط . وذلك برغم أن إسرائيل قد فتشت بيته عدة مرات فلم تهتد إلى مكان إخفاء هذا العدد من الفدائيين . . وقد أكبرت هذه الروح الوطنية وأخذت أشكره على إخلاصه . . وعلى شجاعته فى الاحتفاظ بهذا العدد من الضباط والفدائيين بين أولاده معرضاً بذلك أسرته لانتقام مهول وخطر جسيم . . ولكنه قال :

- لا تشكرنى يا حكيم . . ولا تحمل هم الخطر الذى أتعرض له . . فالرب واحد والموت واحد . . ونحن لا نموت مرتين . . والإنسان إذا اشتد عليه الذل والهوان تمنى الموت وبحث عنه . . وتأكد يا دكتور أننا لو كان لدينا سلاح فى بيوتنا قبل هذا العدوان لما استطاع اليهود أن يدخلوا غزة أبداً . . ولو دخلوها لما استطاعوا الإقامة فيها فنحن رجال والحمد لله . . فينا الآلاف يتمنون الموت والاستشهاد . . ولكن للأسف أن جميع الحكومات العربية لا تريد أن تسلح شعوبها لعدم ثقتهم فيهم . . ولو سلحونا لدافع كل منا عن بيته وأسرته ولحاربنا العدو من شارع إلى شارع ولكبدناه أشد الخسائر عن كل شبر من أرضنا الغالية . ولكن الذى يحدث اليوم ، أن أى مدينة عربية إذا تخلى عنها الجيش أو انسحب منها سقطت فريسة سهلة ولقمة سائغة فى أيدى العدو . . أن كل ما نتمناه أن تزول أزمة الثقة بين الحكومات العربية وشعوبها . . وأن تترك الحكومة الشعب يتسلح حتى يدافع عن مدينته . . وإلا فما الفارق بين حكوماتنا العربية وبين حكومة الانتداب البريطانى فى فلسطين . . والتى كانت إذا اعتقل العربى بتهمة إحراز السلاح تعرض للسجن وربما للإعدام . . أما إذا اعتقل اليهودى بنفس التهمة فإنه يفرج عنه بمسعى من الوكالة اليهودية . . قلت معك كل الحق . . فبغير اشتراك الشعب فى المعركة المصيرية لا يمكن إحراز النصر . . وأى حاكم على ظهر الأرض يتجاهل شعبه ويخشى أن يسلحه فى لحظة الخطر خوفاً على مقعده أن يهتز فهو فى الواقع يعرض نفسه ومقعده إلى جانب تعريضه شعبه وكل شىء للضياع الكامل .

وهكذا تعاون الأهالى سراً وفى حدود إمكانياتهم المحدودة على مد حركة الفدائيين بكل ما تحتاج إليه . . وبذلك اشتدت المقاومة المسلحة واتسع نطاقها . . وإذا كان عدم التنظيم من أكبر مشاكلنا وأخطرها على حياتنا ومجتمعنا ، فقد كان من أعظم مشاكل الفدائيين بعد ذهاب الأدارة المصرية عدم وجود منظم يرتب لهم العمل ويرسم لهم الخطط . ويوحد الجهود ويتلافى الزلل والأخطاء . . وقد نتج عن هذا أن كل شاب قادر يستطيع الحصول على السلاح واستعماله كان يعمل مستقلاً عن الجماعة وبذلك اندس بين الفدائيين بعض المغرضين وأخذوا يعيثون فساداً باسم الفدائيين وإن كانوا لحسن الحظ قليلين . . وكانت الحركة الفدائية فى تلك الفترة تشمل ثلاث شعب مختلفة حسب دوافعها وإن كان الهدف واحداً وهو محاربة إسرائيل .

كانت هناك **جماعة دافعها الدين** . . والجهاد المقدس والموت فى سبيل الله وتخليص أرض الإسلام والأراضى المقدسة من أيدى الغاصبين . وكانت الجماعة

الثانية دافعها وطنى . . تنادى بالحرية والاستقلال والعروبة وبالثأر من الغاصبين الذين سلبوهم أرضهم . وكان قليل من هؤلاء لهم ميول سياسية أو تابع لأحد الأحزاب . ثم كانت هناك جماعة ثالثة دافعها حب المغامرة والميل إلى العنف . . ولحسن الحظ أن وجدوا متنفساً عن ميولهم هذه يطلقونها على الأعداء فأصبحت نوراً تضىء بدلاً من أن تكون ناراً تحرق .

وهكذا فإن اختلاف الميول البشرية والطبائع الإنسانية أمرٌ لا يمكن نكرانه أو تجاهله . . وعلينا أن نعترف بهذه الاختلافات . . وأن نستغل تلك الميول والدوافع المختلفة كلها فى صالح المعركة الواحدة وتوجيه الطاقات كلها لتدمير العدو لا للصراع فيما بينها . . فلا يمكن صب الناس جميعهم فى قالب واحد وإلا فإننا نخسرهم جميعهم . . وما أحوجنا إلى الاستفادة من كل الطاقات وجميع الجهود .

إحباط محاولة إسكان العائلات اليهودية فى غزة

كان اليهود فى أول حكمهم يريدون إسكان بعض العائلات اليهودية فى غزة وابتدأوا فعلاً المرور على البيوت ومنهم بيتى . . وسألنى الضابط : كم حجرة فى البيت ؟ فقلت : ثلاث . . قال : وأنتم كم عائلة تسكنون فيه ؟ فقلت له متعجباً : أتريد أكثر من عائلة فى بيت واحد ؟ فقال : لم أقل إنى أريد . . ولكن هذا قد تقرر فعلاً . . فعليك أن تأخذ لنفسك حجرة واحدة . . وسوف تسكن معك عائلتان يهوديتان فى الحجرتين الأخريين .

فقلت له : هذا مستحيل ولن أقبل به .

قال : إذاً يمكنك أن تغادر بيتك والسكن فى المستوصف . وأحمد ربك أنك تجد مكاناً يأويك . . فنحن فى إسرائيل نسكّن كل عائلة فى حجرة واحدة .

وكنت أعلم أن هذه هى سياسة إسرائيل فى إخراج كل مواطن عربى من بيته بطريقة غير مباشرة . . فهم يأتون له بعائلة أو عائلتين من رعاع اليهود وحثالتهم للسكن معه فى بيته . . فيظلون بقذارتهم وإباحيتهم واستهتارهم يؤذون مشاعره حتى يضطر إلى الرحيل ولو نام فى الطريق . . وقد حضرت بعض العائلات اليهودية إلى بيتى فعلاً بعد رحيلى وحضرت دفعة كبيرة من الممرضات اليهوديات للعمل فى المستشفيات ، ولكن جميع هؤلاء لم يبيتوا فى غزة إلا ليلة واحدة رأوا فيها الأهوال . . فقد كان الفدائيون لهم

بالمرصاد فنصبوا لهم كميناً فى الطريق داخل إسرائيل قبل دخولهم غزة وأصابوا حراسهم . . وفى الليل كانت الانفجرات وطلقات النار حول البيوت . . وحتى الحكيمات لم تنم واحدة منهن طوال الليل داخل المستشفى . . وذلك بالرغم من وضع عدد كبير من الحراس اليهود لحراستهم . . وعندما سألت بعضهن لماذا هذا الذعر والخوف الشديد وخصوصاً أن المستشفى أمان ، قالت إحداهن :

- إن الفدائيين العرب للأسف الشديد لا يقدّرون الفارق بين المرأة والرجل . . بل إنهم يقتلون الجميع . . ولا يميزون بين المستشفى والمعسكر الحربى .

فبادرت أقول :

- معهم حق . . يكفى أن تعرفن أن هذا المستشفى الذى ترقدن فيه اليوم قد سبق ونسفه جيشكم الباسل بمدافع المورتر فى سنة ١٩٥٥ وأنه قد أعيد بناؤه من جديد . . وكان يرقد فيه نساء وأطفال بعضهم من العميان وكلهم الآن مدفونون تحت التراب . . فهل كان ذلك عملاً حربياً ؟

وهكذ لم ينم الوافدون اليهود ليلتهم فى غزة . . فما أن أشرقت الشمس عليهم حتى طلبوا جميعهم العودة إلى إسرائيل .

إسرائيل تودع غزة

فى يوم ٧ مارس سنة ١٩٥٧ انزاح كابوس إسرائيل عن غزة بعد حكم خمسة أشهر . . وكانت ليلة وداع رهيبة مرعبة ظهرت فيها أخلاق هذه الأمة وطباعها وغرائزها الدموية . . فقد منعوا التجول فى ساعة مبكرة من النهار . . ثم انتشر جنودهم يفتكون بالناس فى البيوت ويعتدون على الأعراض ويسرقون وينهبون . . وكان الجند يقتحمون البيوت الخالية بسبب اعتقال أصحابها ويسرقون الأبواب والشبابيك ، بل كانوا ينزعون المسامير من الحائط ليأخذوها معهم . . وفى كل بيت كنت تسمع صراخاً وبكاءً وطلقات النار . . وجاء الليل فلم تنم المدينة المجروحة التعيسة لحظة واحدة . . وفجأة ولأول مرة توقف إطلاق النار وخيم على المدينة سكون موحش غير معتاد لا يقطعه إلا بكاء طفل أو أرملة أو شيخ مسن . . وكلهم يبكون ضحاياهم وشهداءهم فى تلك الليلة الرهيبة . . وأطل الناس من البيوت فى ذهول يستطلعون سبب هذا السكون . . فلم يجدوا أحداً فى الطريق فخرجوا صائحين مهللين إلى الشوارع .

وانطلقت زغاريد النساء وصيحات الرجال وتكبيرهم . . « الله أكبر خرج اليهود . . الله أكبر خرج المجرمون » .

تسقط إسرائيل . . وتحيا الحرية . . « الله أكبر . . الله أكبر » .

ووقفت على باب العيادة فى ذهول . . وترقرقت فى عينى دمعة كبيرة . . وتنفست جواً مليئاً بالحرية . . والطمأنينة ،، وقلت :

« الحمد لله . . انزاح الكابوس » .

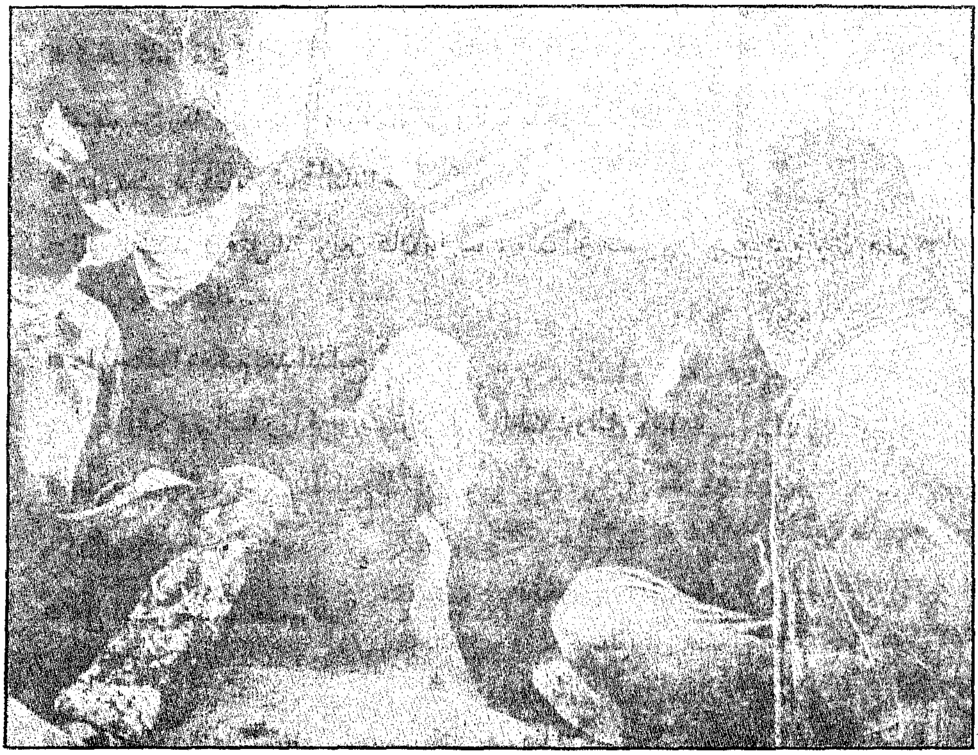
اطمأن قلبى لأول مرة بأن شمس النهار قد تشرق عليّ وأنا حي بين الأحياء . . فقد كنت أغمض عينى كل ليلة كأنما استقبل الموت وأتوقعه وأحسب له ألف حساب .

ولكن عمل الطبيب لا ينتهى أبداً . . وآلام الطبيب لا تقف عند توقف مشاكله الشخصية . . فقد كان أول ما أزعجنى أن إسرائيل لم ترد أن تودع غزة وداعاً فيه راحة وسلام . . كان اليهود قد زرعوا مساحات كبيرة من أراضى غزة الخالية حتى الخرابات التى أمام البيوت بالبطاطس وأوصلوا إليها مواسير المياه لتسقيها . . فلما اضطروا إلى مغادرة غزة فجأة وبسرعة بحيث لم يكن لديهم وقت لأخذ البطاطس من الأرض ، فكروا فى فكرة جهنمية قاتلة . لقد رفعوا حبة بطاطس من كل مجموعة حولها ووضعوا مكانها لغماً . . وبعد خروجهم انطلق أطفال اللاجئين الجياع إلى البطاطس ليأكلوه من الأرض فانفجرت الألغام فيهم ومزقتهم أو قطعت أصابعهم . . وابتدأت الحالات ترد إلى المستوصف تباعاً ، فابتدأت آلامى ونكبتى من جديد . . ثم جاءت الطامة الكبرى عندما هطلت الأمطار بغزارة لم يسبق لها مثيل . . وإذا بالسيول تجرف جثث زملائى وأصدقائى الذين كان اليهود قد أسروهم معى ولم يعودوا . . وهكذا كان وداع إسرائيل لأهل غزة . . وداع لا رحمة فيه ولا إنسانية ، استقبلتهم بالدمار والخراب وتركتهم للدموع والأحزان .

ضباط إسرائيل يعترفون بقتل الأسرى ويعتبرون ذلك مفخرة لهم

فى شهر أغسطس سنة ١٩٩٥ فى أثناء معركة انتخابية بين اليمين المتطرف فى إسرائيل واليسار . أعلن إثنان من الصحفيين والكتاب المعروفين هما (جابرييل براون) و (آريه إسحاقى) أن ضباط الجيش الإسرائيلى كانوا يأمرون بإعدام الأسرى المصريين

والفلسطينيين . . أثناء حرب سنة ٥٦ وحرب ٦٧ . وأنهما كانا مجندين في هذه الحروب وشاهدا بأنفسهما طوابير الإعدام التي كانت تتم بطرق مختلفة حسب تفنن كل سفاح إسرائيلي . . فمنهم من كان يربط الجنود من أيديهم وأرجلهم بالحبال . . ثم يمر عليهم بالدبابات عدة مرات حتى يسحق عظامهم ويسويهم بالتراب . ومنهم من يأمر جنوده بضرب الأسرى وهم مربوطون بكعوب البنادق حتى يحطموا عظامهم قبل أن يطلق عليهم النار . . ومنهم من كان يأمر الأسرى بحفر قبورهم بأيديهم ثم يطلق عليهم النار جملة . . ثم يأتي بدفعة جديدة لتدفنهم وهكذا . . وعند نشر هذه الأخبار اهتز الضمير العالمي في أوروبا وأمريكا لبشاعتها . . وفي إسرائيل قدم بعض النواب استجوابات إلى الحكومة . كما طالب بعض الوزراء بالتحقيق في هذه المذابح . . وننشر هنا نص الحوار الذي نشرته مجلة (تل أبيب) في ٨ أغسطس سنة ١٩٩٥ مع اثنين من كبار السفاحين الإسرائيليين هما (أريبه بيرو) قائد عمليات الكتيبة ٨٩٠ مظلات ، و (رفائيل إيتان) أحد كبار القادة السفاحين . وقد نشرت الصحافة المصرية ترجمة لهذا الحوار في عددها ٢٨ /٨/ ٩٥ هذا نصه :



شباب عربي اعتقلتهم إسرائيل من قطاع غزة وقد ربطوا أعينهم وأيديهم قبل نقلهم إلى طوابير الإعدام .. حيث تمر عليهم الدبابات وهم مقيدون فتسوى عظامهم بالأرض .

* عميد بيرو . . كيف كانت وظيفتك أثناء حرب ٥٦ ؟

- كنت قائداً لمجموعة عمليات الكتيبة ٨٩٠ مظلات إسرائيلية .

* هل أعطى لك رفائيل إيتان أمراً بقتل الأسرى المصريين ؟

- إننى لا أذكر أية أوامر من هذا النوع . . كنا مضطرين للتحرك إلى رأس سدر لذلك قررنا التخلص منهم فلم يكن هناك وقت للاهتمام بأسرى مصريين .

* من قتل الأسرى فى ممر متلا ؟

- أحد الضباط وأنا ، والقتل ليس من عمل الجنود .

* هل ربطوا وثاق الأسرى ؟

- إنكم تسألون أسئلة غريبة ، ولكن . . نعم ربطناهم .

* كم كان عدد الأسرى ممن قتلوا ؟

- ليس لهم عدد معين . . قتلنا مئات .

* كيف كانوا قبل قتلهم ؟

- منهم من رقد على بطنه ، ومنهم من وقف مذهولاً .

* هل تعتبر ما فعلت قتلاً أثناء الحرب ؟

- إننى أعتقد أن قتل المصريين كان واجباً ، وأن أى مصرى ابن عاهرة كان يعلم عنا أى شىء كان يجب قتله .

* هل حققوا معكم بعد المذابح ؟

- لا . . لكنهم أصدروا قرارات ترقية لكل الجنود والضباط .

* هل علم رفائيل إيتان بالمذابح ؟

- اسأله .

* هل تشعر بتأنيب ضميرك ؟

- لا .

* ماذا كنت ستفعل لو قام المصريون بقتل جنودنا الأسرى ؟

- ليحافظ كل جندى إسرائيلى على نفسه كى لا يقع فى الأسر .

* هل قتلت فقط أسرى عسكريين ؟

- لا . . بل قتلت عدداً كبيراً من العمال المدنيين الأغبياء ، وأما بالنسبة للجنود العزل فقد قتلت كتيبة كاملة كانت بلا سلاح وانقطعت عنها الامدادات والطعام والشراب .

* كم كان عدد أفراد تلك الكتيبة ؟

- ٤٠٠ جثة فى « رأس محمد » .

* ولماذا لم تقم بأسرهم كما تنص المعاهدات الدولية للحرب ؟

- كانت هناك مسابقة أعدها موشى ديان للجيش . . والجوائز كانت سخية وهامة لكل ضابط وجندى من الكتيبة ٨٩٠ مظلات . كما لم يكن هناك كما قلت لك ماء يكفى لـ ٤٠٠ أسير . لذلك قررت قتلهم كى نعيش .

* ماذا ستقول للمصريين ؟

- لا شىء ، وأنا قتلتهم ولست نادماً على أى شىء .

هذا وقد نشبت مواجهة بين رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق رابين والضابط اريا بيرو السفاح الإسرائيلى على صفحات الصحف العبرية قال فيها رابين أن بيرو قد فقد عقله وبدأ يحرج الجيش الإسرائيلى ووزارة الدفاع على صفحات الجرائد ، وأن الجيش سوف يبحث أمره .

فى حين ظهر بيرو جالساً وأمامه المسدس ويقول :

- لو فتحت فمى بالحقيقة كاملة سيأسف رابين ومن معه .

وقد تحدى اريا بيرو السفاح حكومة إسرائيل وقال :

- أتحدى أن تسلم إسرائيل لمصر ملفات حربى ٥٦ و ٦٧ ، كما أنه لا توجد اتفاقية تسليم أسرى أو مجرمين بين مصر وإسرائيل . وأعلن بيرو (٦٩ سنة) أن الأجهزة المصرية حاولت اغتياله فى عام ١٩٥٧ عقب الحرب لكنها لم تصل إليه لأن الجيش الإسرائيلى خبأه لفترة ما ، وقال بيرو : كلهم علموا بالمذابح ، وكل قادة إسرائيل أعطوا الموافقة بقتل الأسرى المصريين وأعطوا للجنود والضباط الإسرائيليين حق الاحتفاظ بممتلكات هؤلاء الجنود القتلى ولدى بالمنزل ١١ مدفعاً رشاشاً مصرياً وتسعة مسدسات .

كانت هذه بعض الاعترافات السافرة التى تبجج بها سفاحو إسرائيل . . وهى تدل على الآتى :

أولا – أن الجيش الإسرائيلى كله وليس قلة منحرفة من ضباطه سفاحون وقتلة . فقد شارك فى عمليات الإبادة جنود صغار وضباط كبار . . وكأنهم جميعاً فى متعة وتسلية . . ولم يتحرك ضمير واحد منهم . خلال ٤٧ عاماً من سنة ٤٨ حتى سنة ٩٥ .

ثانيا – أن القيادة الإسرائيلية سواء السياسية أو العسكرية كانت على علم بهذه المذابح ، بدليل أن جميع من شاركوا فيها قد تمت ترقيتهم ومكافأتهم . . وسمح لهم بأخذ كل متعلقات الأسرى قبل إعدامهم ، سواء كانت أموال أم سلاح واحتفظوا بها فى بيوتهم . وأنهم أخفوا بعض هؤلاء السفاحين حتى لا تنتقم منهم المخابرات المصرية والفلسطينية .

ثالثا – إن شعب إسرائيل الذى كان يدعى المسكنة وأنهم قلة مضطهدة فى العالم ومغلوبة على أمرها . . وأن النازى قد أباد منهم ٥ مليون فى المحارق والأفران . . هذا الشعب ما أن تمكن حتى بدأ يحدم ويقتل ويبيد أكثر وأبشع مما فعله النازى بهم .

رابعا – إن سياسة الإبادة الجماعية وطوابير الإعدام والتطهير العرقى موجودة فى تعاليم ديانتهم . . وفى بروتوكولات حكماء صهيون ، فقد جاء فيها :

« إذا انتصر اليهود فى موقعة وجب عليهم استئصال أعدائهم عن آخرهم . ومن يخالف ذلك فقد خالف الشريعة وعصى الله » . وجاء فى الحث على العنف والقتل فى سفر المزامير : « وسيف ذو حدين فى أيديهم كى ينزلوا نقمتهم بالأمم وتأديباتهم بالشعوب ويأسروا ملوكهم بقيود وأشرافهم بأغلال من حديد وينفذوا فيهم الحكم المكتوب . وهذا كرامة لجميع أنبيائه » (المزمور ١٤٩) . فهم يعتبرون أن سفك دماء غيرهم من شعوب الأرض يقربهم إلى الله . ويغفر لهم ذنوبهم وخطاياهم .

لقد كانت إسرائيل تعتمد على السرية المطلقة والكتمان فى إخفاء آثار جرائمها . وقد وكنت أنا نفسى لا أصدق ما يقوله لى إخوانى الفلسطينيون عن هذه المذابح . . حتى شاهدت بعينى ، ثم بعد ذلك جاءت اعترافات ضباطهم فى سنة ١٩٩٥ كدليل لا يقبل الشك .

لقد خطفت إسرائيل (إيخمان) وغيره من قادة النازى الذين أفلتوا من المحاكمة كمجرمى حرب . . ونقلتهم إلى إسرائيل حيث تمت محاكمتهم ثم إعدامهم . وقد صفق العالم لهم وهنأهم على أنهم لم يتغاضوا عن حقهم وأصروا على الانتقام لضحاياهم بعد ٤٠ عاماً من الحرب العالمية . فالعالم يحترم القوى الذى لا يلين فى الحق . . ويحتقر من

يتساهل فى حقه وحقوق مواطنيه ويفرط فى كرامته وكرامة مواطنيه وشعبه . . فماذا نحن فاعلون بعد اعتراف سفاحى إسرائيل ؟ هذا الاعتراف العلنى على صفحات جرائدهم . . مع ما فيه من تحدى لكل المشاعر الإنسانية واحتقار لغيرهم من الشعوب .

إن هذه القضية يجب أن تنقل كما هى بجميع وثائقها إلى هيئة حقوق الإنسان فى الأمم المتحدة وإلى محكمة العدل الدولية حتى يثبت حقنا فى التعويض عما لحق بأبنائنا . . وعن هذا الدم الذى أريق ظلماً وعدواناً .

وهذا هو أضعف الإيمان .

وكل ما أرجوه أن يبحث المسؤلون فى مصر وفلسطين عن التقارير التى كتبتها فى سنة ١٩٥٧ إلى الهيئة أنا والطبيب الشرعى الحكومى فى ذلك الوقت ، عن مشاهداتنا والحالة التى وجدنا عليها الجثث . . والتى عرفنا أنها جثث مصريين وفلسطينيين ممن كانوا فى القطاع ، وماذا فعلت الهيئة وإدارة الحاكم العام المصرى التى جاءت بعد انسحاب إسرائيل فى هذا الصدد .

الدوليون يحكمون غزة

بينما كنت أقلّب فى الصور القديمة عن العدوان الثلاثى ، إذ عثرت على هذه الصورة الهامة جداً . وكنت قد نسيتها فى الطبعة الأولى من الكتاب ولم أشر إليها . . إنها جنازة الشهيد الفلسطيى البطل محمد على مشرف الذى استشهد بعد خروج اليهود من غزة على أيدى القوات الدولية . . فكان أول شهيد بعد انتهاء الحرب وفى وقت السلم .

وتبدأ القصة عندما حضرت القوات الدولية لتتسلم القطاع من اليهود أثناء انسحابهم . ولكن قائد القوات الدولية بدأ يتصرف وكأنه أصبح الحاكم العام للقطاع . . فذهب فى حفل عسكرى إلى مكتب الحاكم العام الذى كان مقر قيادة الحاكم اليهودى . . وكان قبل العدوان الثلاثى مقر الحاكم العام المصرى . . ورفع علم الأمم المتحدة على المبنى . . وابتدأ يستعرض نفسه وقواته على الشعب المطحون . . وأصدر أوامره بإعادة قوة البوليس الفلسطينى التى كان اليهود قد سرحوها . . وبدأ يصدر إليهم الأوامر بمنع الناس من التجمهر أو المظاهرات . . وبالتزام بيوتهم فى المساء . . ربما كان يقصد من ذلك العمل على استتباب الأمن فى القطاع وعدم حدوث أى عنف . ولكنه كان غبياً جداً لا يفهم نفسية الجماهير . . وما عانوه أثناء الاحتلال .

وابتـدأ أهـالى غزة يتهامسـون بأن البوليس الدولى قـد حضر ليبقى . . أن قطــاع غزة سوف يتم تدويله ليعود ألعوبة فى يد إسرائيل . وأن مصر لن تعـود . وقد سـاعد على هـذا الظن أن الإذاعة البريطانية فى ذلك الوقت هى والإذاعـة الفرنسـية كانت تذيع أن بريطـانيا وفرنسـا شركاء إسرائيل فى العـدوان لم يتخـلوا عنهـا . وأن غزة ستعود إلى الحكم الإسرائيلى . ومن تجربة شعب غزة السابقة أن هؤلاء الدوليون ينحازون دائمـاً إلى إسرائيـل . . ويعتبرونها دولة أوربية مثلهم . وأن العـرب لا يستحقون أى تقـدير ولا حقوق لهم .

وابتدأ الغليان يتجمع فى صمت وكتمان . . ما هذا ؟ تخلصنا من إسرائيل ودفعنا الثمن من دم شـهدائنا . . ثم يأتى هـؤلاء الدوليـون . . لكى يحكمـونا مـرة أخرى ، لا والله ! !

وتجمعت المظاهرات . . وابتدأت المسيرات . . ولكن القائد الدولى كان من الغباء فى الأمور السياسية بحيث أنه لم يتنبه إلى خطأ سياسته . . ولم يحاول أن يتفاهم مع المسيرات الأولى ويطمئنهم . . وعندما طالبوه بعودة المصريين والحكم المصرى . . رد عليهم بغباء أشد . . وقال أن هذا مستحيل الآن ، لأن الأمم المتحدة لم تقرر بعد مصير القطاع . وهنا تأكد لهم أن هناك مؤامرة تحاك لعزلهم عن مصر .

وتحـول الأمـر إلى عنف . . فـابتـدأت المظاهـرات تخـرج . . وعـزلـوا الحـاكـم الدولى داخل المبنى وحـاصـروه هو وقـواته من البـوليس الدولى . . وكـان المتظاهـرون عُزلاً من السلاح . . بينمـا البـوليس الدولى مسلح بكل أنواع السـلاح . . وكانوا يحملون لافتات كتب عليها بالانجليزية : « نريد العودة إلى مصر . . اخرجوا من أرضنا أيها الدوليون » .

وقـام جماعـة من الشباب الفلسطينى بتسلق المبنى من الخارج حتى وصلوا إلى الدور العلوى وتعلقوا بعلم الأمم المتحدة وأخذا يمزقونه ويحرقونه بين صيحات الجماهير الهادرة .

وكـان بين الحرس الدولى جنود سويديون . . فأطلق أحدهم النار على أحد الشباب الذى أنزل العلم . وهو محمد على مشرف ، فسقط قتيلاً من فوق المبنى .

اشتد الغضب بالجماهير . . ورغم أنهم عزل من السلاح ، إلا أنهـم شددوا حصـار المبنى ، ووقـف رجـال البـوليس الـدولى يسـددون سلاحـهم فى وجـوههم . . وكـادت أن تحدث مذبحة لا يعلم إلا الله وحده مداها .



جنازة الشهيد البطل محمد على مشرف .. الذى قتله جنود الأمم المتحدة عندما دخلوا قطاع غزة ..

فى تلك الأثناء كان قائد قوات الحرس الدولى يستغيث باللاسلكى مع كل الجهات فى العالم . . مع هيئة الأمم المتحدة ، والمستر داج همرشولد شخصياً . . ومع القيادة المصرية . . والقيادة الإسرائيلية .

وأخيراً جاء الفرج الذى أنقذه من المذبحة . فقد وافقت الأمم المتحدة على انسحاب الدوليين إلى الحدود بعيداً عن الأهالى ، وعلى حضور حاكم عام جديد من مصر إلى قطاع غزة ومعه هيئة من ضباط القيادة المصرية . . وفريق من الأطباء والمدرسين والقضاة .

واستغاث القائد الدولى بقائد قوة البوليس الفلسطينى وطلب منه أن يعلن هذه الأخبار على المتظاهرين وأن يطلب منهم الهدوء والانصراف . وكان الضابط الفلسطينى حسن الحظ لبقاً حسن التصرف . . فقد نبه المتظاهرين أن هؤلاء الدوليون ما جاؤوا ليحكمونا ويتحكموا فينا . بل ليحموننا من بطش العدو إسرائيل . . وأن قائدهم كان سيىء التصرف ولكنه يعتذر بكل أسف عن أخطائه . . ووعد بتعويض أسرة الشهيد محمد على مشرف ، وقال لهم : أنه لا داعى لعداوة الدوليين .

وما أن سمعت الجماهير أن الإدارة المصرية ستعود إلى غزة ، حتى علا هديرهم : « مصر . . مصر . . عاشت مصر . . عاشت العروبة . . إلينا يا مصر » .

وحمل البوليس الفلسطينى جثمان الشهيد محمد على بعد أن لفوه فى بطانية . . وتسلمته الجماهير وهى تهتف من أعماقها : « الله أكبر . . الله أكبر . . إلى جنة الخلد يا شهيد غزة » .

وانطلقت المظاهرة نحو بيت الشهيد وهم يحملونه على أكتافهم . وفى اليوم التالى خرجت جنازة الشهيد من بيته . . جنازة لم أشهد لها مثيلاً فى حياتى ، فلم يبق فى بيوت غزة كلها أو مخيمات اللاجئين رجل أو امرأة ولا طفل ولا كهل إلا خرج فى الجنازة . وكانوا يحملون لوحات كبيرة كتب عليها بالانجليزية اسم الشهيد وقد سهروا طوال الليل يكتبونها بعناية فائقة . ويبدو أن أهل غزة أصبحوا يتقنون فن الجنازة من كثرة جنازاتهم وأحزانهم . فهى وسيلتهم للتعبير عن مشاعرهم . ولجمع صفوفهم . وللضغط على خصومهم ، وللمطالبة بحقوقهم . . بل هى أقوى أسلحتهم التى لم يستطع أى عدو أن يحرمهم منها . . وقد شاهدت بنفسى الرعب الذى أصاب الدوليين بمجرد سماعهم بخروج الجنازة رغم علمهم جيداً أن غزة كلها خالية من أى سلاح . .

وأعجب ما فى جنازات غزة أن هذه الآلاف يظهرون فى لحظة واحدة . . وكأنهم على موعد . . وبدون إذاعات أو ميكروفونات أو ورق مكتوب . . وخرجت للمشاركة

في الجنازة . . فما أن لمحنى شباب مخيم جباليا الذى أعمل فيه ، حتى أقبلوا علىّ يهنئوننى من قلوبهم : « مصر ستحضر يا دكتور . . انتصرنا يا دكتور » . ومن فرط حماسهم حملونى على الأكتاف . . وهم يهتفون : « تحيا مصر » . . وكلما طلبت منهم أن ينزلونى حتى لا أرهقهم . . كانوا يقولون لى : « صمدتم معنا . . وتعذبتم معنا . . وتعرضتم للموت من أجلنا . . إنت وزملاؤك الأطباء المصريون . . الذين رفضوا العودة إلى أهليهم فى مصر . . فكيف لا نحملك على رؤوسنا وأكتافنا » . . ولأول مرة منذ بداية العدوان الوحشى الإسرائيلى . . حتى نهايته . . تتدفق الدموع من عينى . . ولكنها هذه المرة دموع الفرج .

وقد ذكرتنى قصة الشهيد محمد على بالقصة المشهورة التى تحولت إلى فيلم سينمائى بعنوان : « كل شىء هادىء فى الميدان الغربى » . وهى قصة جندى ألمانى ظل يحارب خلال أربع سنوات فى الحرب العالمية ونجا من كل شىء حتى أُعلن وقف الحرب . . وجلس يكتب مذكراته وهو فى الخندق . . فأصابته رصاصة طائشة فقتلته والقلم فى يده بدلاً من المدفع . . فكان مثل محمد أول شهيد فى وقت السلم .

العودة إلى مصر

سألت نفسى أكثر من مرة . . وأنا أعيد صياغة هذا الكتاب بعد مضى قرابة الأربعين عاماً على مذابح سنة ١٩٥٦ : هل من واجبى أن أذكر شيئاً عن نفسى فى تلك الأيام وأتحدث عن ظروفى الخاصة كإنسان وطبيب ومواطن مصرى . . لقد كان حديثى منذ البداية قاصراً على مشاهداتى فى تلك الفترة . . وما كان يدور حولى وأمام عينى . . ولكنى أشعر الآن أن من حق القارىء علىّ أن يعرف شيئاً عن ظروفى الخاصة ، لأنها جزء لا يتجزأ من هذه الأحداث .

لقد كنت فى ذلك الوقت فى الثلاثين من عمرى . . وكنت حديث عهد بالزواج . . ومن باب الصدف أننى تزوجت أنا وصديقى الشهيد الدكتور / عبد المنعم حافظ فى نفس الوقت . . وقد نزلنا معاً فى القطار من غزة إلى مصر فى أجازة للزواج . . وقبل حدوث العدوان كانت الزوجتان قد نزلتا إلى مصر لولادة أول مولود لنا . . وكان يحدثنى أنه سوف يسمى ابنه (عمرو) أما أنا فأسمّى ابنى علاء . فكنت من باب المداعبة أنا وزملائى أناديه بـ (أبو عمرو) وينادينى بـ (أبو علاء) . لأن من عادة أهل غزة أن يكنّوا عن كل

شخص باسم ابنه . وعندما حدث الاحتلال الإسرائيلى كنا نتحدث معاً أن هذين الطفلين سيكون فيهما بركة . . فقد أنقذا والدتيهما من حوادث الاعتداء على النساء من جنود إسرائيل .

وفى بداية الاحتلال لم يستطع أحد منا الاتصال بأهله لكى يطمئنهم عن نفسه . . وكانت مكاتب هيئة الأمم التى أعمل معها لا تفيد أهلى وزوجتى بشىء عنى . . وتكتفى أن تسلمهم راتبى الشهرى دون أن تذكر إن كنت حياً أم ميتاً . . وشاء القدر الغادر أن يستشهد الدكتور عبد المنعم حافظ دون أن يرى ابنه عمرو . . وعندما نشرت فى جريدة الأهرام فى شهر سبتمبر سنة ١٩٩٥ قصة استشهاد الأطباء فى مذبحة مستشفى خان يونس التى رويتها سابقاً . . جاءت محطات التليفزيون فى أمريكا وأوروبا لكى يأخذوا منى شهاداتى عن جرائم إسرائيل ونشرتها على العالم . وإذا بتليفون يأتينى من أمريكا ويقول : أنه عمرو عبد المنعم حافظ ابن الشهيد ويشكرنى على ذكر والده . . وقد علمت أن والدته قد هاجرت به إلى أمريكا وهو طفل صغير وأنه قد نبغ وأصبح أستاذاً فى علم الكمبيوتر فى أمريكا . . وبعث الدكتور عمرو بصورة والده كما طلبتها منه . . كما بعث إلىّ بصورة من هذه الرسالة التى نشرها فى جريدة (نيويورك تايمز) الأمريكية عن حوادث إعدام الأسرى المصريين وإعدام والده .

Editor, New York Times
229 W. 43 Street
New York, NY 1003

Dear Editor;

I am the son of one of the POWs that were killed by the Israelis in 1956. My father was not an ordinary POW, he was a physician and chief of staff of the hospital in Khan Younis (the killing of medical personnel is in violation of the Geneva Convention)

As the facts come to the forefront, it is clear that military men make judgments that will affect the lives of innocent people for many years.

I have lived with this pain all my life, and now I would like all the facts to be known.

Due to my mother's courage, my life has been a positive one ; but what of the other victims' children ? They were deprived of their parents' affection.

I would appreciate your printing the attached letter in your editorial section, since the New York Times has brought the subject to the public's attention. In this way, may be, some of the other victims can find acknowledgment of the terrible blow that they have been dealt.

Sincerely,

Amr A. Hafez
167 Joseph Road
Boxborough, MA 01719

أعود بالقارىء إلى ما حدث معى . . فبعد انتهاء العدوان سافرت إلى مصر بطائرة الأمم المتحدة لأن القطار كان معطلاً . وفى المطار اتصلت بوالداى وزوجتى . . ولم أشأ أن أخبرهم أننى وصلت إلى القاهرة حتى لا تكون المفاجأة فوق احتمالهم . . بعد أن ظنوا مدة طويلة أننى ميت . . بل قلت لهم : إننى أتكلم من غـزة وأننى سأحضر قريباً إلى مصر . وبعد ساعتين تقريباً كنت أطرق عليهم الباب . . وكانت مفاجأة ظللنا نضحك عليها زمناً طويلاً .

* * *

والآن قد يتساءل القارىء . . كما سألنى الكثيرون ممن قرأوا فى الصحافة مذكراتى عن طوابير الإعدام ومذابح الأطباء . . كيف كان تأثير هذه المشاهد البشعة عليك نفسياً . . وأقول لهم : إننى أثناء العدوان لم أكن أحس بشىء على الاطلاق ، ، لا خوف ولا طمأنينة . . كانت أحاسيسى قد تبلدت من شدة العنف وتلاحق الأحداث . . وكما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ **وجاءت سكرة الموت** ﴾ ومعنى السكرة هنا أنها نوع من التخدير بحيث لا يشعر الإنسان بالألم عند حدوث الموت . فكان هذا شعورى . . ولكن بعد أن انقشع العدوان وزال الرعب . . أصبحت إنساناً آخر يختلف عن كل ما مضى من عمرى .

حقيقة إننى فى عقلى الباطن كنت أصاب فى أحلامى بكثير من الكوابيس ، وقد ظلت الأحلام المزعجة تطاردنى مدى الحياة من هذه الذكرى المؤلمة رغم اهتمامى بعلاجها أو نسيانها . ولكن المهم هو عقلى الواعى .

إن المحنة تجعل الإنسان أكثر عمقاً فى تفكيره . وأكثر تأنياً فى أحكامه . . وتجعله يحب الاطلاع والمعرفة . . إنها تصقل العقل .

فرغم أننى لم أترك ممارسة الطب كطبيب وقائى . . إلا أننى بدأت القراءة بشغف ونهم شديدين . وكانت ظروفى فى الكويت تساعد على ذلك لتوفر المكتبات العامة فى كل حى صغير أو كبير وسهولة الاستعارة . . ووصل الأمر أن أقرأ كل يوم أو يومين كتاباً جديداً . . سواء عربياً أو أجنبياً . . وكنت ألخص النقاط الهامة فى كل كتاب فى مفكرة خاصة . . لقد بدأت بالقراءة عن إسرائيل . . ثم تطرقت إلى القراءة عن الديموقراطية باعتبار أن غيابها هو السبب فى كل تخلفنا وهزائمنا وخلافاتنا وضعفنا . . ثم عن الأديان المختلفة . . ثم الحروب المختلفة . . ثم زعماء العالم ونضال الشعوب . ثم درست الإسلام والتحقت بمعاهد العلوم الإسلامية بالانتساب لدراسة الفقه والشريعة . . ولم تكن

قراءاتي فى مجال واحد أو اتجاه واحد . . بل كنت أقرأ أيضاً فى الموسيقى والمسرح والغناء والرحلات .

ومع هذه الحصيلة التى استمرت لعدة سنوات بدون توقف أو انقطاع . . أحسست بأننى يجب أن أكتب وأن أعبر عن أفكارى . . لإصلاح وطننا الحبيب مصر . . وإنقاذ العروبة . . وخدمة الإسلام .

وقد بلغت الكتب والمؤلفات والمراجع والمحاضرات التي ألفتها . . بالعشرات ذكرت منها بعضها فى نهاية هذا الكتاب .

كل هذا بفضل المحنة التى مررت بها أثناء العدوان الإسرائيلى وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم** ﴾ .

قضية فلسطين
هى شاغلى الأول

الأثر الثانى لهذه المرحلة أننى تعلقت بقضية فلسطين وبشعب غزة بالذات . . حقيقة أننى تركت غزة بعد سنة ١٩٥٧ ولم أعد إليها بعد ذلك . . ولكنى ارتبطت ارتباطاً ذهنياً وعاطفياً بأهلها . . سكان الخيام وسكان المدن . . المقيمون فيها والمهاجرون منها . . وعندما قامت ثورة الحجارة . . وكل يوم يقتل الإسرائيليون طفلين أو ثلاثة من أطفال الحجارة . . كنت أحس أنهم يقتلون أولادى وأولاد إخوتى وأحفادى . .

وعندما حدث الصلح مع إسرائيل فى طابا . وابتدأت بشائر الدولة الفلسطينية تظهر . . انتابنى نوع جديد من القلق على مستقبل هذه الدولة . . بدأت أخاف أن يحدث لها ما حدث مع كثير من الدول العربية الإسلامية الحديثة عهد بالاستقلال مثل أفغانستان والجزائر . . الذين ظلوا متحدين طالما كان العدو أمامهم . . فلما زال الاحتلال الأجنبى وأصبح الحكم بأيديهم . . إذا بهم يتقاتلون فيما بينهم قتال الموت بسبب غياب الفكر الديموقراطى والصراع على كراسى الحكم .

وإذا كانت إسرائيل قد وصلت إلى جميع بلاد العالم ونبغت فى بعث الفتن والتطرف والإرهاب فى كل بلد عربى وإسلامى ، ومنها مصر والجزائر . فإن فلسطين ستصبح لقمة

سائغة لهم . . يتسلّون عليها . . ويستمتعون بتمزيقها لا قدر الله . . لكى يتشدقوا أمام العالم إن هؤلاء العرب لا يستطيعون أن يحكموا أنفسهم . . وكان خيراً للعالم أن يترك إسرائيل لكى تحكمهم من أجل صالحهم وصالح الإنسانية .

ثم وصل أبو عمار قائد الثورة الفلسطينية إلى غزة . وابتدأت محادثات السلام مع إسرائيل . . وبهذه المناسبة فإن الشبه بينى وبين أبو عمار كبير جداً ، إلى حد أننى فى الكثير من أسفارى وتنقلاتى فى أوروبا وأمريكا كانوا يظنوننى أبو عمار أو شقيقه . ولاشك أن هذا الرجل يشغل فى نفسى ونفس كل عربى مكانة كبيرة لصموده فى الكفاح على مدى أربعين عاماً رغم المحن الكبيرة التى تعرض لها .

وفى مرحلة من المراحل . . وتحت تأثير الانفعال النفسى . . ابتدأ أبو عمار يأتى بالخطب الرنانة والتصريحات النارية . وعندما قال فى وقت من الأوقات عن جيرانه : « فليشربوا من البحر » انتابنى فزع شديد عليه وعلى مستقبل الثورة الفلسطينية . فقبل ذلك قالها جمال عبد الناصر عن أوروبا وأمريكا ، فكانت النتيجة أن شرب الشعب المصرى من البحر على مدى أعوام طويلة . وقد كانت نتيجة تصريح أبو عمار أن رد عليه الملك حسين بأن ذكّره بأيلول الأسود . . وردت عليه إسرائيل بما هو أسوأ .

فى ذلك الوقت كتبت فى الصحافة المصرية عتاباً أخوياً إلى أبو عمار . أناشده فيه بأن يبتعد عن الخطب الانفعالية التى قد تثير الحزازات والخلافات فى وقت أصبحت فيه فلسطين أشد حاجة إلى فتح صفحة جديدة من التعاون البناء مع جيرانها وأولهم الأردن وسوريا . . بل أيضاً مع إسرائيل .

وقد قلت فى هذا المقال إن هناك فارقاً كبيراً بين أبو عمار قائد الثورة الذى يستطيع أن يقول ما يشاء دون أن يحاسبه أحد . . وبين أبو عمار قائد الدولة الذى تحسب عليه كل كلمة ، وخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الدولية . . ومع الجيران .

وقد حمدت الله أن هذه الفترة الانفعالية قد زالت وانتهت عندما وجدت أبو عمار يصافح بحرارة الملك حسين ورابين من أجل صالح شعبه ومستقبل الدولة الوليدة .

ومن أهم ما يشغل بالى وقلقى على الدولة الوليدة **قضية الديموقراطية** . . وللأسف الشديد أنه لا يوجد فى العالم العربى كله . . ولا العالم الإسلامى كله . . نموذج واحد من

الديمقراطية الحقة حتى يقتدى به الفلسطينيون . . وللأسف أيضاً فإن النموذج الوحيد الصحيح هو المطبق فى إسرائيل .

لقد ألفت عدة كتب عن الديموقراطية . . منها كتاب « الحرية السياسية أولاً » و « الحرية السياسية فى الإسلام »وأخيراً « الإسلام والديموقراطية » .

وكان **الهدف الأول** من ذلك أن أشرح المفهوم الحقيقى والتطبيق الآمن للديموقراطية . لأن جميع القادة والزعماء فى دول العالم الثالث يطلقون على حكمهم اسم الديموقراطية لمجرد التعميه مهما كان حكمهم فردياً أو استبدادياً .

والهدف الثانى : أن أبيّن أهمية الديمقراطية فى إنقاذ أى دولة ناشئة من الخلافات والصراعات الداخلية حين يستبد فريق واحد بالحكم ويعزل الآخرين ، كما يحدث اليوم فى أفغانستان وغيرها مما يؤدى إلى الحرب الأهلية . . والديموقراطية تمنع الأخطاء والانحرافات بسبب وجود معارضة قوية تنبه الحاكم وتحاسبه عن كل خطأ أو تهاون فى شئون لرعية . . والديموقراطية هى صمام الأمان ضد التطرف والعنف والإرهاب ، لأن كل فرد إذا وجد متنفساً له من خلال القنوات الشرعية يعبر فيه عن رأيه فلن يحتاج إلى العنف فى إيصال رسالته . . والديموقراطية هى التى تصلح الاقتصاد وتقضى على الروتين والبيروقراطية .

ولتحقيق الديموقراطية يجب أن تتحول جميع فصائل المقاومة الفلسطينية ومنها حماس إلى أحزاب سياسية . . وأن تدخل الانتخابات بحرية دون قيود أو عقبات ولتقل ما تشاء فى البرلمان . . والرأى النهائى للأغلبية .

والاقتصاد من أهم المشاكل التى ستواجه الدولة الفلسطينية . . وهو يأتى فى المرتبة الثانية بعد الديموقراطية . . فتعداد فلسطين الحديثة سيكون ٥ ملايين . . وستكون الزيادة سريعة جداً . . والرقعة ضيقة والموارد تصل إلى الصفر تقريباً . . ولا يمكن لهذه الدولة الوليدة أن تعتمد على الطرق التقليدية القديمة مثل الزراعة . . ورعى الأغنام . . والتجارة . . فهذه الأعمال القديمةلا تصلح للدولة الناشئة . . ولابد من خلق نوع جديد من الصناعة التصديرية . . فإسرائيل مثلاً تعتمد على الصناعات الالكترونية الحديثة وعلى تقطيع الماس والجواهر النفيسة . . وعلى الزراعة الحديثة بدون تربة وبالهندسة الوراثية . . فقد أصبحوا الدولة الأولى فى العالم فى هذه المجالات .

ومثل هذه الصناعات المتطورة تحتاج إلى تكنولوجيامتطورة جداً . . وقبل كل هذا إلى عمال ذوى مهارات فنية عالية . . وقد تدرب عمال فلسطين فى المصانع الإسرائيلية . وقد قرأت فى بعض المصادر أن عددهم لا يقل عن ربع مليون عامل. وطبعاً إن العدو لن يعطيهم إلا الأعمال البسيطة جداً ويتركون التكنولوجيا العالية لعمالهم وهذا أمر طبيعى . . ولكن إذا فتحت فلسطين المدارس الفنية من أوسع أبوابها لأبنائها فسوف تنتج فى القريب العاجل جيلاً جديداً من المهارات الفنية ، يكون أساس النهضة الاقتصادية الجديدة .

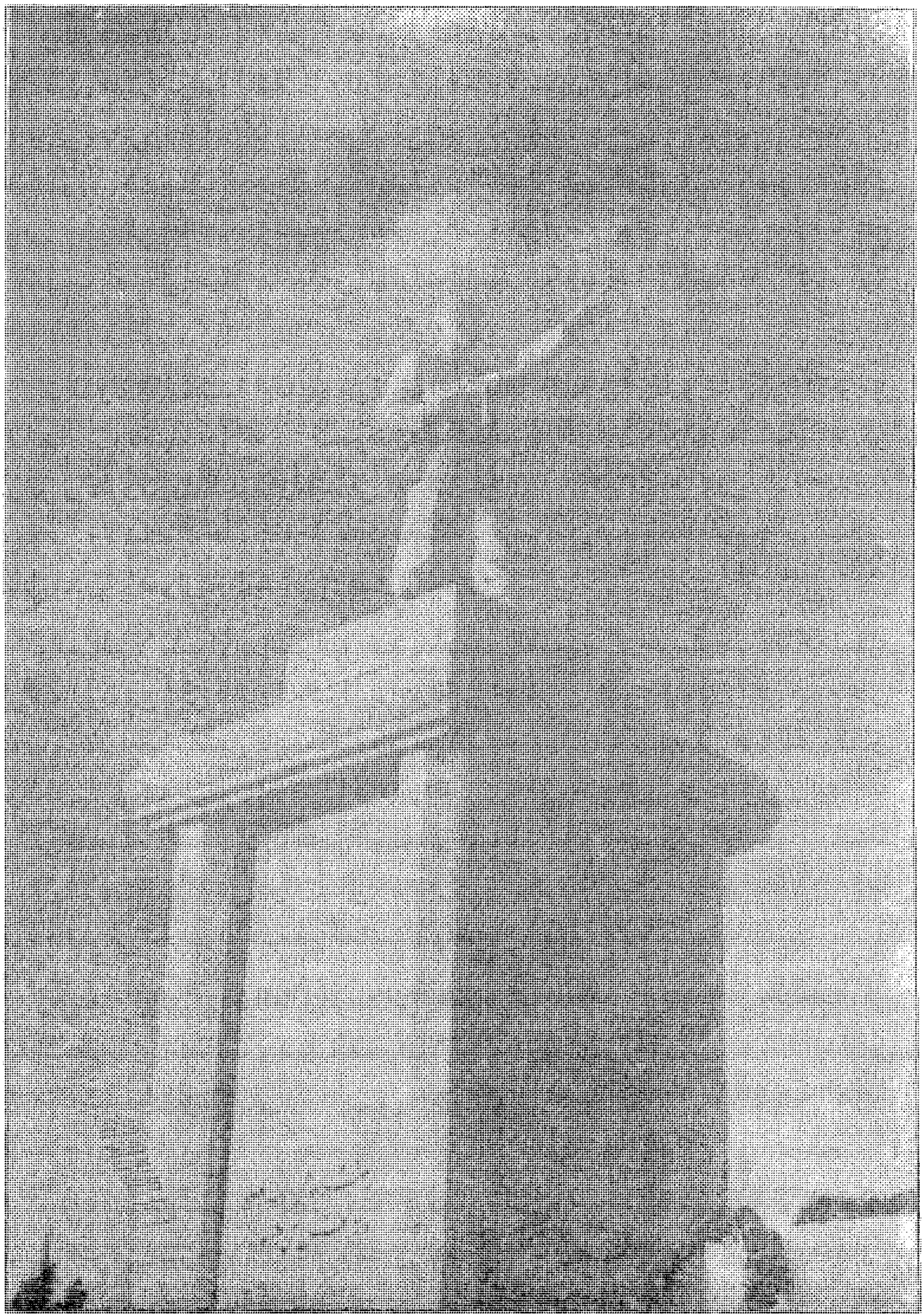
إن الدولة الفلسطينية الجديدة سوف تواجه تحدياً حضارياً خطيراً قد يكون أكبر من طاقاتها . . ولكنها أهل له . . فسوف ينظر العالم إلى دولتين جارتين متشابهتين فى الأرض والظروف والمكان . وأيضاً فى تعداد السكان . . فكل منهما قرابة الـ ٥ ملايين نسمة . . ولاشك أن هذه المقارنة ستكون ظالمة . فإسرائيل قد وصلت اليوم إلى امتلاك القنابل الذرية وصواريخ الفضاء والأقمار الصناعية .

والعالم لا يقول إن إسرائيل قد بدأت من القمة . . حيث جاءها العلماء والرأسماليون من شتى أنحاء العالم ليبنوا دولة من الصفر . . بينما فلسطين تبنى اليوم على أكتاف سكان الخيام الذين كانوا محرومين من الغذاء الجيد والتعليم ، كل هذه الفروق لن تهم العالم . ولكنه سيقول إذا فشلنا لا قدر الله . . إن الإسلام هو الذى فشل ، واليهودية هى التى نجحت . سيقول إن الدين اليهودى قد خلق دولة ناهضة من الصفر . . بينما الإسلام لم يستطع أن يبنى دولة تساير الحضارة . وسيكون الإسلام هنا هو المظلوم . كما ظُلم من قبل فى الحرب الأهلية فى أفغانستان والجزائر وغيرها .

ومن هنا أقول . . إن العالم الإسلامى والعربى كله مطالب بمواجهة هذا التحدى فى دولة فلسطين . . مطالب بمد يد العون الاقتصادى والعلمى . . وبناء المدارس والجامعات . . والمصانع فى فلسطين . . حتى تكون واجهة جديدة . . لنهضة العرب والإسلام .

ومن دراستى لتاريخ الحضارات . . فإننى واثق أن هذه النهضة ممكنة فى فلسطين بالذات أكثر من غيرها ، لأن بناء دولة من الصفر . . أسهل بكثير من الترقيع ومحاولة الإصلاح فى دولة قديمة يقتلها الروتين والبيروقراطية .

* * *



النصب التذكارى لشهداء غزة سنة ١٩٥٦

الباب الثانى

إسرائيــــل كما يجب أن نعرفها

الإعلام العربى ودوره فى مواجهة إسرائيل

لاشك أن هنالك فارقاً ضخماً بين « إسرائيل كما يجب أن نعرفها » وبين إسرائيل التى نعرفها فعلاً . . وأقل ما يقال عن هذا الفارق أنه هو نفسه الفارق بين الهزيمة والنصر . . فمن أسباب انتصار إسرائيل علينا أننا كنا لا نعرف شيئاً عنها ولا عن مخططاتها وأهدافها واستعدادها . بل كان القدر الضئيل الذى نعرفه نتجاهله ونغمض أعيننا عنه .

وتحضرنى بهذه المناسبة قصة طريفة عن مونتغومرى قائد قوات الحلفاء فى شمال أفريقيا أثناء الحرب العالمية الثانية . . فقد كتب فى مذكراته أنه كان يضع فى مكتبه مجموعة من الصور لشخص واحد . ولم يكن هذا الشخص هو زوجته أو أولاده . . أو رئيس وزراء بريطانيا تشرشل أو ملك بريطانيا . . ولكنها كانت صور عدوه روميل . . وعندما سأله بعض الناس فى ذلك قال : أنه يدرس وجه روميل ونفسيته ، وطباعه . . وأنه يعرف حتى عاداته ومواعيد نومه وطعامه ، فإذا عرف نقاط الضعف والقوة فيه أمكنه أن يقضى عليه . . وبهذه الطريقة انتصر عليه فى معركة العلمين . وهزم ثعلب الصحراء الرجل الأسطورى الذى كان يظن أنه لا يقهر .

وفى الوقت الذى كنا لا نعرف فيه شيئاً عن إسرائيل . . كانت إسرائيل تعرف كل شىء عنا . . حتى عن خفايا حياتنا . . ونقاط الضعف والقوة فينا . . وأثناء العدوان الثلاثى كان رئيس وزراء إسرائيل نفسه من المهتمين بالشؤون العربية ، كما كان وزير خارجيتها يعمل مدرساً للغة العربية والأدب العربى فى جامعة كامبردج بانجلترا . . وقد ترجم عدة كتب عن العربية إلى اللغات الأخرى ، ومنها مؤلفات نجيب محفظ وتوفيق الحكيم ، بل أكثر من هذا ، ألف كتاباً عن القومية العربية وأثرها فى العالم المعاصر . ومن الأسرار المروعة التى أذيعت بعد حرب الأيام الستة ، أن إسرائيل كانت تعرف عنا حتى أدق أسرارنا ، ابتداء من الشفرة السرية فى الجيوش ، والمكالمات التليفونية بين الرؤساء ، إلى مواعيد نوم القادةوالضباط ، ومواعيد طعامهم وراحتهم . وكانوا يعرفون عن المشير عبد الحكيم عامر بالذات بطل الهزائم والنكسات عام ٥٦ وعام ٦٧ . . يعرفون عنه أسراراً لا يعرفها الشعب المصرى نفسه . لأن هذه الأسرار كانت محظورة على المصريين مباحة للعدو .

وهذه المعلومات كلها كانت العامل الحاسم فى انتصارهم علينا فى الحربين ، وفى نجاحهم فى كل مرة فى تدمير الطيران المصرى وهو رابض على الأرض .

أما معلوماتنا عن إسرائيل فمعظمها معلومات سطحية يغلب عليها طابع السخرية والاستهار . . فإسرائيل ليست شيئاً فى نظرنا أكثر من أنها إسرائيل المزعومة أو « دولة العصابات » ، أو « الدولة المسخ » ولم نحاول التعمق أكثر من هذا لكى نخرج عن مستوى الشتائم والتعصب إلى مستوى الدراسات العلمية .

ولهذا السبب ، فعندما دخلنا حرب ١٩٤٨ بجيوشنا العربية فرح العرب جميعهم وقالوا : « كلها ساعات ونصل تل أبيب » .

ومضت أيام وإذا رقعة إسرائيل قد اتسعت وزادت حتى عن حدود التقسيم . بينما زاد لدينا عدد خيام اللاجئين .

وجاءت معركة ١٩٥٦ وتلتها النكبة الأخيرة عام ١٩٦٧ . . ولعلنا نتذكر أن مئة مليون عربى من الجزائر حتى الكويت كانوا يجلسون بآذان مرهفة يستمعون إلى الراديو وهم يقولون : « كلها ساعات ونصل تل أبيب » . فلما انقلب الأمر بالعكس أصيبت الأمة العربية بصدمة مذهلة فى آمالها وأمانيها . . حتى أسمينا الهزيمة العادية التى قد تصيب أى جيش فى التاريخ بالنكسة وليست الهزيمة . . وكل هذا يرجع إلى أننا ندخل كل معركة دون أن نعرف شيئاً عن حقيقة عدونا . . بل أكون أقرب إلى الحقيقة إذا قلت أننا ندخل بفكرة مضللة عن قوته . . ولو كنا نعرف شيئاً عنه لأعددنا له لا القوة العسكرية فحسب ، ولكن أهم من هذا القوة النفسية والمعنوية التى تتناسب مع طاقاته وإمكانياته أ و تزيد .

ويجب أن لا ننسى حقيقة هامة جداً كان لها أثر كبير فى حروبنا مع إسرائيل :

وهى أن طريقتنا فى الدعاية المحلية تؤثر تأثيراً سيئاً على نفسية الجندى المحارب فى الميدان أكثر مما تؤثر على نفسية المدنى فى بيته . . فالجندى الذى يدخل الحرب وهو يتوقع أن يجد عدواً هزيلاً قليل العدد جباناً يفر من أمامه إذا صاح فى وجهه صيحة عالية ، كما تصوره دعايتنا ، إذا وجد عدوه عكس ما توقعه . . ورآه عنيداً متفانياً ومدرباً ، وإذا وجد أن هذه الحرب التى دخلها معتقداً أنها مسألة ساعات ويصل إلى تل أبيب تصل إسرائيل إلى مقربة من عواصمنا : مثل هذا الجندى لابد أن يصاب بالانهيار النفسى .

لقد كانت هناك آراء عديدة فى موضوع الاعلام العربى . . ومنهجه : كان هناك رأى يقول أن واجب الإعلام العربى من صحافة وإذاعةوكتب فى موضوع إسرائيل . . هو رفع الروح المعنوية للمواطن العربى بأى وسيلة ولو كانت هذه الوسيلة هى إخفاء بعض الحقائق عن أى نجاح تحققه إسرائيل فى أى مجال علمى أو اجتماعى أو اقتصادى . . وإظهار دولة إسرائيل دائماً بمظهرالدولة الضعيفة التى تحمل فى مولدها عوامل دمارها انهيارها . وأن أقل مجهود منا سوف يقضى عليها فى ساعات . وهناك رأى آخر يقول : إن شعبنا العربى مؤمن بالله . مؤمن بقضيته . وأنه لا يخشى عليه من الضعف أو الإنهيار إذا علم شيئاً عن قوة أعدائه وتقدمهم ، بل سيكون ذلك حافزاً على اليقظة والعمل والاجتهاد حتى يلحق بهم أو يتفوق عليهم . وأن حجب المعلومات الصحيحة عن الناس سيصبح أمراً أقرب إلى تضليلهم منه إلى رفع روحهم المعنوية . . لأن نتيجة هذا التضليل أن النا س سيتكاسلون عن العمل وعن الجهاد . . وسيقعد كل فرد فى بيته لا يعمل شيئاً أكثر من الاستماع إلى الراديو فى بيت مريح وهو يقول : « كلها بضعة ساعات ونقضى عليهم » . ويهمنى هنا أن أضرب مثلاً رائعاً عن وسائل الإعلام منذ أربعة عشر قرناً من الزمان . . هذا المثل هو من صنع الله تعالى وفى كتابه الكريم . . فلم يحاول الله أن يقلل من شأن قوة الكفار فى قتالهم للمسلمين . . بل يقول : ﴿ **سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله . قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون** ﴾ . لم يقل القرآن أن الكفار ضعاف أو منهارون ، ولم يقل للمسلمين أنكم ستقضون عليهم فى ساعات . هكذا يجب أن يعرف شعبنا الحقيقة كما هى بدون زيادة ولا نقصان ، وحتى لو كانت الحقيقة مرة فمعرفتها خير ما يبعث اليقظة ويشحذ الهمم . . وإذا قال بعض الناس أن بعض الحقيقة لو ذُكر لأثار القلق والبلبلة بين الناس ، فنقول لهم : مرحباً بالقلق ، لأن القلق هو بداية اليقظة ، واليقظة هى بداية التفكير ، والتفكير هو مقدمة العمل ، فبغير أن نشعر بالقلق لن نعمل شيئاً لإنقاذ بلادنا وسنظل نقف من قضيتنا قضية الحياة أو الموت موقفاً سلبياً وكل ما نمنحها من التأييد لا يتعدى سماع أخبارها من الراديو والإذاعات . . كأننا نستمع إلى أخبار قضية بعيدة عنا مثل قضية فيتنام تماماً .

لن أنسى أبداً ما حييت موقف الكثيرين من هذا الكتاب عندما أردت إعادة طبعه . . حيث قالوا إن الموضوع قد انتهى ومات وأن نشره بعد هذه السنين قد يثير المواجع والخوف والقلق . وأقول لهم تلك الحكمة التى قالها السيد المسيح : « طوبى للخائفين » لأن الذى يخاف هو الذى يعيش على الحذر . ويترك الغفلة والكسل ، ويعمل جاهداً للنصر . ولقد

كان أخشى ما تخشاه إسرائيل أن يشعر يهود العالم بالطمأنينة ، إلى أنها أصبحت فى سلام ولا خوف عليها من الجيوش العربية بعد النكسة الأخيرة سنة ٦٧ ، وبذلك يتقاعسون عن مساعدتها بالمال ومدها بالتأييد . وقد وقف أستاذ العلوم الاجتماعية فى جامعة تل أبيب يقول : « إن اليهودى الحق ، هو الذى يشعر أن هناك قضية يهودية ومشكلة يهودية حتى لو كان فى جزيرة نائية » .

ووقف بن غوريون يقول : « إن اليهودى الحق هو الذى يشعر بالاضطهاد ولو لم يكن هناك من يضطهده » . لهذا نجحت وسائل الإعلام فى إسرائيل ، فى حين فشلت وسائل الإعلام العربية .

فعلينا اليوم أن نتحرى الصراحة والصدق والأمانة فى دراسة العدو ومعرفته دون تقصير . . وفى الوقت نفسه دون مبالغة أو تهويل . فذلك خير من أن نتبع أسلوب النعامة فندفن رؤوسنا فى الوحل . وحل الغفلة والجهل .

تعداد إسرائيل

يقدر تعداد يهود العالم اليوم بـ ١٥ مليوناً . منهم ٥ ملايين فى إسرائيل و ٥ ملايين فى أمريكا والباقى متفرقون فى أنحاء العالم . وهم يدعون أن عددهم كان أكثر من ذلك ، إلا أن هتلر قد أباد منهم ٥ ملايين .

كذلك يقدر عرب فلسطين بـ ٥ , ٥ مليوناً ، منهم ٥ , ٤ مليوناً داخل إسرائيل ومليون مهاجر .

وكان تعداد إسرائيل قبل حرب سنة ٥٦ ، ٥ , ٢ مليون ، وظلوا يزيدون ويزيد عدد المستعمرات حتى يومنا هذا ، فهى دولة مبنية على التوسع الاستيطانى .

المهم أن هناك حقيقة يجب أن يعرفها كل عربى ولا يشك فيها ، وهى أن العدو الذى يحاربنا فى إسرائيل هو معظم هؤلاء الخمسة عشر مليوناً بجميع إمكانياتهم ومواردهم وليس المليونان ونصف أو الخمسة الذين يسكنون إسرائيل . وكل يهودى شاب فى أية بقعة من العالم له مكان فى جيش إسرائيل ويعرف رقم سلاحه وجواز سفره جاهز فى أية لحظة للسفر حين استدعائه . . وقد كان بين الأسرى الذين سقطوا فى مصر يهودى أمريكى يعمل حلاقاً فى نيويورك . . فما أن استدعوه حتى كان فى مركزه يقود طائرته فى إسرائيل بعد بضع ساعات من استدعائه . . وجيش إسرائيل هو الجيش الوحيد فى العالم بعد الجيش السويسرى الذى يمكن استدعاؤه فى بضع ساعات . لقد جاء فى تقرير دولى : « فى

خلال ٢٤ ساعة فقط يكون الجزء الرئيسى من الجيش قد اكتمل . . ولا تمر أكثر من ٧٢ ساعة حتى يكون آخر رجل قد أخذ مكانه » . فكل يهودى سواء كان عاملاً فى مصنع أم مغنياً فى الإذاعة يحتفظ بسلاحه فى منزله ويقوم بتنظيفه وإعداده بنفسه فى وقت فراغه .

وقد كنت أتعمد المناقشة مع الكثيرين من العساكر والضباط اليهود أثناء حكم إسرائيل لغزة ، وأثناء فترة الأسر فى عتليت فى سنة ١٩٥٦ . . فقال لى أحدهم وهو يهودى من العراق اسمه إبراهيم ، وهو من المعجبين بفريد الأطرش ويعزف موسيقاه ويغنى أغانيه . قال إبراهيم أنه يعمل مغنياً فى الإذاعة وعازفاً على العود ، وأنه يضع سلاحه فى بيته بجوار العود ، فيوماً يطلبونه ليعزف على العود فى الإذاعة ، ويوماً آخر يطلبونه لكى يتمرن مع زملائه على سلاحه . وقد ذكر لى ضابط يهودى اسمه (فكتور) أنه صاحب فندق كبير فى روما ، وإنه يعيش بصفة دائمة هناك ، . . وأنه كان يتناول العشاء مع أولاده فى فندقه فى روما عندما سمع إذاعة إسرائيل تعلن التعبئة العامة بالشيفرة السرية فقام من فوره وترك مائدة الطعام دون أن يكمله وكان واقفاً فى مركز قيادته فى تل أبيب بعد ست ساعات فقط من لحظة إعلان التعبئة العامة .

هذه هى إسرائيل من ناحية تعدادها . وإن كان التعداد لا قيمة له فى الحروب المصيرية قل أم كثر . . لأن النصر لا يبنى على تعداد الشعب ولا على كثرة أفراد الجيش ، النصر يتوقف على النوع أكثر مما يتوقف على الكمية . . ونوعية المواطن تتوقف على شيء واحد يأتى فى المرتبة الأولى قبل ثقافته وعلمه ، وقبل صحته وجسمه ، وقبل أخلاقه طباعه ، إنها تتوقف على معتقداته ، أى على عقيدته .

العقيدة هى التى تكيف أخلاق الإنسان وطباعه ، هى التى ترفع معنوياته ، وهى أيضاً التى تدفعه إلى الاستزادة من الثقافة والعلم . . والمحافظة على الصحة والبدن . . إنها كل شيء فى الحياة . وبدون العقيدة يصبح الإنسان حيواناً ناطقاً يعيش ليأكل . . و يأكل لأنه يجوع . فالحياة مفروضة عليه وليس له فيها دور إيجابى .

وشعب إسرائيل من هذه الناحية له عقيدة .

إنه يدين بالعقيدة الدينية أولاً . . ثم يدين بالعقيدة العنصرية ثانياً . . أما إسرائيل الدولة ، فإن نظامها الاقتصادى هو نظام شيوعى بحت ونظام الحكم فيها ديموقراطى حر .

وهكذا نرى أن إسرائيل دولة دينية وعنصرية وشيوعية وديموقراطية فى وقت واحد ، وإليك الدليل على كل واحدة من هؤلاء .

الديموقراطية فى إسرائيل
وأثرها فى استقرار الدولة ونجاحها
اقتصاديا وسياسيا وعسكريا

وصف المستر نيكسون الرئيس الأمريكى السابق دولة إسرائيل فى إحدى خطبه بأنها : « واحة الديموقراطيين فى الشرق كله » ومعنى كلمة واحة أن كل ما حولها صحراء جدباء ، وأنها هى وحدها فى المنطقة التى تتمتع بالديموقراطية . ويقول المستر أنتونى ناتنج وزير الدولة البريطانى فى كتابه المشهور : Isaw for mysell[1] رأيت لنفسى : « إن إسرائيل دولة أكثر ديمقراطية من الولايات المتحدة . . وأكثر اشتراكية من الاتحاد السوفيتى » .

والواقع أن الديموقراطية فى إسرائيل عملة ذات وجهين :

- وجه ديموقراطى مثالى للمواطن الإسرائيلى اليهودى وحده .
- ووجه دكتاتورى مثالى للمواطن الإسرائيلى من غير اليهود .

فالأقلية العربية المسلمة والمسيحية والدرزية فى هذه الدولة التى تمثل ١١٪ من سكانها لا تتمتع بأى حقوق سياسية وليست لها حرية شخصية ، بل أكثر من هذا تحرم من كافة حقوق الإنسان .

والآن ما هى مظاهر هذه الديمقراطية .

أولا - الأحزاب السياسية :

اتفق علماء التخطيط والسياسة فى الصهيونية العالمية على أن النظام المثالى لتحقيق حكم ديمقراطى مستقر فى دولة ناشئة هو النظام البرلمانى المتعدد الأحزاب .

- فعدم وجود الأحزاب يترك الأمة فى فراغ سياسى ويعرضها للدكتاتورية والانقلابات العسكرية .
- والاكتفاء بحزب واحد يحرم الأمة من المعارضة والنقد وكشف الأخطاء ، فهو لا يختلف كثيراً عن إلغاء الأحزاب .

---

(١) كتاب Isaw for mysell لأنتونى ناتنج وزير الدولة البريطانى الذى استقال من الوزارة احتجاجاً على العدوان الثلاثى على مصر .

- وإذاً لا يبقى إلاّ الحل الثالث وهو الحرية الحزبية المطلقة ، كما هو معمول به فى إنجلترا وأمريكا وفرنسا وغيرها من دول العالم الحر . . وهذا هو ما أخذت به إسرائيل من أوسع معانيه .

ويبلغ عدد الأحزاب التى تشترك فى انتخابات الكنيست الإسرائيلى واحد وعشرون[1] حزباً سياسياً . . ورغم هذا العدد الكبير بالنسبة إلى حجم الدولة ، فمازال القانون يسمح لأى فئة أو جماعة إقامة أى تنظيم تريده ، سواء كان سياسياً أو ثقافياً أو رياضياً أو تجارياً . . ولا يحتاج تكوين هذه الأحزاب السياسية إلى إذن خاص من الحكومة أو تصريح منها .

كل ما هو مطلوب لكى يصبح الحزب مسجلاً إرسال وثيقة عن أهدافه قد تقع فى بضع سطور أو فى مجلد كامل ، وقد يكفى نشر هذه الوثيقة فى الصحف اليومية ، ثم يمارس الحزب نشاطه الحزبى فى الحال .

والسؤال الذى يتبادر إلى الأذهان هو : هل من صالح أى أمة أن تكثر الأحزاب فيها وتتعدد بهذه الصورة . . ألا يؤدى ذلك إلى المزيد من الانقسام والخلافات .

والواقع أن الديمقراطية تحل دائماً مشاكلها بنفسها ودون حاجة إلى تدخل من السلطة . . فهذا التسامح الديمقراطى إزاء الأحزاب السياسية قد صفاها بطريقة طبيعية إلى حزبين كبيرين رئيسيين ، كما هو حادث فى انجلترا وأمريكا وفرنسا . . والحزب الرئيسى فى إسرائيل هو حزب الماباى أو حزب العمل ، والحزب الرئيسى المنافس له هو اتحاد الأحزاب الدينية اليمينية والمسمى(ليكود) . . كما أن هنك كتلة ثالثة من تجمع أحزاب اليسار .

ولكن من الملاحظ دائماً أنه لم يحصل أى حزب فى أى وقت على أغلبية مطلقة تخول له الانفراد بالسلطة . . فأعضاء الماباى فى الكنيست فى حدود الخمسين عضواً من مجموع ١٢٠ (مائة وعشرون) نائباً ، وهذه النسبة الصغيرة قد حافظت على التوازن والتعايش السلمى وجعلت معظم الحكومات الإسرائيلية عبارة عن حكومات مؤتلفة ، وكثيراً ما كانت الأحزاب الصغيرة عند اشتراكها فى الحكم مع الماباى (حفاظاً على مصالحها الشخصية) تعارض فى أن تتخذ الحكومة أى إجراء غير ديمقراطى بالنسبة إلى معارضيها خوفاً من أن يمسها هذا الإجراء فى نهاية الأمر عندما تصبح خارج الحكم .

---

(١) كتاب الحياة السياسية فى إسرائيل : رفيق حبيب مطلق .

ثانيا - الحريات الشخصية والسياسية :

رغم أن إسرائيل مليئة بالمعتقلات والسجون السياسية ، إلا أن هذه قاصرة على المواطنين العرب وحدهم . . وقد صرح مراقب الدولة الإسرائيلى فى الكنيست وهو يتحدث عن الأمن بأنه :

« لم يصدر أمر واحد فى إسرائيل بالإقامة الجبرية أو المنزلية ، أو أمر اعتقال سياسى أو نفى أو نقل أو مصادرة الأموال ، لأى مواطن يهودى منذ إنشاء دولة إسرائيل ، وأن استعمال[1] السلطة لهذه الأوامر قاصر على المواطنين العرب وحدهم » .

ورغم أن إسرائيل قد خاضت حتى اليوم أربعة حروب متوالية منذ إنشائها ، فهى لم تطبق حتى اليوم الأحكام العسكرية على المواطنين اليهود ، ولم تجد مبرراً للتفكير فى ذلك .

وليس لأى شخص ، مهما علا مركزه فى الدولة ، أى امتيازات على غيره من المواطنين . . ففى سنة ١٩٦٨ رفض الحاخامون تسجيل[2] زواج . . حفيدة بن جوريون مؤسس الدولة ورئيس الوزراء لأن والدتها غير يهودية ، مما اضطرها إلى إجراء هذه المراسيم خارج إسرائيل . . وبعد الانتصار السريع الذى حققه موشى ديان وزير الدفاع فى حرب الأيام الستة ، ابتدأت صحافة العالم تكيل له المدح وابتدأ هو بدوره يلقى بالتصريحات والأحاديث المغرورة ، فخرجت صحف إسرائيل كلها فى وقت واحد تهاجمه وتقول : « أسكتوا هذا المغرور » .

وكل مسئول بالدولة قبل تعيينه يؤخذ عليه قسم « بالمحافظة على دولة إسرائيل وبعدم المحاباة بين الناس فى عمله » .

والوظائف السياسية فى إسرائيل ليست حكراً على فئة معينة . وضباط الجيش ليس لهم أى تمييز فى الوظائف المدنية ، فكل مواطن فى الدولة له الحق حسب كفاءته ومقدرته فى الوصول إلى أعلا المناصب ، وتحرص إسرائيل فى هذا المجال على إتاحة الفرصة أمام الشباب والدم الجديد على أخذ دوره فى قيادة الدولة . . وهذا هو السبب الرئيسى فى كثرة التغيير فى الحكومات الإسرائيلية حتى بلغت ١٦ (ستة عشرة) وزارة منذ سنة ٤٨ . .

---

(١) محاضر الكنيست سنة ١٩٥٧ .

(٢) تنص قوانين الدولة فى إسرائيل فى تعريف اليهودى على أنه من ولد من أم يهودية فقط بصرف النظر عن أبيه .

وعلى كل وزارة تأتى شخصيات جديدة إلى الحكم ودم جديد . . وقد ساعد هذا على خلق جيل جديد من القادة السياسيين يمكنه أن يقوم بالمسئولية ويواصل المسيرة بعد الجيل العتيق الذى قام على أكتافه بناء الدولة .

ومن الملاحظ أن هذا المبدأ قد طبق بصورة أوسع فى قيادات الجيش ، حيث يراعى دائماً تجديد دم القيادات لإدخال الطرق الحديثة والمتطورة على نظم القتال .

وسيادة القانون واستقلال القضاء فى إسرائيل يعتبر مضرب الأمثال فى العالم كله . . فمنذ لحظة تعيين القاضى فى منصبه تفقد الحكومة أى سلطان عليه فلا يقال أو ينقل أو يحرم من ترقيته(١) ، مهما كانت ميوله السياسية ، والمحكمة الإسرائيلية تمثل مجلس الدولة أو ديوان المظالم وحكمها نافذ على الحكومة . . والعدالة وحدها لا تكفى إذا لم يتبعها سرعة وصول الحق ونفاذ الحكم . . وقد اتبعت إسرائيل نظاماً فريداً من نوعه للقضاء فى الأمور المستعجلة حتى لا يعرقل الروتين سير العدالة . . وبموجب هذا النظام يحق للقاضى أن يصدر أى حكم مستعجل وهو فى بيته والحكومة ملزمة بالتنفيذ فى الحال . . ومن الأمثلة الطريفة على ذلك عندما تولى وزارة الإعلام وزير يمينى متدين فأصدر أمراً بمنع البث التليفزيونى(٢) يوم السبت . . ولم يرق أحد المواطنين هذا القرار ، فرفع دعوى إلى قاضى المحكمة العليا فى بيته ، ذكر فيها أنه فى يوم راحته الوحيد يكون أكثر حاجة إلى البث التليفزيونى من أى يوم آخر ، وفعلاً أصدر القاضى قراراً عاجلاً يلغى أمر الوزير ، فعاد البث التليفزيونى فى نفس اليوم بعد أن توقف بضع ساعات فقط ، وعندما اجتمعت المحكمة العليا بعد ذلك بكامل هيئتها ، وهى خمسة قضاة ، أقرت حكم القاضى بإجماع الآراء ، وهكذا ذهبت صرخات وزير الإعلام المتزمت أدراج الرياح . . وكان أشد ما أثار سخطه أن القاضى قد حكم فى القضية يوم سبت وهو يوم يحرم فيه العمل فى الديانة اليهودية .

رابعا - حرية الصحافة والفكر والإعلام:

إن الوجه الديمقراطى الحقيقى لأى دولة هو الإعلام الحر .

وأقوى وسائل الإعلام هى الصحافة والتليفزيون .

---

(١) قانون القضاة فى إسرائيل سنة ١٩٥٣ ص ١٨٠ .

(٢) (دا فار) ٩/ ١١/ ١٩٦٥ .

وأول شروط حرية الصحافة أن تكون ملكاً خاصاً لأصحابها أو للأحزاب التى تتبعها وليست ملكاً للدولة أو الحزب الحاكم . .

لقد ابتدعت الاشتراكية الدولية فكرة تأميم الصحف بحجة أن تكون ملكيتها للشعب وهى فكرة مضللة ، لأن الصحيفة التى تتملكها الدولة تتحول بطبيعة الحال إلى أن تصبح بوقاً للحزب الحاكم تنطق باسمه وتدافع عنه . . والصحافة فى إسرائيل حرة وملك لأصحابها . ولا يوجد فى الدولة[1] أى رقابة عليها أو على الكتب والمجلات . . وليس هناك أسهل من استصدار إذن لصحيفة أو مجلة جديدة . وجميع الصحف الأجنبية (ماعدا العربية) تدخل إسرائيل دون رقابة ، وحتى الكتب التى تهاجم رئيس الدولة والوزراء ، أو تهاجم سياسة إسرائيل والصهيونية العالمية تباع بحرية فى الأسواق . بل أن بعضها يصدر من داخل إسرائيل .

والتليفزيون الإسرائيلى رغم أنه حكومى ، إلا أنه يتمتع بحرية كبيرة ، ففى أثناء أى انتخابات[2] نيابية تضع الدولة أجهزة الإذاعة والتليفزين تحت تصرف الأحزاب المعارضة لكى تبث منها دعايتها وتسمح بالمناظرات بين جميع المرشحين بما فيهم أعضاء الحزب الحاكم . وكثيراً ما يوجهون اللوم والنقد إلى الوزراء . والمشكلة الوحيدة التى كانت موضوع جدل بين السلطة والصحافة هى الموضوعات التى تتعلق بأمن الدولة . . وفى سنة ١٩٤٩ عقد اجتماع بين مندوبى الأحزاب السياسية والصحافة والحكومة وقد أبرم فيه اتفاق (جنتلمان) غير مكتوب تحدد فيه الموضوعات التى تمس أمن الدولة التى يحق للرقابة أن تتدخل فيها . . وبديهى أن نقطة الخلاف هى عندما تحاول السلطة تحت اسم أمن الدولة التدخل فى الصحافة فى مسألة سياسية مثل نقد الحكومة وسياستها الداخلية أو الخارجية .

وبموجب هذا الاتفاق أصبح على الحكومة أن تلتقى بأصحاب الصحف فى اجتماعات دورية للتفاهم حول هذه الموضوعات . . وإذا قام خلاف بين الطرفين فى تفسير قضية شائكة يعرض الأمر على لجنة تحكيم من ثلاثة أعضاء محايدين . . وكثيراً ما يحضر وزير الدفاع أو رئيس الأركان تلك الاجتماعات الدورية لاطلاع الصحفيين على الموقف العسكرى وعلى المسائل التى يحسن عدم نشرها .

---

(١) « الحريات الديمقراطية » مصدر سابق .

(٢) الرأى العام الكويتية ٣١/ ١٢/ ١٩٧٣ .

ومنذ هذا التاريخ والأمور بين الصحافة والسلطة تسير على طريق التفاهم والإقناع وخلق جو من الثقة المتبادلة حتى أصبحت الصحافة نفسها رقيبة على نفسها فى مسألة أمن الدولة ، وقد ساعد على ذلك أن معظم الصحفيين هم فعلاً جنود أو ضباط سابقون فى الجيش . وسوف نتطرق فيما بعد إلى أمثلة من قضايا الأمن العام الممنوعة من النشر دون غيرها .

الحرية السياسية فى وقت الحرب :

منذ نشأة إسرائيل وهى فى حالة حرب شبه دائمة مع جيرانها الذين اغتصبت أراضيهم . . ورغم دخولها فى أربعة حروب متوالية ، فقد ظلت تحتفظ بالأحزاب السياسية والمجالس النيابية وحرية الصحافة والنقد العام وترفض إعلان الأحكام العسكرية والعرفية ومن أمثلة هذه الديمقراطية :

تشكيل لجنة قضائية عسكرية عليا لدراسة أخطاء القيادة السياسية[1] والقيادة العسكرية فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ . فهذا القرار فضلاً عما فيه من شجاعة أدبية وسياسية فهو يساعد هذه الدولة على تلافى أخطائها ومجازاة المحسن وعقاب المسىء والمقصر مهما علا مركزه فى الدولة . ومن أخطر هذه التحقيقات فتح ملف طوابير الإعدام الجماعى لأسرى الحرب المصريين وللمدنيين العرب فى قطاع غزة أثناء حرب سنة ٥٦ وسنة ١٩٦٧ . فقد كانت الأحزاب السياسية فى إسرائيل البادئة بفتحه ، بينما كان إعلامنا يمنع الخوض فيه .

خامسا - الكنيست الإسرائيلى :

أو مجلس النواب يمثل جميع الأحزاب وجميع الاتجاهات ، فلا يوجد حزب فى إسرائيل إلا وله ممثل أو أكثر فى المجلس . . ولا يمكن فى ظل الديمقراطية أن يسيطر حزب واحد على المجلس أو تمرير القوانين والأوامر والمشروعات المصيرية بدون دراسة وحوار بين مؤيد ومعارض ، مما يجنب الدولة الارتجال والأخطاء . كذلك لا يمكن فى ظل الديمقراطية ووعى الشعب أن يحدث تزوير فى الانتخابات . وليس هناك أى قيد على انتخابات المجلس ، فلا توجد نسب للعسكريين والعمال والفلاحين . . بل الجميع مواطنون ولا ميزة لطائفة على أخرى .

---

(١) الأهرام عدد ديسمبر سنة ١٩٧٣ .

والخلاصة أن هذه الديمقراطية الحقة هى التى منحت إسرائيل الاستقرار الداخلى وجنبتها من الانقلابات العسكرية والصراعات الحزبية . وأطلقت الفرصة للأصلح والأقوى كى يصل إلى المسئولية والحكم . وكشفت المفسدين والمنحرفين وأبعدتهم عن السلطة والتحكم فى مصائر الأمة .

تشجيع الاستبداد والحكم المفرد فى الشعوب الأخرى :

لا يكتمل الحديث عن الديمقراطية فى إسرائيل إلا بكلمة عن تصورهم لنظام الحكم المثالى فى الشعوب الأخرى بالنسبة لهم .

إذ تؤمن الصهيونية بأن خير وسيلة لقهر شعوب العالم الأخرى والسيطرة على مصائرهم ، هى نشر الاستبداد السياسي وتشجيع الحكم المفرد .

ويرى حكماء صهيون أن الدولة التى يحكمها شخص واحد حكماً مفرداً أسهل انهياراً وأسهل انقياداً لهم من دولة حكمها جماعى وتتوزع فيها السلطة والمسئولية .

وحكمتهم فى ذلك أن التأثير على الفرد الواحد أو استمالته أو إخضاعه أمر أسهل بكثير من التأثير على جماعة كبيرة . . وعن طريق هذا الحاكم المفرد تصبح الدولة بملايينها تحت سيطرتهم .

وللصهيونية حيل واسعة وفنون متنوعة ذكرت كلها فى (البرتوكولات) فى التأثير على الحاكم المفرد أو صاحب النفوذ مهما كان معادياً لهم . . فمنها استعمال سلاح الجنس أو سلاح التشهير والابتزاز أو سلاح الرشوة . . وعندما تفشل هذه الأسلحة فهناك سلاح الاغتيال أو إثارة القلاقل الداخلية .

ولهذا فليس بمستغرب بعدما وجدناه من حرية مطلقة وديمقراطية فى الكيان الداخلى لدولة إسرائيل ، أن ترى (البروتوكولات)[1] الصهيونية تحث على نشر الاستبداد السياسى والحكم المفرد فى أنحاء العالم .

فقد جاء فى البروتوكول الأول :

إن مما يحقق السعادة أن تكون الحكومة فى قبضة شخص واحد مسؤول وبغير الاستبداد لا يمكن أن تقوم الحضارة .

---

(١) برتوكولات حكماء صهيون ، ترجمة وتعليق محمد خليفة التونسى .

وجاء فى البرتوكول الثانى :

« حينما نستحوذ على السلطة فى العالم ، يجب أن نمحق كلمة الحرية من معجم الإنسانية » .

وجاء فى البرتوكول العاشر عن الحاكم المستبد الذى يفضلونه : « وأمثال هؤلاء يختارون ممن تكون صحائفهم السابقة مسودة بفضيحة أو صفقة أخرى سرية . وإن رئيساً من هذا النوع سيكون منفذاً لأغراضنا لأنه سيخشى التشهير » .

العقيدة الدينية وأثرها فى خلق وتطوير دولة إسرائيل

« نحن لا نعتبر أنفسنا أمة بعد اليوم بل جماعة دينية ، فالصهيونية هى العودة إلى حظيرة اليهودية قبل أن تصبح العودة إلى أرض الميعاد »
(هرتزل مؤسس الصهيونية)(١)

مرة أخرى ، وفى عصر التكنولوجيا وعلوم القرن العشرين ، تثبت العقيدة الدينية أهميتها ومقدرتها على خلق الدول ونهضة الشعوب .

وخير مثل على ذلك هو دولة إسرائيل نفسها .

فقد أجمعت الدراسات المستفيضة التى أجراها الباحثون والمفكرون من شتى أنحاء العالم حول إسرائيل أنه : لولا العقيدة الدينية لما قامت هذه الدولة من العدم كدولة . ولولاها لما حقق اليهود أى نصر عسكرى مهما توفر لهم من فنون الحرب وآلاتها الحديثة ، ولما ظهرت لديهم تلك النهضة السريعة فى السياسة والاقتصاد والعلوم والفنون والآداب . . وهذا عرض موجز لأثر العقيدة الدينية فى كل هذه المجالات :

فكرة إنشاء إسرائيل أساسها دينى عقائدى :

فعندما اشتد اضطهاد اليهود فى أوروبا فى أوائل القرن العشرين . عرضت عليهم كندا إقامة وطن قومى فى أرض مستقلة ، ثم عرضت استراليا نفس العرض ، وكذلك

Herzl Speaks. Herzl Institute N. 1960 (١)

البرازيــل . ولكن الصــهيونية العالميــة رفضــت كل هــذه العروض وظلوا على عنادهم لا يرضون بأرض فلسطين بديلاً . . وكانت حجتهم فى ذلك أن إقامة دولة فى أى مكان غير فلسطين سيجعل هذه الدولة خالية من الرح والعقائدية التى تتمتع بها أرض الميعاد التى يحلمون بها منذ أكثر من ألفى سنة ، وأن هذه الدولة الجديدة لن تستطيع اجتذاب يهود العالم روحياً كما تجتذبهم الأرض المقدسة . وبالرغم إن فلسطين فقيرة بالخيرات والموارد الطبيعية بالمقارنة مع كندا أو استراليا أو البرازيل ، إلا أنها سوف تعوضهم بالدفع العقائدى والروحانى الذى هو بدوره أثمن وأغلى من كل خيرات الأرض .

وكانت فلسطين إذ ذاك تحت الخلافة الإسلامية فى تركيا . وقد أصدر الخليفة السلطان عبد الحميدقراراً بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين وحرّم عليهم شراء الأراضى فيها ، كما منع إقامة أى يهودى بعد أداء مناسك الحج أكثر من ثلاثة أشهر .

ولكن الصـهيونية لم تيأس وأخذت تعمل فى السـر على تقويض نفوذ الخليفةمن الداخل . . فأمرت جميع اليهود الأتراك إلى جانب يهود الدونمة الذين يتظاهرون بالإسلام بأن ينضموا إلى حزب الاتحاد والترقى المناهض للسلطان ، وقد بلغ نفوذهم فى هذا الحزب الحد الذى جعل أتاتورك يختار زعيم يهود سالونيك عمانوئيل قره صوه أفندى وحاخام الجاليــة اليهــودية فى تركيا ناحــوم أفندى على رأس اللجنـة التى ذهبت إلى الســلطان عبد الحميد لتبلغه قرار عزله وإلغاء الخلافة الإســلامية نهائياً وإعــلان تركيا دولة علمانيـة لا دينية(١) .

وبعد انهيار الخلافة وعزلة تركيا عن العالم العربى الإسلامى ، انتقلت فلسطين إلى الانتداب البريطانى فنقلت الصهيونية العالمية نشاطها إلى بريطانيا وأصبح منهم الوزراء وأعضاء المجالس النيابية . وأخيراً حصلوا على وعد بلفور المشهور الذى أعطاهم من جانب واحد أرض فلسطين بمن عليها من البشر .

الدين والحياة المدنية فى إسرائيل :

رغم أن دولة إسرائيل ليس لها دستور مكتوب حتى اليوم ، إلا أن الدين هو العامل المسيطر على التشريع والقوانين والمهيمن على الحياة المدنية(٢) . . وفى إســرائيل وزارة

(١) من كتاب « خطر الصهيونية على الإسلام والمسيحية » .

(٢) من كتاب « الدولة والدين فى إسرائيل » للدكتور أسعد رزوق ص ٤٩ .

للشئون الدينية ودار الحاخامية وهما يعملان على عدم إصدار أى قانون مخالف للشريعة اليهودية .

وفى إسرائيل حوالى واحد وعشرون حزباً سياسياً . ورغم اختلافهم البين فى المسائل السياسية والاقتصادية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، إلا أن أساس هذه الأحزاب جميعاً دينى ويطالب أكثرها بجعل التوراة دستور الدولة .

وحين عُرضت على الكنيست الإسرائيلى صيغة قسم الولاء للدولة والذى جاء فيه : « أتعهد بالولاء لدولة إسرائيل وقوانينها وألا أسيء استعمال القانون أو أمنح أى محاباة لأحد » . رفضت الأغلبية هذه الصيغة وأصرت على شطب كلمة (وقوانينها) بعد دولة إسرائيل . . وكانت حجتهم فى ذلك أن أى مسئول فى الدولة إذا رأى فى القوانين الوضعية ما يتعارض مع تعاليم الدين ، فمن حقه بل من واجبه أن لا ينفذها أو يتقيد بها .

ورغم أن العقائد اليهودية قد دخلت عليها الكثير من الخرافات والبدع على مر العصور ، إلا أنهم فى تعصبهم الشديد للدين يطبقون كل تلك التعاليم ويتقيدون بها حتى المتعلمون منهم وحملة الدكتوره .

وحسب قانون السبت(١) يعتقد اليهود أن العمل أو إشعال النار يوم السبت حرام . . وينطبق هذا على تدخين السيجارة أو إضاءة الكهرباء أو إشعال النار للطعام أو ركوب السيارات . والقانون يمنع جميع السيارات من السير يوم السبت حتى سيارات النقل العام وسيارات السياح .

والمتدينون فى إسرائيل لا ينتظرون تدخل الحكومة لتطبيق هذه القوانين الدينية ، فكثيراً ما يتعرضون لأى سيارة تسير يوم السبت ويرجمونها بالحجارة ، وعندما أعلن بعض الشباب المتحرر تطوعهم لحلب الأبقار فى المزارع يوم السبت تجمع المتعصبون حولهم ومنعوهم من العمل .

ومن القصص الطريفة فى هذا المجال ، أن بن جوريون عندما كان رئيساً للوزراء ذهب إلى لندن لحضور جنازة تشرشل وكانت يوم سبت . . فرفض ركوب السيارة التى أرسلتها إليه الحكومة البريطانية لتنقله من الفندق إلى مقر الجنازة وأعلن السير على قدميه مسافة عشرة كيلومترات فسار معه جميع أبناء الطائفة اليهودية الإنجليز . . وتحولت المسيرة

---

(١) Religion and State in Isreal by Kurrts Sonthoimer.

بذلك إلى مظاهرة إعلامية يهودية ناجحة . وعندما سئل بن جوريون عن السر فى هذا التمسك الحرفى وهو حامل الدكتوراه قال : « إن التمسك بهذه الشعارات البسيطة يعطيها معنى كبير . . ويجعل العقيدة ذات فعالية ضخمة فى رفع المعنويات » .

وفى إسرائيل تمنع تربية الخنازير أوذبحها أو استيراد لحومها . وبموجب قانون طعام االكوشير[1] بمنع تقديم أى طعام غير يهودى أو غير مباح فى الديانة اليهودية . ويطبق هذا على الفنادق السياحية والمطاعم العامة وشركات طيران العال وشركات الملاحة البحرية .

وكان من المعتقد لدى الكثير من الكتاب والمفكرين الأوروبيين والعرب أنه من المستحيل تجميع اليهود من شتى أنحاء العالم بنزعاتهم وعاداتهم وميولهم المختلفة فى بلد واحد . . وأن اليهودى الأمريكى أو الألمانى لا يمكنه أن يتعايش فى مكان واحد مع اليهودى الهندى أو الزنجى . وقد يؤدى ذلك التناقض الفكرى والجنسى إلى انهيار سريع لهذه الدولة . . ولكن الدراسات الواقعية أثبتت أن العقيدة الدينية قد استطاعت إلى حد مذهل تقريب الفوارق والفواصل بينهم ، وخلقت روحاً من التقارب والتفاهم فى وجهات نظرهم إلى الحياة . فذاب الجميع إلى حد كبير فى مجتمع واحد غير متنافر . حقيقة ماتزال هناك ثغرات وفروق . . ومازالت الأقليات الآسيوية والإفريقية غير راضية عن أوضاعها ، ولكن ذلك لم يمنع الجميع من الترابط والانصهار فى ظل العقيدة الواحدة .

وبفضل هذه العقيدة انطلقت الملكات الخلاقة والمواهب الكامنة وانتعش الفن والفكر والعلوم فى هذه الدولة الناشئة وأحيوا اللغة العبرية التى كانت لغة ميتة لا يتكلم بها إلا قلة من الكهنة فأصبحوا يكتبون بها الطب والعلوم والآداب وحصل بعضهم بها على جائزة نوبل للآداب .

العقيدة الدينية والنهضة العسكرية :

لاشك أن التكنولوجيا والعلوم الحديثة هى أساس أى نهضة عسكرية . . ولكن العقيدة الدينية هى التى تعطى التكنولوجيا الحديثة الفعالية والقدرةعلى التأثير والأبداع .

العقيدة تعطى الإنسان هدفاً يتقن العمل من أجله . . بل يتمنى الموت من أجله حتى ينال حياة ثانية فى الجنة واليوم الآخر . . أما الإنسان الذى يحارب بغير عقيدة فمهما كان

---

(١) The Unique and the universal by Talmon J.L.

نصيبه من التكنولوجيا يصبح أقرب إلى الجندى المرتزق إذا انقطع عنه الراتب أو زالت عنه الرقابة تكاسل أو تمرد .

وقد لعب الدين الدور الرئيسى فى كل الانتصارات العسكرية التى حصلت عليها إسرائيل فى ثلاثة حروب متوالية . . فالجندى الإسرائيلى مقاتل عقائدى . وهم يضعون فى كل دبابة توراة . ومع كل كتيبة رجل دين يقاتل معهم ويذكرهم بالجنة ويحرضهم على الموت . . وقد أخذوا هذا الأسلوب عن حروب الإسلام عندما كان حفظة القرآن وعلماء الدين لا يكتفون بالخطابة على المنابر ، بل يتقدمون فى الصفوف الأولى لتشجيع الجنود .

واليهود يقدسون الدفن فى أرض إسرائيل . ولذلك ترى أن معظم الجنود يربط حزاماً حول وسطه لكى يجره زملاؤه إذا قتل كى يدفن فى أرض الميعاد .

وعندما دخل الجيش الإسرائيلى أرض سيناء سنة ٥٦ و سنة ٦٧ نزل الجنود من سياراتهم ودباباتهم وخلعوا نعالهم وأخذوا يقبلون الأرض التى تاه فيها أجدادهم وصلوا عليها قبل بدء المعركة .

والقيادة الإسرائيلية تراعى بمنتهى الدقة تعاليم الدين والمناسبات الدينية فى مواعيد القتال وسير القتال وإنهاء القتال . . وهم لا يبدأون الحرب مطلقاً يوم السبت ، لأن الحرب فى هذا اليوم حرام ويتشاءمون منها . ولكن هذا لم يمنع بن جورين من استصدار قانون من الكنيست يقول :

« حين تكون القضية قضية خطر يتهدد حياة المجتمع ، فلابد من خرق قانون السبت » .

ويتفاءل اليهود ببدء القتال **يوم الاثنين** كما كان يفعل أنبياؤهم . كذلك فقد كان هجومهم على مصر سنة ٥٦ يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر سنة ٥٦ .

وكان هجومهم فى حرب سنة ٦٧ **يوم الاثنين** ٥ يونيو سنة ٦٧ .

وهم يضيفون على معاركهم وحروبهم أسماء ترتبط بالدين أو المناسبات الدينية .

فحرب سنة ٤٨ سموها « **حرب التحرير** » للإيهام بأنهم كانوا يستعيدون ويحررون أرضاً كانت ملكاً لهم : هى أرض الميعاد .

وحرب سنة ٦٧ سموها حرب **الأيام الستة**: رغم أنها لم تكن ستة أيام . . وقصة هذه التسمية الدينية تعود إلى حرب الأيام الستة التى شنها النبى يوشع على أعدائه يوم الاثنين وظل يحاربهم إلى أن حل مساء يوم الجمعة ، فخشى أن ينتهى هذا اليوم وهو لم ينته من

أعدائه ، فطلب من الله أن يؤخر غروب الشمس حتى يتمكن من إحلال السلام فى يوم السبت المقدس فاستجاب له ربه . وفى هذا يقول الشاعر أحمد شوقى مخاطباً الشمس :

« قفى يا أخت يوشع خبرينا   أحاديث القرون الغابرينا »

أما حرب سنة ٧٣ فقد سموها حرب « **يوم كيبور** » لأنها وقعت فى يوم عيد الغفران أو الكيبور الذى يصوم فيه اليهود خمسة وعشرين ساعة عن الطعام وهى المدة التى صامها النبى موسى عليه السلام . . ويزعمون أن من يصوم هذا اليوم من اليهود تغفر له ذنوبه إلا الزنا وظلم اليهودى أخاه اليهودى أو كفره بالله . ومن شريعتهم أن من لم يصم هذا اليوم يستحق القتل .

وقد كان اختيار هذا اليوم بالذات للهجوم العربى الكبير فى كل من سيناء والجولان ، دليلاً على أهمية معرفة القائد العسكرى لطبائع عدوه ومواسم أعياده وعقائده الدينية حتى ينجح فى مفاجأته وإمساك زمام المبادرة فى يده . . فقد حقق هذا التوقيت الذكى ما يأتى :

- فقد صادف يوم كيبور فى هذه السنة بالذات يوم سبت وهو اليوم الذى يتشاءم اليهود من الحرب فيه .
- كان عدد كبير من جنود الجبهة يقضون أجازة العيد فى بيت المقدس لإقامة صلاة الاستغفار .
- أما باقى جنود الجبهة فقد كانوا مرهقين من أثر الصيام منذ غروب شمس اليوم السابق ، أى منذ أكثر من عشرين ساعة قبل موعد الهجوم العربى فى الساعة الثانية بعد ظهر يوم السبت .
- وقد ذُكر فى التحقيقات الأخيرة التى أُجريت فى إسرائيل أن قيادتهم العامة كانت تجد صعوبة كبيرة فى الاتصال بالوزراء والمسئولين مما عطل استدعاء المجندين والاحتياطى بشكل جعل الحرب كارثة عليهم .
- وفى نفس الوقت فقد كان هذا التوقيت مناسباً للمسلمين والعرب . فهو فى شهر رمضان الذى يتفاءل المسلمون فيه بانتصاراتهم العسكرية السابقة ويتمتعون بروح معنوية عالية .

نخرج من هذه الدراسة بعدد من الحقائق العامة :

أولا - أنه لابد من دراسة كل ما يتعلق بالعدو قبل المعركة . . ولا يكفى فى ذلك معرفة قوته العسكرية ونوعية سلاحه . . بل لابد من معرفة تقاليده الدينية وعاداته وأخلاقه وطبائعه ومعنوياته .

ثانيا - أن العقيدة الدينية لم تزل فى عصر التكنولوجيا والعلوم الحديثة العامل الأعظم لنهضة لشعوب وباعث قوتها ووحدتها ، وأن الدعوات العلمانية المستحدثة لم تستطع أن تحل مكان الدين .

ثالثا - الاهتمام بالعقيدة والدين لا ينفى أهمية التكنولوجيا والتدريب على السلاح ، بل العكس هو الصحيح . . فقد ثبت أن العقيدة هى التى تدفع الإنسان إلى اتقان العمل والإخلاص فى التدريب والتفانى فى القتال : أى أن العقيدة هى التى تعطى التكنولوجيا الفعالية والتأثير .

رابعا - أن عدونا يقاتلنا بعقيدته الدينية . والمقاتل العقائدى لا يهزمه إلا مقاتل عقائدى مثله . . وأنه لابد لنا من العودة إلى عقيدتنا الإسلامية إذا أردنا أن ننتصر على أعدائنا ونقضى على التخلف وننطلق إلى عصر الذرة والفضاء الكونى .

خامسا - ولكن تكوين وخلق المقاتل العقائدى والمواطن العقائدى مسألة لا تأتى بين يوم وليلة . . ولا بمجرد رفع الشعارات الدينية أثناء المعركة . . بل هى تربية وتنشئة . . وسلوك شامل فى كل شئون الحياة . وإذا أردنا أن نصبح أمة عقائدية فلابد من تطبيق الإسلام عقيدة وتشريعاً وسلوكاً فى كل نواحى حياتنا .

سادسا - ومن نعم الله علينا أن عقيدتنا الإسلامية مازالت نقية خالية من الخرافات والشوائب أو الثغرات التى تعيق تقدم الأمم . . وهى قادرة على مسايرة الزمن وتطورات المجتمع والحياة بفضل مبدأ الاجتهاد الذى تحث عليه الشريعة .

العقيدة العنصرية فى إسرائيل

تعتبر إسرائيل دولة عنصرية مثل روديسيا وجنوب أفريقيا ومثل النازية فى ألمانيا .

فاليهود يدعون بأنهم وحدهم شعب الله المختار ، وأنهم خير عباد الله وأحقهم بخيرات الأرض ، وأن الشعوب الأخرى وأصحاب الديانات جميعاً يسمون الأمميون أو جوييم لا حق لهم فى الحياة إلا أن يكونوا خدماً وعبيداً لهم .

وتعود قصة (شعب الله المختار) إلى عبارة وردت فى الأديان بمعنى أن الله اختارهم لتنزل عليهم أول رسالة إلى كافة البشر . ولكن هذا الشعب بحكم أنانيته وخبثه قد حوّر كلام الله وجعل لهذه الكلمة معنى آخر يحمل طابع العنصرية والتفرقة بين الناس إلى يهود

يحق لهم كل شيء وأميين سخرهم الله لخدمتهم . . وليس لهم أى حق . . وكأن الله (سبحانه وتعالى عن ذلك) ينظر إلى عباده نظرة عنصرية . . فيميز جنساً على جنس ، أو سلالة دون سلالة من خلقه أجمعين .

وقد يقول البعض : أن هذه العنصرية من تراث التاريخ القديم البغيض وأيام الجهل . وأن يهود اليوم لا ذنب لهم فيها . وأننا فى القرن العشرين . . عصر النور والديمقراطية وحق الإنسان فى أن يعيش ويترك غيره يعيش . . ولكن حقيقة هذه العنصرية قد تكشفت فى مؤتمر حكماء صهيون الذى عقد فى بال بسويسرا سنة ١٩٠١ تحت قيادة تيودور هيرتزل[١] مؤسس الصهيونية المعاصرة . فقد جاء فى البروتوكولات التى حاولوا إخفاءها عن العالم بكل حيلهم الشيطانية ما يأتى :

« إننا نقرأ فى شريعة الأنبياء أننا مختارون من الله لنحكم الأرض . وقد منحنا الله العبقرية كى نكون قادرين على القيام بهذا العمل . وإن كان فى معسكر أعدائنا عبقرى فقد يحاربنا . لكن القادم الجديد لن يكون كفؤاً لأيد عريقة كأيدينا » .

وجاء فى البروتوكول الحادى عشر :

« إن الأمميين كقطيع من الغنم . وإننا الذئاب . فهل تعلمون ما يفعل الغنم حين تنفذ الذئاب إلى الحظيرة . إنها لتغمض عيونها عن كل شيء . وإلى هذا المصير سيدفعون » .

ويقول أيضاً : « يجب أن ننشر فى سائر أقطار العالم الفتنة والمنازعات والعداوات المتبادلة » . وفى القرار التاسع : « لقد خدعنا الجيل الناشيء من غير اليهود وجعلناه فاسداً متعفناً بما علمناه من مبادىء ونظريات معروف لدينا زيفها ولكننا أنفسنا الملقنون لها » .

وهم لا يستحون عن استعمال أى سلاح لتدمير حياة الشعوب الأخرى ، ولو كان سلاح الجنس والمال فيقولون :

« سنستعمل سلاح الجنس والمال لصرف الناس عن السياسة ولتدمير الحياة العائلية والقومية والتربوية . . ولكى ننزع عن معارضينا السياسيين تاج شجاعتهم سنضعهم فى مراتب المجرمين واللصوص والملوثين » .

مصدر العقيدة العنصرية :

ولاشك أن هذا التفكير العنصرى لحكماء صهيون لم يأت من فراغ . . ففى التوراة التى حرّفها اليهود على هواهم الكثير من هذه التعاليم . حيث تأمرهم أن يتعاونوا معاً .

(١) بروتوكولات حكماء صهيون . ترجمة محمد خليفة التونسى وتقديم عباس محمود العقاد . نشرة « مؤسسة دار العلوم » بالكويت سنة ١٩٧٧ .

ويتعاطفوا معاً فى سبيل القضاء على غيرهم من الشعوب والسيادة عليهم . وأن لا يحب اليهودى إلا يهودياً مثله ولا يثق إلا بيهودى ولا يفى العهد إلا ليهودى . أما غيرهم من الشعوب (الجوييم أو الأمميين) فعلى شعب إسرائيل أن لا يثق بهم أو يحسن معاملتعم . . بل يبيدهم ويقتلهم . « وتهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون شواربهم ولا تقطع لهم عهداً . . ولا تشفق عليهم . . وتأمرهم (أى شعب إسرائيل) أن يدمروا فى أريحا كل شيء ويقتلون جميع من فيها وما فيها » . وجاء فى سفر الزامور : « إن سرقة اليهودى أخاه حرام . ولكنها جائزة بل واجبة مع الأممى لأن كل خيرات العالم خلقت لليهود ، فهى لهم حق وعليهم تملكها بأى طريقة » .

وجاء فى التلمود : « إن من يحاكم اليهودى بجريمة السرقة أو القتل أو الخداع أو الغش فهو يحذف على الله . وإذا وجد اليهودى لقطة لأممى حُرّم عليه ردها . وحب اليهودى للأممى وثناءه عليه وإعجابه به إلا للضرورة خطيئة عظمى » .

والسرقة من غيراليهودى وغشه وخداعه مسموح بها ديناً وشرعاً فى التلمود . فقد ورد فيه :

« إن الرابى صموئيل كان رأيه أن سرقة الأجانب مباحة وقد اشترى هو نفسه آنية من الذهب كان يظنها الأجنبى نحاساً ، ، ودفع ثمنها أربعة دراهم وهو ثمن بخس . ثم سرق درهماً آخر من البائع » .

ومن مظاهر العنصرية فى الديانة اليهودية أنهم جعلوها قاصرة على أنفسهم دون غيرهم من شعوب الأرض . فلا يحق لأى إنسان على ظهر الأرض أن يعتنق الديانة اليهودية . واليهودى هو المولود من أم يهودية وأب يهودى . . وقد ذكرنا ما حدث مع إبنه مؤسس إسرائيل بن جوريون ، إذ رفض حاخامات إسرائيل تزويجها من يهودى ، أو اعتبارها يهودية لأن أمها (أى زوجة رئيس الدولة) غير يهودية فاضطرت إلى إجراء الزواج فى محكمة مدنية فى قبرص . فاليهود يعتبرون دمهم أنقى من شعوب العالم . وأن دخول دم جديد أو عنصر جديد فى سلالتهم يلوثها ويكون عنصر ضعف وفساد .

وحسب أقوال (التوراة والتلمود) فإن نفوس[1] اليهود وأرواحهم مخلوقة من نفس الله وأن عنصرهم من عنصره . فهم وحدهم أبناؤه الأطهار جوهراً . كما يعتقدون أن الله منحهم الصورة البشرية أصلا تكريماً لهم . على حين أنه خلق غيرهم من شعوب الأرض

(١) المصدر السابق ص ٦٨ .

(الجوييم) من طينة شيطانية أو حيوانية نجسة . فالبشر نوعان : سادة مختارون وهم اليهود وعبيد محتقرون وهم غير اليهود .

والجنس له مفهوم غريب عند اليهود . . فاليهودية إذا زنت مع اليهودى فهذا حرام وإثم . . أما إذا زنت مع غير يهودى من الأمميين فهذا ليس حراماً ولا إثم فيه . وفى التاريخ اليهودى العديد من المومسات اللائى اعتبرن فى مرتبة القديسات لأنهن كن يعاشرن ضباط الرومان ويخدمْن بذلك الشعب اليهودى عن طريق هذه الصداقات . . من أشهر هؤلاء راغوث وهداسا وسالومى . . وتمجيداً لهن ولخدماتهن لشعبهن فهم يطلقون أسماءهن على الكثير من الشوارع والمستشفيات والمؤسسات الخيرية . وتعليل هذا المفهوم الغريب للزنا . . أن غير اليهودى لا يُعتبر أصلاً إنسان ، بل هو شىء . فمعاشرة اليهودية له لا تعتبر إثماً أو خطيئة . وقد كانت عصابات المافيا الإسرائيلية تتاجر بالبنات اليهود وتساعدهن على الدعارة باعتبار أن ذلك مصدر دخل لشعب إسرائيل ولا إثم فيه .

كيف يطبقون العقيدة العنصرية ؟

لقد كتب الكثير عن التمييز العنصرى فى إسرائيل . حتى بين اليهود أنفسهم هناك طبقات ومراتب : فاليهود الإفريقيون من الحبشة أو اليمن يشتكون دائماً من سوء معاملة اليهود الأوروبيين لهم . رغم أن القانون يساوى بين جميع اليهود فى الحقوق والواجبات .

وهناك عرب يعيشون فى إسرائيل ويحملون جنسيتها ومنهم الدروز ومسيحيون ومسلمون . وهؤلاء يعاملون أسوأ معاملة .

لقد حضرت مقابلة بين عائلة عربية مسيحية طلبوا من السلطات الإسرائيلية أن تجمعهم وأولادهم وبناتهم فى غزة كى يروهم .

وأحضرت القوات الإسرائيلية العائلة العربية التى تعيش فى إسرائيل ووضعتها فى سيارة أتوبيس . وكان فى السيارة حاجز خشبى يفصلها نصفين وجاؤا ببقية أفراد العائلة من غزة ووضعتهم فى النصف الآخر بحيث لا يرى أحدهم الآخر إلا من نافذة صغيرة كنافذة السجن ، بينما كان الجند يسترقون السمع إليهم وكأن أفراد العائلة من المجرمين العاديين .

هذا هو نوع الحكم الذى تعده إسرائيل للعرب الإسرائيليين ، حرمانهم من التعليم ومن الوظائف بأنواعها إلا رعاية الغنم وفلاحة الأرض . . وحرمانهم من حق التجول والرزق . . وأخيراً حرمانهم من الكرامة الإنسانية . ويكفى أن تعلم أن تعداد السكان

العرب الأصليين الذين ظلوا فى إسرائيل حتى سنة ٥٦ كان ٢٠٠,٠٠٠ وأن هذا العدد كان يمتلك من لأراضى ما مقداره مليون ونصف مليون دونم من الأراضى الزراعية استولت إسرائيل على مليون ومائتى دونم وطردتهم منها وأعطتهم مقابل ذلك نصف ثمن محصولهم فى سنة واحدة . وأصبحوا يعيشون الآن على ٣٠٠,٠٠٠ دونم من الأراضى أى ما يعادل دونم ونصف لكل شخص .

والعنصرية اليهودية تدفع اليهود فى جميع أنحاء العالم إلى العزلة عن غيرهم من الشعوب . فتراهم يتجمعون فى أحياء خاصة بهم ولا يتعايشون مع أهل البلد . . ويتعاونون معاً على وسائل الاضرار والتخريب بالاقتصاد والسيطرة على أسواق المال ، وذلك لأنهم مهما عاشوا فى هذه البلاد ، فإن فكرهم وطموحهم وانتماءهم يؤول إلى شعب إسرائيل أولاً وأخيراً ولا يخلصون للوطن الذين يحملون جنسيته .

تخريب الأديان :

وقد لعب اليهود دوراً خطيراً فى تخريب المسيحية من الداخل . . فحرفوا وأضافوا وشوهوا على مر العصور . . أما فى الإسلام فإن قصة الإسرائيليات معروفة . . إذ كانوا يعتنقون الإسلام من الظاهر ويضيفون الكثير من الأحاديث الملفقة ويذيعونها . . وفى هذه الأيام بدأوا يحرّفون المصاحف . . فقد طبعوا الكثير من الطبعات الأنيقةالمغرية . . ووزعوها فى آسيا وإفريقيا . . ولدى وزارة الأوقاف فى مصر وأيضاً لدى مشيخة الأزهر الكثير من هذه النماذج المحرّفة .

وقد أشرنا فيما سبق إلى دور الصهيونية العالمية فى إلغاء الخلافة الإسلامية فى تركيا . انتقاماً من الخليفة لمنعه إقامة دولة إسرائيل .

السيطرة على قادة العالم :

وقد جاء فى البرتوكولات أنهم يتبعون أربعة وسائل للسيطرة على زعماء العالم وقادة الشعوب الأخرى : هى ، **أولاً** : سلاح الرشوةً . **وثانياً** : سلاح الجنس . . إذ يرسلون إليهم أجمل فتياتهم للإيقاع بهم وأخذ صور فاضحة لهم . . والسلاح **الثالث** : هو التشهير . . فهم يتتبعون ماضى كل زعيم حتى يجدوا فيه ثغرة أو سقطة يستطيعون النفاذ منها ، مع إذلاله عن طريقها . . فإذا فشلت كل هذه الوسائل مجتمعة فإنهم يلجئون إلى سلاح القتل والاغتيال .

ففى أمريكا أرادوا التخلص من رئيس جمهوريتها المستر كندى فأرسلوا له قناصاً يهودياً ماهراً مدرباً هو السفاح هارفى . . وبعد ذلك وحتى لا يعترف هارفى بالمؤامرة ومن وراءها أرسلوا له سفاحاًيهودياً آخر هو لى أزوالد فقتل هارفى وهو بين الشرطة وأمام باب المحكمة ، وبذلك مات السر معه حتى الآن .

وفى ألمانيا فى عهد هتلر تآمروا على اقتصادها حتى كادوا أن يدمروه مما استفز هتلر ضدهم ووضع سياسة لبلده هى إبادة الجنس اليهودى . وفى الأمم المتحدة قتلوا برنادوت رسول السلام لأنه أراد أن يكون منصفاً ومحايداً بين العرب وإسرائيل .

الموســـاد :

وقد برع اليهود بواسطة جهاز مخابراتهم المسمى (الموساد) فى جميع أنواع الاغتيالات السياسية . . ومن براعتهم فى هذا الميدان أنه لم يثبت عليهم أكثر هذه الحوادث إلا الذى يعترفون به بعد فوات الأوان أو الذى يعترف به أحد عملاء الموساد عندما ينشق عليهم ويشعر أنهم يريدون قتله . من هؤلاء عميل الموساد الشهير (فيكتور استروفسكى) الذى هرب من إسرائيل إلى أمريكا وكندا وأخذ ينشر مذكراته واعترافاته الخطيرة على العالم من مكانه السرى الذى عجزت مخابراتهم عن الوصول إليه وقد نشر حتى الآن ثلاثة كتب عن الموساد وجرائمه التى كلفوه بها .

ولا يقتصر عمل الموساد على اغتيال أعداء إسرائيل وخصومها . . فقد بلغت شهرة هذا الجهاز وإتقانه فنون الاغتيال إلى حد أنه أصبح يبيع خبرته لأى دولة فى العالم . . ويستطيع أى دكتاتور فى أى دولة أن يستأجر عملاء الموساد لاغتيال خصومه السياسيين . من ذلك قصة اغتيال الزعيم المغربى المهدى بن بركة الذى كان لاجئاً سياسياً فى باريس . فهذا الحادث لم يعرف به أحد ولم يتصور أحد أن مخابرات إسرائيل هى التى نفذته . . إلى أن نشر القصة كاملة الصحفى الإسرائيلى (مكسيم غيلان) وقد أنتجت فرنساً فيلماً بعنوان (الاختطاف) عن هذه الحادثة . . وظلت حكومة إسرائيل تحارب الفيلم إلى حد نسف دور السينما التى تعرضه .

ولا يقتصر دور عملاء الموساد على حوادث الاعتداء على الأفراد . فالكثير من الدول تستأجر ضباط إسرائيل لتدريب الفرق الخاصة على حوادث القتل والاغتيال بين المدنيين . . وقد تطوع عدد كبير من هؤلاء الضباط لتدريب قوات الصرب على اغتيال المسلمين فى البوسنة ودربوا القوات الصربية على وسائل التطهير العرقى والمذابح

الجماعية . . وطرق إحداث أكبر الخسائر بين المدنيين فى سراييفو وموستار . وأيضاً تدريبهم على أعمال القنص من مسافات بعيدة . . وقد شاهدت حلقة فى التليفزيون الأوروبى Euro Neus عن دور هؤلاء الضباط اليهود فى حرب البوسنة

الكتاب والمفكرون فى العالم وشعب إسرائيل :

على مر العصور والأجيال ظهر كتاب ومفكرون أذكياء وكشفوا للعالم ما يفعله اليهود بالأميين (أى غير اليهود) .

وبداية فإن أنبياءهم قد وصفوهم فى كتبهم المقدسة بأنهم (شعب غليظ القلب صلب الرقبة وبأنهم أبناء الأفاعى وقتلة الأنبياء) . واليهود قد تآمروا على قتل السيد المسيح وتسليمه للرومان . وعلى دس السم لسيدنا محمد ﷺ . ومن أهم ما كتب عن اليهود ما قاله كارل ماركس اليهودى الثائر على اليهودية ومؤسس الشيوعية ، وذلك فى كتابه (المسألة اليهودية) فقد جاء فيه :

« المال هو إله إسرائيل المطاع . ويعتقد اليهود أنه لا ينبغى لأى إله آخر أن يعيش معه . . إن المال يخفض جميع آلهة البشر ويجعلهم سلعة . هذا هو الإله الحقيقى لليهود » . ويقول أيضاً : « إن تحرير اليهود فعلاً فى معناه يكون فى تحرير الإنسانية من اليهودية . فاليهودى مثلاً الذى لا يحسب له حساب فى ڤيينا هو الذى يقرر بقوته المالية مصير المملكة كلها » .

كذلك كتب عن اليهود كل من شكسبير الانجليزى فى مسرحيته (شيلوك) التى يفضح بها جشعهم ، وجوته الألمانى .

ولكن أهم وثيقة تدينهم ما كتبه الرئيس بنجامين فرانكلين فى وثيقة إلى الشعب الأمريكى فى سنة ١٧٨٩ حيث يقول :

« هناك خطر جسيم على الولايات المتحدة الأمريكية . هذا الخطر هو اليهود . ففى كل أرض يستقرون فيها فإنهم يحطون أخلاقيات الشعب ويهبطون بالأمانة التجارية . ويظلون منطوين على أنفسهم لا يتعايشون مع غيرهم ويعملون على خنق الشعب اقتصادياً كما فعلوا فى البرتغال وأسبانيا . ومنذ ١٧٠٠ عام وهم يبكون على مصيرهم بأنهم قد طردوا بالقوة من وطنهم الأم فلسطين . ولكن إذا أعطاهم العالم اليوم فلسطين فإنهم سيختلقون الأعذار لعدم الذهاب إليها . لماذا ؟ لأنهم مصاصو دماء ولا يمكنهم العيش مع بعض . ولابد أن يعيشوا مع المسيحيين وغيرهم الذين لا ينتمون إلى جنسهم لكى يمتصوا دماءهم .

نص الوثيقة باللغة الانكليزية

PROPHECY OF BENJAMIN FRANKLIN

IN REGARD OF THE JEWISH RACE

(Excerpt from the Journal of Charles Pirckney of South Calorina of the proceedings of the Constitutional Convention of 1789 regarding the statement of Benjamin Franklin at the Convention concerning JEWISH IMMIGRATION)

«There is a great danger for the United States of America. This great danger is the JEW, Gentlemen, in which every land the Jews have settled they have depressed the moral level and lowered the degree of commercial honesty. They have remained apart and unassimilated; oppressed, they attempt to strangle the nations financially, as in the case of Portugal and Spain.

«For more than 1700 years they have lamented their sorrowful fate, namely, that they have been driven out of their mother land; but, Gentlemen, if the world should give them back today Palestine and their property, they would immediately find pressing reasons for not returning there. Why? Because they are Vampires — they cannot live among themselves. They must live among Christians and others, who do not belong to their race.

«If they are not excluded from the United States by the Constitution, within at least 100 years they will stream into this Country in such numbers that they will rule and destroy us and change our form of Government for which we Americans shed our blood and sacrificed our lives, property and personal freedom. If the Jews are not excluded, within 200 years our children will be working in the fields to feed the Jews while they remain in the counting house, gleefully rubbing their hands.

«I warn you, Gentlemen, if you do not exclude the Jews forever, your children and children's children will curse you in your graves. Their ideals are not those of Americans, even when they have lived among us for ten generations. The leopard cannot change his spots. The Jews are a danger to this land if they are allowed to enter. They will imperil our institutions. They should be excluded by the Constitution.»

(Original of this copy is in the Franklin Institute, Philadelphia, Pa.)

نص الوثيقة التى وجهها بنجامين فرانكلين إلى الشعب الأمريكى سنة ١٧٨٩
يحذره فيها من فتح أبواب الهجرة لليهود حتى لا يلوثوا الحياة فى أمريكا ويسيطروا على الاقتصاد وينشروا الفساد



في سنة ١٩٣٣ اكتشفت المخابرات الأمريكية أن الصهيونية العالمية قد سيطرت على عصابات المافيا في أمريكا
وهذه صورة ٩ من زعماء المافيا وكلهم من اليهود بعد الحكم عليهم بالسجن مدى الحياة

وإذا لم يطردوا من أمريكا بالدستور فإنهم خلال ١٠٠ عام فقط سوف يتدفقون على هذا البلد بأعداد كبيرة بحيث يسيطرون على الحكم . وإذا لم نمنع اليهود من الآن . . فإن أولادنا سوف يعيشون فى الحقول التى تغذى اليهود ، بينما هم يقعدون فى عد حساباتهم .

إنى أحذركم أيها السادة إذا لم تمنعوا اليهود إلى الأبد ، فإن أولادكم وأولاد أولادكم سوف يلعنوكم فى قبوركم . إن أخلاقهم غير أخلاقنا . وإن الفهد لا يمكن أن يغير جلده » .

كان هذا هو نص الوثيقة التى نشرها معهد فرانكلن فى فيلادلفيا . وقد صدق فرانكلن فى كل ما تنبأ به . . فلم تمض سنوات حتى كان اليهود يسيطرون على كل شىء فى الحياة الأمريكية . . وفى سنة ١٩٣٣ اكتشفت المخابرات الأمريكية أن تسعة من زعماء المافيا فى أمريكا من اليهود . وقدموا للمحاكمة بالتهم التالية : القتل - التهديد - المقامرة - الدعارة - السطو على البنوك - تهريب الخمور والمخدرات . وقد حكم على التسعة بالسجن المؤبد ، وأخرج عن قصتهم فيلم (العراب الثالث) الذى حاربته الصهيونية العالمية بشدة وحاولت منعه .

الصهيونية العالمية فى مصر :

لقد كان فى مصر عدد كبير من اليهود يعيشون فى كامل حريتهم . فالشعب المصرى لم يعرف فى أى يوم من تاريخه الطويل أى تعصب عنصرى أو دينى . . ورغم هذا التسامح نحوهم كانوا يتكتلون فى مناطق خاصة بهم ، مثل حارة اليهود فى القاهرة والاسكندرية ، وكانت لغات التخاطب بينهم الفرنسية والإيطالية أساساً ، رغم أنهم يحملون الجنسية المصرية ، وذلك حتى لا يفهمهم أحد من العامة . . وعندما ابتدأت بشائر دولة إسرائيل فى فلسطين ، أخذوا جميعاً يتهافتون على دراسة اللغة العبرية ويأتيهم من فلسطين حاخامات يدرسونهم هذه اللغة . وقد عايشت هذه الفترة وكانت لى بين اليهود المصريين صداقات كثيرة ، وخاصة أن منهم زملاء فى كلية الطب كانوا دائماً يحكون لى وبدون حرج آمالهم وتطلعاتهم فى دولة إسرائيل . . ومن هنا جاء تنبهى المبكر لقضية فلسطين . وللخطر الذى ينتظر الأمة العربية منذ سنة ١٩٤٥ .

وكنت دائماً أقرأ فى الجرائد المصرية عن اكتشاف محاولات اليهود فى مصر لتخريب الاقتصاد المصرى . . فكانوا يصهرون العملات الذهبية والفضية ويغرقون الأسواق بالعمات الأجنبية المزيفة . وخاصة الدولار ، ويسيطرون على البورصة والأسهم والسندات .

فى أثناء الحكم البريطانى لمصر كانوا يتعمدون الوقيعة بين الشعب المصرى والحكام الانجليز . . وقد أرسلت إسرائيل اثنين من جهاز المخابرات (الموساد) إلى مصر حيث قتلوا اللورد موين الحاكم البريطانى بقصد أن ينتقم الانجليز من مصر . ولكن لسوء حظهم أن صولاً مصرياً فى الشرطة قد طاردهما بدراجته البخارية وقبض عليهما واكتشفت المؤامرة وأذيعت على العالم .

ثم نشرت بعدذلك فضيحة لافون المشهورة عندما أرسلت المخابرات الإسرائيلية رجالها لضرب المؤسسات الأمريكية وقتل بعض الأمريكيين فى مصر بهدف الإيقاع بين مصر وأمريكا ولحسن حظ مصر أنهم اعتقلوا وساءت العلاقات مؤقتاً بين أمريكا وإسرائيل ، ثم عادت أقوى ما تكون . ولا أحد يدرى سر قبول ساسة أمريكا لكل مؤامرات إسرائيل نحوهم . . وأى ذلة يمسكونها لهم . . وأى سلاح يبتزونهم به .

وحتى اليوم لم تسلم مصر من مؤامراتهم حتى بعد الصلح فى كامب ديفيد . . فقد قتلت الموساد الكثيرين من أبناء مصر فى الخارج الذين يظهرون نبوغاً فى أى فرع من فروع العلم . وفى أغلب الأحيان كانت الجريمة تضيع ولا يكتشف سرها بفضل خبرتهم فى مجال الإجرام . ومن أشهر هذه الحوادث قتل الدكتور عباس المشد عالم الذرة المصرى وكثيرين غيره مما يحتاج إلى كتاب كبير يؤلفه أحد اخصائيى الدراسات الاستراتيجية أو المخابرات المصرية .

الموساد الإسرائيلى يمول الجماعات الإرهابية فى مصر والجزائر :

لقد انتشر التطرف والإرهاب فى مصر والجزائر فى وقت واحد . وكان الناس فى حيرة من أمر هذه الجماعات التى تلبس رداء الدين وتتهم كل من سواهم بالكفر . . فالدولة كافرة والشعب كافر والجيش كافر والشرطة كافرة . كل هؤلاء لابد من قتلهم وإراقة دمائهم . ولا يجوز للمسلم الحق أن يعمل فى الجيش الكافر . أو فى وظيفة فى دولة الكفر . لذلك لابد من تدمير كل مؤسسات الدولة وأولها البنوك ومراكز الشرطة والسياحة والمسارح ودور السينما . وباختصار تدمير الدولة والبنية الأساسية وتدمير الاقتصاد القومى

فمن أين جاءت هذه الأفكار الهدامة ، وما هو مصدرها ، ولماذا نجدها عند الجهلة وأنصاف المتعلمين بالذات وعند الطبقة الفقيرة المحرومة والساخطة على الحياة .

وأخيراً تكشفت المأساة ، حيث تبين أن الموساد الإسرائيلى وراء ظهور هذه الأفكار الهدامة والجماعات الإرهابية التى دمرت الجزائر كلها وكادت أن تدمر مصر لولا لطف الله بها .

والقصة يرويها ضابط المخابرات الإسرائيلى (فيكتور استروفسكى) الذى انشق عن الموساد . ولما علم أنهم يدبرون لاغتياله هرب إلى كندا واختفى هناك وبدأ يصدر مجموعة من الكتب التى تفضح جرائم الموساد . وكان أخطرها كتاب « الجانب الآخر من الخداع » فيه يذكر أن ضباطاً من الموساد كانوا يحضرون إلى مصر والجزائر ويتصلون بزعماء وأمراء الجماعات الإسلامية المتطرفة . . يمولونهم بالمال والسلاح ويطلبون منهم زيادة نشاطهم ضد الدولة والشعب .

ولم يكن الأمر صعباً على الإطلاق . بل كان يتم بخدعة بسيطة جداً : فكان ضباط الموساد يلبسون ملابس المجاهدين الإسلاميين ويطلقون لحاهم على أنهم دعاة إسلاميون . . ثم يستغلون فكرة تكفير المجتمع وتكفير الحكومة والشعب . ويطلبون من هؤلاء الجهلة السذج أن ينصروا الإسلام بقتل الكفار من المسؤولين والشرطة والكتاب والمفكرين .

وكلما ظن الناس فى مصر[1] والجزائر أن هذه الحركات الهدامة قد أوشكت على الانتهاء والزوال . . بعد الضربات الموجعة التى توجهها الشرطة إليهم . . وبعد أحكام الإعدام والسجن والاعتقال . . إذا بهذه الحركات تبعث من جديد وكأن هناك من يوقد النار من تحت الرماد . . وهذا هو ما تثبته هذه الحادثة . . التى نشرتها جريدة الأحرار المصرية عدد ٤ أكتوبر سنة ١٩٩٥ نقلاً عن وكالات الأنباء العالمية .

كان البوليس المصرى قد قبض على أفراد إحدى الشبكات الإرهابية الخطيرة التى كانت تقوم فى مصر بعمليات تخريب وقتل واسعة . . وعلى رأس هذه الشبكة الإرهابى طلعت

---

(١) لزيد من الإطلاع راجع كتابنا « التطرف والإرهاب » الهيئة العامة للكتاب . سلسلة « المواجهة » .

فؤاد قاسم . . وقدمت الشبكة إلى القضاء الذى أصدر أحكامه بالإعدام غيابياً على هذا الإرهابى وبعض أعوانه. ولكنهم ظلوا هاربين فى مصر والشرطة تبحث عنهم . . وهنا تحرك الموساد الإسرائيلى لكى يحمى أعوانه فى الداخل . . فقد توصلوا إلى الإرهابى طلعت قاسم ومجموعته فى مخابئهم . . وسلموهم جوازات سفر مزورة وساعدوهم على الهرب من مصر . . وفعلاً تمكنوا من الوصول بفضل الموساد إلى بلچيكا كلاجئين سياسيين . . وقد اشترطت عليهم إسرائيل أن يواصلوا نشاطهم التخريبى من الخارج .

وهكذا أصبح الإرهابى طلعت قاسم الناطق الرسمى لما يسمى بـ « الجماعة الإسلامية » . . والمنظم لنشاطها من الخارج .

وابتدأت مصر من خلال القنوات الدبلوماسية اتصالها بهذه الدول التى تأوى الإرهاب . وعندما علمت إسرائيل أن بلچيكا على وشك تسليمهم قرر الموساد أن يلعب بهذه الورقة المحروقة لعبة أخيرة لصالحه . .

فأقنعوا طلعت قاسم وجماعته بأنهم يستطيعون ترحيلهم إلى البوسنة ليبدأوا صفحة جديدة من الجهاد. وصلت المجموعة فعلاً إلى مطار كرواتيا . وفى نفس الوقت اتفقت إسرائيل مع الحكومة الكرواتية أن يسمحوا للموساد الإسرائيلى باختطاف طلعت قاسم وجماعته بمجرد وصولهم فى مطار زغرب . . وفى مقابل ذلك تهدى إسرائيل الجيش الكرواتى أجهزة إنذار متطورة من صنع إسرائيل وتمت الصفقة ونقل المختطفون إلى مكان مجهول . . وابتدأت إسرائيل تستخدم هؤلاء الإرهابيين كورقة ضغط ومساومة مع الحكومة المصرية للإفراج عن بعض جواسيس إسرائيل فى السجون المصرية مقابل تسليمها هؤلاء الإرهابيين .

كل هذا كان يحدث فى الوقت الذى كان فيه قادة إسرائيل : رئيس الوزراء اسحق رابين ووزير الخارجية شيمون بيريز . . يلتقون فى واشنطن بالزعماء العرب . . الرئيس حسنى مبارك والملك حسين والرئيس ياسر عرفات . . لتوقيع معاهدات الصلح . . ويتصافحون بالأيدى من أجل قضية السلام .

فهل بعد هذا كله يتصور أى إنسان ساذج . . أن مؤامرات إسرائيل ضدنا سوف تنتهى بمجرد عقد معاهدات السلام ؟ .

ومن هنا نطالب بأن هذه المعاهدات يجب أن يلحق بها بند هام صريح وواضح بعدم التدخل فى الشئون الداخلية والتوقف عن المؤامرات والفتن . . وإلا فما معنى السلام وما فائدته ؟ .

إسرائيل وتهريب المخدرات إلى مصر :

منذ الصلح مع إسرائيل ، ابتدأت تظهر فى الأسواق المصرية أنواع جديدة وفتاكة من المخدرات . . وفى سنة ١٩٨٦ وقع فى قبضة الشرطة أحد عملاء الموساد اسمه (يوسف طحان) وهو يهودى من أصل مصرى وكان يعيش فى مصر قبل حرب سنة ٤٨ . . وقد جندته المخبرات الإسرائيلية لجلب المخدرات إلى مصر وتوزيعها على النوادى والمدارس فى الأرياف والمدن وتسميم الأطفال والكبار . وقد اعترف يوسف طحان بأنه يرأس شبكة كبيرة من المهربين فى سيناء فى داخل المدن . . وقد حكم عليه بالإعدام سنة ١٩٨٦ ومع ذلك لم ينفذ الحكم حتى الآن بسبب تدخلات من حكومة إسرائيل . فقد وصل بهم الفجور أن يدافعوا عنه بدلا من أن يتبرؤا منه .

إسرائيل وشبكات الدعارة ونشر الإيدز :

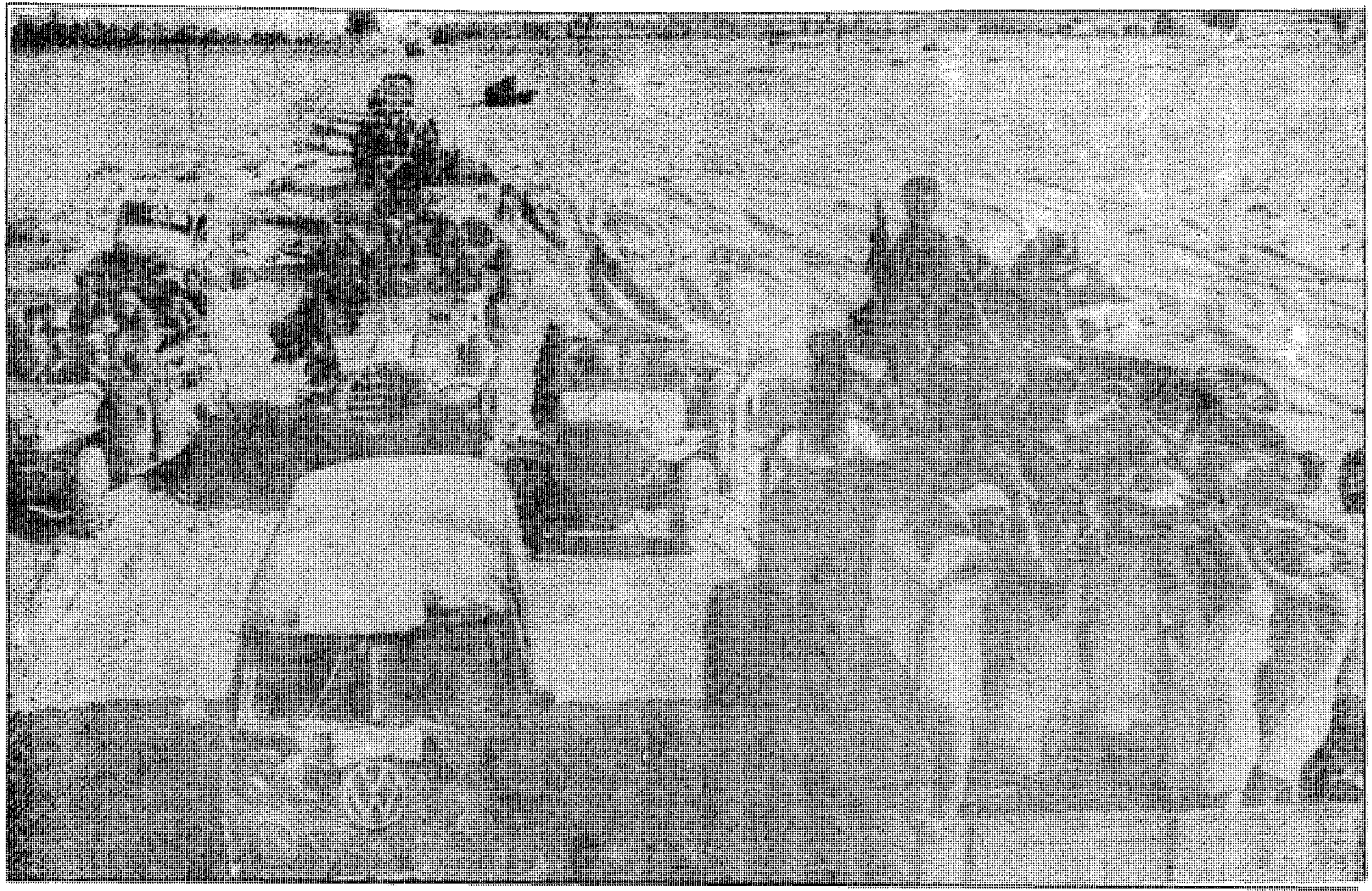
ظهر فى بعض الصحف العربية إعلانات غريبة تحمل طابع البراءة وتخفى تحتها أخطر شبكة لتصدير الدعارة والإيدز إلى الشباب العربى . ومكتوب فى الإعلان : « تعرف على أناس جدد وأصدقاء جدد عن طريق خدمة تليفونية على مدى ٢٤ ساعة » . وحتى تبعد إسرائيل عن نفسها الشبهة ، فقد جعلت مركز هذه الخدمة فى شركة هولندية ورقم تليفون دولى . . وتتراوح هذه الخدمات من الدردشة على التليفون مع فتيات يحترفن فنون الجنس والإثارة الجنسية . . إلى أن تصل الفتاة مباشرة من تل أبيب أو حيفا إلى غرفة نوم العميل . . وفى عدد ٢١/٨/ ١٩٩٥ نشرت مجلة روزاليوسف أسرار مهنة الدعارة التى يقدمها الموساد الإسرائيلى للشباب العربى . وبينت أن هناك سنترال خاص فى تل أبيب لبيع الجنس فى التليفون لزيادة الدخل القومى . وأن هناك عاهرات فى هيئة التليفونات الإسرائيلية مقابل ٧٥٪ من ثمن المكالمة . وأن هناك كمبيوتر يعرض على الزبون أصوات تسع فتيات ليختار منهن ما يشاء . وإسرائيل تعتبر الدعارة من أهم موارد الدخل القومى ، ومن أهم وسائلها فى تحطيم الشعوب الأخرى وخاصة مع انتشار الإيدز بين المومسات الإسرائيليات .

ومعروف أن الدعارة ليست عيباً ولا حراماً فى نظر الصهيونية العالمية ، بل هى مهنة لزيادة الدخل القومى . . وقد نشرت الصحافة المصرية قصة شاب مصرى يعمل فى فندق سياحى فى سيناء وقد أصيب بمرض الإيدز . واضطر أهله إلى إبلاغ الشرطة ووزارة الصحة عنه خوفاً من العدوى ، حيث اعترف بأنه أخذ المرض من إحدى السائحات الإسرائيليات .

الموساد والنصب والاحتيال وتزوير العملات :

تركز إسرائيل على الدول البترولية الغنية فى عمليات النصب والاحتيال . . وعندما كنت أعمل فى الكويت كانت تصلنى على صندوق البريد مراسلات فيها إغراء شديد . وكان يزورنا الكثير من الأجانب ، وخاصة من هولندا والسويد ، وهم فى الحقيقة عملاء إسرائيليون . وقد أقامت إسرائيل مكتباً كبيراً فى قبرص وأخذوا يرسلون إلى كل فرد فى دول الخليج فكرة جهنمية رغم بساطتها . . وتتلخص الفكرة فى أن كل من يريد الاشتراك معهم يدفع لهم بالبريد ورقة بعشرة دولارات ومعها عنوان أحد أصدقائه الذى يكون راغباً فى المشاركة مثله . فإذا وصلتهم مشاركة هذا العضو الجديد فإنهم يرسلون إلى الأول مبلغ عشرين دولاراً . عبارة عن مساهمته الأصلية مع ربحه عن اشتراك عضو جديد .

وقد أقبل ألوف الناس على هذه العملية التى تشبه المقامرة لأنه مال يأتى من غير تعب وهو عبارة عن مال أخيه الذي أشركه معه وأقنعه بالمخاطرة . . وكانوا أول الأمر يدفعون بمنتهى الدقة والنظام وفى وقت قياسي ثابت لا يتغير . مما جعل العملية تكبر وتتطور . فكان بعضهم يضاعف مبلغ الرهان إلى ألف دولار مع تقديم عشرة مشتركين جدد . فما أن يدفعوا حتى يصله مبلغ ألفين خلال مدة خيالية . . وقد بلغ السباق على المشاركة إلى حد أن خادمتى الفلبينية جاءت ترجونى أن أبعث لها بالمشاركة . . فأخذت أشرح لها أن هذه العملية مشبوهة وغير منطقية وسوف يأتى يوم يتوقفون فجأة عن الدفع بعد أن يجمعوا أكبر قسط من المال . . ولكنها لم تصدق كلامى وذهبت إلى أحد الجيران وطلبت منه ارسال خطابها . ولم يمض وقت طويل . . حتى كانت هذه الشركة الوهمية قد جمعت ملايين الدولارات ثم اختفت فجأة وتوقفت . وذهب الناس إلى الشرطة . . وإلى الحكومة . . وتحرت الجهات الرسمية عن هذه الشركة فى قبرص . . فتبين لها أنها شركة وهمية وأنها قد أغلقت مكاتبها فى قبرص ولم يعد لها أى وجود أو أثر . . وقيل لهم أن هذه العملية يقوم بها عملاء إسرائيليون من الموساد لجمع الأموال من أثرياء الخليج بالاحتيال والنصب .



أسرى الحرب المصريين .. يعاملهم الإسرائيليون معاملة غير إنسانية .. فى حرب ١٩٥٦
فقد جردوهم من ملابسهم وأحذيتهم وقيدوهم بالسلاسل وشحنوهم فى السيارات إلى طوابير الإعدام



أسرى الحرب الإسرائيليون في حرب سنة ١٩٧٣

وقد عاملتهم مصر معاملة حسنة لا يستحقونها .. وعلى الباغي تدور الدوائر

وقد أذاعت حكومة الكويت فى ذلك الوقت تحذيراً إلى المواطنين من التعامل مع هذه المكاتب المشبوهة . . ولكن كان الأوان قد فات

كلمة ختام :

هل يمكن السلام مع إسرائيل

كان هذا الكتاب بمثابة مذكرات شخصية سجلتها أثناء العدوان الثلاثى سنة ٥٦ . . ونشرتها فى كتاب سنة ١٩٦٠ وأضفت إليها دراساتى وأفكارى من واقع التجربة التى عايشتها .

ومنذ صدور هذا الكتاب تتابعت الأحداث وتوالت بين العرب وإسرائيل . . فحدثت نكسة سنة ١٩٦٧ . . ثم قامت حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ . . و أخيراً بدأت محادثات السلام بين العرب وإسرائيل . . وبدأ عهد جديد من العلاقات بين مصر وإسرائيل فى ظل معاهدة السلام فى كامب ديفيد . ثم بين الفلسطينيين وإسرائيل بعد اتفاقية طابا وفى الطريق اتفاق حول الجولان مع سوريا .

ومنذ ذلك الوقت كان يوجه إلىّ دائماً سؤال هام هو :

هل يمكن للعرب أن يتعايشوا مع إسرائيل . . وهل يمكن أن يقوم بيننا وبين اليهود سلام حقيقى ودائم ؟

وكنت دائماً أرد على هذا السؤال بالآية الكريمة : **﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾** فمن ناحيتنا كعرب ومسلمين فإننا أمة مسالمة لم تلجأ فى تاريخها كله إلى العدوان أو محاولة إبادة غيرها من الشعوب والأديان .

الأمر يتوقف على ثلاثة محاور رئيسية :

أولا - إسرائيل وموقفها منا : ولست أقصد بهذا الموقف الرسمى المعلن وحده فهذا قد سمعنا منه الكثير ولم يصدق منه إلا القليل . . لكنا نريد صدق النوايا . . والرغبة الحقيقية فى السلام . . فهل يستطيع يهود العالم أن يتعايشوا فى سلام معنا ؟ هل يستطيعون أن يتخلوا عن أسلوب التعالى على غيرهم من شعوب الأرض . . ومحاولة إبادتهم أو تدمير اقتصادهم ودس الفتن والقلاقل لإضعافهم ؟

إننى أوافق على السلام مع إسرائيل . . ولكن بشرط هام أن تغير إسرائيل من نهجها الذى اتبعته طوال سنين الحرب التى استمرت من سنة ١٩٤٨ وحتى توقيع معاهدة السلام . وأن تفتح صفحة جديدة من أسلوب التعايش وعدم التآمر . وأن تترك غيرها يعيش فى سلام كما تحب هى أن تعيش فى سلام .

ثانيا – أن نكون نحن العرب وخاصة مصر على حذر دائم . . وإذا كان القانون لا يحمى المغفلين . . فإن التاريخ أيضاً لا يعفى الغافلين . ولا يعذرهم بل لا يحترمهم . . لقد كنت دائماً أقول : ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم** ﴾ . . وفى نظرى أن الله تعالى قد بعث إسرائيل فى هذه المنطقة لكى تقوم بين المسلمين والعرب يقظة جديدة . . وصحوة جديدة . . ولكى تتحقق اليقظة والصحوة فلابد من قيام الديمقراطية الحقيقية فى العالم العربى . . وأن نقضى على حكم الفرد الذى تسبب فى هزيمة ٥٦ ونكسة ٦٧ . . فبالديمقراطية وحدها تتكشف الحقائق وتتفتح الأبصار . . ويتوقف المفسدون والمتاجرون بمصائر الأمم . . ويصل إلى المناصب المسئولة أهل الكفاءة ، لا أهل الثقة والمحسوبية .

ثالثاً – تصفية الماضى : إن السلام الدائم لا يمكن أن يقوم على الغش أو التعمية أو المداراة . بل على المصارحة والمحاسبة والمكاشفة . . و هناك جوانب كثيرة من العلاقات العربية الإسرائيلية يجب تصفيتها . . وأولها موضوع إعدام الأسرى المصريين والفلسطينيين .

١ – يجب أن تعرض مصر وفلسطين قضية إعدام الأسرى على محكمة العدل الدولية وعلى لجنة حقوق الإنسان فى الأمم المتحدة وذلك لتثبيت حقهم التاريخى ومنع تكرار ما حدث فى المستقبل .

٢ – ويجب أن تعترف إسرائيل رسمياً بما حدث ، كما اعتذرت اليابان وألمانيا من قبل . فهذا عرف متفق عليه بين الشعوب والدول التى تريد نسيان الماضى وبداية سلام عادل بينهما .

٣ – يجب أن يتفق الطرفان على تعويض مناسب لأسر ضحايا طوابير الإعدام .

أما إدعاء السلطات الإسرائيلية هذه الأيام بأن هذه الجرائم قد سقطت بانقضاء مدة أكثر من عشرين عاماً . فهذا ادعاء باطل لأن القانون الدولى ينص على أن جرائم الحرب

التى تحدث فيها مذابح جماعية لا تسقط بالتقادم . . وهذه هى إسرائيل نفسها قد اختطفت القائد النازى (إيخمان) الذى كان مختبئاً بعد الحرب فى البرازيل وحاكمته عن جرائمه بعد أكثر من ٣٠ عاماً . . ونفذت فيه حكم الإعدام . . ومازالت ألمانيا حتى اليوم تدفع التعويضات لليهود . . أم أنهم يريدون أن يعاملوا أعداءهم بمكيال غير الذى يتعاملون به معنا .

إن السلام الحقيقى لن يقوم إلا على الصراحة والوضوح والرضى من الطرفين .

★ ★ ★

كتب للمؤلف

١ - « **إسرائيل كما عرفتها** » يشرح خبرة المؤلف حول إسرائيل من خلال عمله كطبيب فى قطاع غزة ثم احتلال القطاع فى حرب سنة ١٩٥٦ حيث أُخذ أسير حرب إلى معتقل عتليت شمالى عكا ، الناشر : دار الأمين للنشر والتوزيع .

٢ - « **كيف نحكم بالإسلام فى دولة عصرية** » يكشف المفاهيم الخاطئة والممارسات المنحرفة التى تطبق بها بعض الدول الحكم بالإسلام ويقدم الفهم الصحيح للحكم الإسلامى - « الهيئة العامة للكتاب » .

٣ - « **الطب الوقائى فى الإسلام** » يبين تعاليم الإسلام للوقاية من الأمراض وإقامة مجتمع صحى منيع ضد الأوبئة ويشرح تعاليم الإسلام الطبية فى ضوء التكنولوچيا المعاصرة والطب الحديث - «الهيئة العامة للكتاب» .

٤ - « **الاختلاط** » «**فى الدين وفى التاريخ وفى علم الاجتماع** » يبين مكانة المرأة المسلمة فى المجتمع ودورها فى العمل إلى جانب الرجل لبناء أمة قوية سليمة - « الهيئة العامة للكتاب » .

٥ - « **الإسلام والحياة الجنسية** » دار عالم الكتب ٢٨ ش عبد الخالق ثروت ت : ٢٩٢٦٤٠١ .

٦ - « **النقاب** » « **فى التاريخ وفى الدين وفى علم الاجتماع** » يبين النصوص من القرآن والسنة وآراء كبار علماء الفقه والشريعة على أن النقاب لم يفرضه الإسلام بل هو مكروه شرعًا - « الهيئة العامة للكتاب » ، «سلسلة قضايا إسلامية » .

٧ - « **العلوم الإسلامية** » ٣ أجزاء بالصور الملونة - مؤسسة الكويت للتقدم العلمى . الكويت .

٨ - « **التطرف والإرهاب** » يشرح الفكر الإرهابى وانحرافاته وخطره على الإسلام ومصادره الفكرية والمادية وعلاقة إسرائيل به . « الهيئة العامة للكتاب ، سلسلة المواجهة » .

٩ - « **الإسلام والديموقراطية** » - « الهيئة العامة للكتاب » .

١٠ - « **الختان** » « **فى الطب وفى الدين وفى القانون** » - دار الأمين للنشر والتوزيع .

١١ - « **الإعجاز الطبى فى القرآن والسنة مقارنا بالتوراة والانجيل** » - تحت الطبع .

★ ★ ★

سلسلة التمثيليات الإسلامية :

مجموعة من التمثيليات التى تصلح للمسرح أو التليفزيون أو السينما . تجمع بين الدقة والأمانة التاريخية إلى جانب الأسلوب الدرامى .

١ - « **خولة بنت الأزور** » « فارسة الإسلام » .

٢ - « **سراقة بن مالك** » « الصحابى المتوج » .

٣- « **رفيدة** » « الممرضة الأولى فى الإسلام » . الحائزة على جائزة وزارة الصحة والهلال الأحمر الكويتى .

٤ - « **شروق الإسلام فى مصر** » عن فترة الحياة فى مصر وقت دخول الإسلام بقيادة عمرو ابن العاص والسر فى إقبال المصريين على الإسلام .

٥ - « **عمر بن عبد العزيز** » « خامس الراشدين » . كيف أعاد إلى الحكم بالإسلام وجهه الصحيح .

٦ « **السابقون إلى الإسلام** » .

- تطلب هذه السلسلة من دار القلم للنشر والتوزيع ، القاهرة ش القصر العينى رقم ٢٦ ت : ٣٥٠١١٠٥ .

٧ - « **سلمان الفارسى** » « الباحث عن الحقيقة » - دار عالم الكتب ٢٨ ش عبد الخالق ثروت - ت : ٢٩٢٦٤٠١ .

★ ★ ★

أعمــال تليفزيونية وإذاعية :

١ – مـسلسل « **صور من الحضارة الإسلامية** » ٣٠ حلقـة تليفـزيونية ، أذيـع من تليفـزيون القاهرة فى شهر رمضان .

٢ – مسلسل « **خولة بنت الأزور** » تليفزيون الكويت .

٣ – مسلسل « **سراقة بن مالك** » تليفزيون الكويت .

٤ – المسلسل الإذاعى « **عمر بن عبد العزيز** » ٣٠ حلقة إذاعة الكويت .

٥ – المسلسل الإذاعى « **الأسرة المسلمة** » ٣٠ حلقة إذاعة الكويت .

★ ★ ★

أعمــال فنيــة :

١ – **النتيجة العلمية المصورة** : الناشر مؤسسة الكويت للتقـدم العلمى ٣ أعـداد : الطب الإسلامى – العمـارة الإسلامية – علم الفلك .

٢ – **مجموعة المعارض الفنية** : الكويت – لندن .

★ ★ ★

Inside Israel's can of worms

Egyptians taken prisoner by Israel during the 1956 Suez War recount their experiences of Israeli atrocities to Jihan Shahine, including the killing of prisoners, sometimes by forcing them to lie in the path of moving tanks

Al-Ahram

فضيحة قتل الأسرى المصريين تشرخ في العلاقات المصرية الإسرائيلية

Fangari was among the group of detainees. Although they were all unarmed civilians, they were taken prisoner and transported by Israeli trucks to a remote desert site along the Gaza border. There, they had to sit in the sun for two days with no food or water provided, as Israeli officers processed their details: ages, professions and combat abilities.

Then groups of them began to simply vanish. They would be taken away by Israeli trucks and never reappear. Fangari recalled how an 18-year-old Palestinian, called Jaber, whispered to him that he was sure they had been shot and killed by Israeli soldiers in cold blood.

شاهد عيان يروي لـ الصيا... وقائع مثيرة يملك وثائقها

د. احمد شوقي الفنجري:

رجل خشبية مجوفة تحتوي على ذهب ومصاغ كشفت مجزرة في غزة !

الأحرار

قطائع جديدة لخنازير اليهود يرويها طبيب مصرى أسير..

كنت أسيراً فى المعسكرات الإسرائيلية



محمد خلف الله

هل تدفع إسرائيل ثمن جرائم الحرب؟

المنظمة المصرية لحقوق الإنسان
The Egyptian Organization For Human Rights (E.O.H.R)

نبذة عن الدكتور الفنجري

طوابير إعدام جماعية فى عتليت وهجوم مسلح على مستشفى غزة لاعتقال المرضى وكبير أطباء

حوار
ياسر مشالى

شاهد عيان

Dr Ahmed Shawki El Fangari is an Egyptian doctor who was attached to the UN Relief and Works Agency for Palestinian Refugees (UNRWA) and based in the Gaza Strip — then administered by Egypt — during the 1956 Suez War. In an interview with *Al-Ahram Weekly*, he recounts a horrifying story of how scores of unarmed civilians were taken from a prisoner of war camp by Israeli trucks and never returned. Although their fate was a mystery at first, it was later revealed that they had been killed in cold blood by the Israelis.

Fanga... sun."

Some ... hour, dist... refused by ... were killed a... could be killed ...

"We were al... we felt that we ... said.

Ironically, Fang... would deliver lectu... ...ered, Israeli officers ...ne prisoners on "how civ-

شهادة طبيب مصرى عمل مع الأمم المتحدة

تكشف أسرار المذابح وطوابير الإعدام فى غزة

قضايا وآراء

٢٣ أغسطس ١٩٩٥

الأهرام

شهادة طبيب مصرى أسير حول طوابير الاعدام فى حرب سنة ١٩٥٦

من أقوال وسائل الإعلام العالمية

عن موضوع الكتاب

* شاهد عيان يروى وقائع مبهرة عن قتل الأسرى المصريين . رِجْل خشبية تحتوى على ذهب ومصاغ كشفت عن مجزرة غزة .

مجلة الصياد اللبنانية سبتمبر سنة ١٩٩٥

« الفت قطامش »

* شهادة طبيب مصرى عمل مع الأمم المتحدة تكشف أسرار المذابح وطوابير الإعدام فى غزة .

مجلة أكتوبر سبتمبر سنة ١٩٩٥

« محمد خلف الله »

* طبيب مصرى شاعد عيان على مذبحة الأطباء والجرحى فى المستشفيات وطوابير الإعدام الجماعى فى الساحات فى حرب سنة ١٩٥٦ .

الأهرام سبتمبر سنة ١٩٩٥

* فظائع جديدة لسفاحى إسرائيل يرويها طبيب مصرى أسير . طوابير إعدام جماعى وهجوم مسلح على المستشفيات وأمصال قاتلة للأهالى فى غزة .

جريدة الأحرار

« ياسر مشالى »

* لقد سمعنا اليوم فى هذه الجلسة أسراراً مهولة عن معاملة إسرائيل للأسرى كانت خافية على الشعب المصرى . ويزيد من أهميتها أن الدكتور/ أحمد شوقى الفنجرى شاعد عيان . وأن هذه الجرائم لا تسقط بالتقادم . ويجب عرضها على جمعية حقوق الإنسان بالأمم المتحدة .

المنظمة المصرية لحقوق الإنسان

« عصام الدين محمد حسن »

* Inside Israels can of worms Dr. Ahmed Shawkey El Fangary who worked in UNR WA in gaza 1956 reconnts a horrible story

Al - Ahram Weekly - Jihan Shahine

* كانت هذه أقوال شاهد عيان لطوابير الإعدام للأسرى المصريين والفلسطينيين فى حرب سنة ١٩٥٦ . الدكتور الفنجرى يبلغ من العمر الآن ٧٠ عاماً ، وقد دون كل مشاهداته مع الصور والوثائق فى كتاب « إسرائيل كما عرفتها » .

إذاعة B.B.C. London

« عزة محيى الدين »

ت ٩٣٢٧٠٦

عن موضوع الكتاب ...

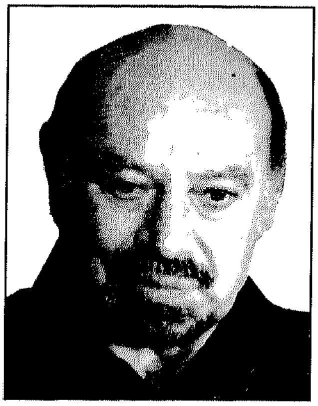
★ شاهد عيان يروى وقائع مبهرة عن قتل الأسرى المصريين .
رِجْل خشبية تحتوى على ذهب ومصاغ كشفت عن مجزرة غزة.
مجلة الصياد اللبنانية سبتمبر سنة ١٩٩٥
« الفت قطامش »

★ شهادة طبيب مصرى عمل مع الأمم المتحدة تكشف أسرار المذابح وطوابير الإعدام فى غزة .
مجلة أكتوبر سبتمبر سنة ١٩٩٥
« محمد خلف الله »

★ طبيب مصرى شاهد عيان على مذبحة الأطباء والجرحى فى المستشفيات وطوابير الإعدام الجماعى فى الساحات فى حرب سنة ١٩٥٦.
الأهرام سبتمبر سنة ١٩٩٥

★ فظائع جديدة لسفاحى إسرائيل يرويها طبيب مصرى أسير . طوابير إعدام جماعى وهجوم مسلح على المستشفيات وأمصال قاتلة للأهالى فى غزة .
جريدة الأحرار
« ياسر مشالى »

★ لقد سمعنا اليوم فى هذه الجلسة أسراراً مهولة عن معاملة إسرائيل للأسرى كانت خافية على الشعب المصرى . ويزيد من أهميتها أن الدكتور/ أحمد شوقى الفنجرى شاهد عيان . وأن هذه الجرائم لا تسقط بالتقادم . ويجب عرضها على جمعية حقوق الإنسان بالأمم المتحدة .
المنظمة المصرية لحقوق الإنسان
« عصام الدين محمد حسن »



د. احمد شوقى الفنجرى

★ طبيب مصرى من مواليد سنة ١٩٢٥ .

★ عمل طبيباً فى هيئة إغاثة اللاجئين فى قطاع غزة من سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٥٧ .

★ عندما احتلت إسرائيل قطاع غزة سنة ١٩٥٦ أخذ أسير حرب إلى معتقل عتليت شمالى عكا .

★ اكتشف محاولة إسرائيل لإبادة اللاجئين بنشر وباء الجدرى بينهم وأحبطها وأذاعها على العالم مؤيدة بالوثائق .

★ له عشرات المؤلفات والكتب، والأبحاث والأحاديث فى الدين والطب والسياسة والمسرح والموسيقى والتصوير والرحلات.